خضر عيد السرحان

دمشق من خلال كتب الرحلات

في العصرين الايوبي والمملوكي

(بين القرنين السادس والثامن هـ/الثاني عشر والرابع عشر م)

تقديم

أ. د. محمد الارناؤوط

الإهداء

الى دمشق الخالدة بخلود تاريخها

إلى روحي أمي وأبي في أكرم جوار

وفاءً وعرفاناً

فهرست المحتويات

تقديم

أتيحت لي قبل عدة سنوات فرصة لزيارة كلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالرباط بمناسبة انعقاد ندوة دولية عن المغارب خلال العصر العثماني بدعوة من المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب. وإذا كانت هذه الندوة مناسبة للتعرّف على العمل البحثي والنشاط الأكاديمي للزملاء المغاربة، الذين يعملون بجدّية أكثر مما لدينا في المشرق، فقد كانت زيارة كلية الآداب مناسبة أخرى للتعرف على جهد علمي كبير في مجال لم نشتغل فيه كثيراً في المشرق: كتب الرحلات باعتبارها مصدراً تاريخياً ومظهراً للتواصل مع الاخر. وهكذا فقد عدت بحوالي عشرة كتب تمثل دراسات وأوراق ندوات ومؤتمرات محلية ودولية تتمحور حول هذا الجانب المعرفي المهم مثل "أوربا في مرآة الرحلة – صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة" لسعيد بنسعيد العلوي، و"الرحلة بين الشرق والغرب" بتنسيق محمد حمام، و"الرحلة والغيرية" بتنسيق عبدالرحيم بنحادة وخالد شكري، و"السفر في العالم العربي الاسلامي – التواصل والحداثة" بتنسيق عبدالرحمن المؤذن وعبدالرحمن بنحادة الخ.

ومع عودتي كان لديّ مادة "مناهج البحث العلمي في التاريخ" لطلبة الماجستير في قسم التاريخ بجامعة آل البيت، حيث رأيت أن أشتغل معهم في كتب الرحلة كمصدر من مصادر التاريخ الاسلامي الوسيط والحديث مع التركيز على التاريخ الاقتصادي والاجتماعي. ومن المفهوم هنا أن التركيز

على كتب الرحلة كمصدر من مصادر التاريخ لا يعني بأي حال من الأحوال تكريس وهم الاعتماد عليها لوحدها في استجلاء الحقيقة التاريخية بل الاستفادة منها لاستكمال الفسيفساء التاريخية التي تجعلنا نقترب أكثر وأكثر من تفاصيل المشهد. وكان ممن التقط أهمية هذا المصدر الباحث خضر السرحان الذي اختار لرسالة الماجستير أن يدرس دمشق بالاستناد إلى كتب الرحلات خلال العصر الإسلامي الوسيط، وبالتحديد خلال العهدين الأيوبي والمملوكي، وأن يطور عمله لاحقاً لكي يصدر في كتاب يليق بدمشق.

ويبدو بوضوح أن دمشق بمكانتها الدينية والسياسية والاقتصادية قد شدّت إليها الرحالة أكثر من غيرها سواء من الغرب الإسلامي أو من الغرب المسيحي. وربما هنا تكمن قيمة هذه الدراسة لأن السرحان سعى إلى أن يطلع على كتب الرحلة التي وضعها مسلمون ومسيحيون لكي تكون الصورة عن دمشق شاملة أكثر. فمع الفوارق بين المشرق والغرب الإسلامي كان الرحالة القادمون من الغرب الإسلامي يكتشفون أو يتنبهون إلى بعض الامور التي اعتاد عليها الدمشقيون، ومثل ذلك وأكثر مع الرحالة الذين جاؤوا من الغرب المسيحي بمعلومات محدودة أو بصورة مسبقة ليكتشفوا هنا واقعاً مختلفاً.

ومن هنا كان على السرحان أن يقوم أولاً بجولة في المصادر وكتب الرحلة ليعرف بها وبما تمثله بالنسبة إلى الموضوع ثم يعرج على دراسة لجغرافية دمشق وأوضاعها السياسية والإدارية خلال العهدين الإيوبي والمملوكي.

ويمكن القول إن كل هذا كان تمهيداً لموضوعه الأساسي الذي

يغطي الفصول الثلاثة الأخيرة. ففي الفصل الرابع يتحدث عن "دمشق كما شاهدها الرحالة" بينما ينتقل في الفصل الخامس للحديث عن "الحياة الاقتصادية في دمشق من خلال كتب الرحلات" ويختتم بالفصل السادس عن "الحياة الاجتماعية في دمشق من خلال كتب الرحلة". وبالإضافة إلى ذلك فقد أورد بعض الملاحق المفيدة التي استخلصها أيضاً من كتب الرحلات.

ويلاحظ هنا أن السرحان ركّز أكثر على دراسة الحياة الاقتصادية والاجتماعية لدمشق في الفترة المذكورة، وهو ما يعطي كتب الرحلات كمصدر أفضلية واضحة. فكتب التاريخ التي نعرفها تركز أكثر على التاريخ السياسي بينما يزداد الاهتمام منذ عقود بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي. ومن هنا نجد في العقود السابقة محاولات منهجية ومقاربات جديدة للتعرف على التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمنطقة من خلال مصادر متنوعة لم تكن تجذب الباحثين في السابق مثل سجلات المحاكم الشرعية وكتب الوقف أو الوقفيات وكتب النوازل أو الفتاوى الخ.

وفي هذا السياق يمكن أيضاً إدراج كتب الرحلات ضمن المصادر التي يزداد الإقبال عليها من الباحثين في السنوات الأخيرة. ولم يكن السرحان، الذي تمتد قبيلته على الحدود الأردنية السورية، يحتاج إلى إذن ليختار دمشق موضوعاً لكتابه لأنه كان يكتب عن دمشق حين كانت حاضرة بلاد الشام التي تشد الرحال إليها، ولذلك كتب عنها ما كتب بهوى الدمشقي عن مدينته دون أن يفقد موضوعيته. فالسرحان جاء من بيئة عسكرية تعرف الانضباط والجدية وهو ما ساعده على تحمل مشاق البحث العلمي حين انتقل من الحياة العسكرية إلى الدراسة الأكاديمية. ومع صدور

هذا الكتاب نأمل أن يشد هذا المصدر (كتب الرحلات) المزيد من الباحثين الشباب ليغنوا معرفتنا أكثر بالتاريخ الاقتصادي الاجتماعي لمدن بلاد الشام، وخاصة بالاستناد إلى المخطوطات التي لم تنشر بعد وإلى كتب الرحلات الأوروبية التي لم تترجم بعد، وصولاً إلى صورة شاملة أكثر عن تاريخ بلاد الشام في العهود المختلفة.

والله ولي التوفيق.

عمّان 4 نيسان 2013

محمد م. الارناؤوط
جامعة العلوم العالمية الإسلامية

تمهيد

أعطى الباحثون اهتماماً كبيراً لدراسة تاريخ دمشق السياسي، وهي جديرة بذلك نظراً لدورها البارز والمؤثر في مختلف الأحداث التي شهدها العالم الإسلامي منذ بداية الدعوة وحتى الوقت الحاضر.

إلا أن البحث في أوضاع دمشق الحضارية ظل محدوداً، وتبين لي أنه لم يتم اعتماد كتب الرحلات مصدراً لدراسة دمشق، لذا أقدمت على دراسة أوضاع دمشق من خلال كتب الرحلات كمصدر رئيس لهذه الدراسة.

تناولت دراستي أوضاع سكان دمشق المعاشية، ودرست الأوضاع الاقتصادية في دمشق في تلك الفترة كما رآها الرحالة، فتم التطرق إلى الزراعة والصناعة والتجارة، ولقد زودنا الرحالة بإشارات مهمة عن تحسن أحوال سكان دمشق المعاشية حيث ازدهرت الصناعة وراجت التجارة بشكل ملحوظ.

لاحظت من خلال دراستي التباين الواضح بين ما دوَّنه الرحالة المسلمون القادمون من شرق العالم الإسلامي، وبين الرحالة القادمين من المغرب العربي والذين ركزوا على إظهار الجانب العلمي والحضاري لدمشق، كما لاحظت الاختلاف الواضح بين كتابات الرحالة المسلمين بصفة عامة، والرحالة الأجانب بوصف النواحي التجارية؛ من حيث صنوف البضائع المعروضة وتقدم الصناعة الدمشقية على غيرها من البلدان حسبما وصف الرحالة الأجانب، والذين أدهشهم تدريب الطيور في دمشق على نوع خاص من

المحاكاة للغة البشر فتنطق بها.

ثم تطرقت إلى أوضاع دمشق الاجتماعية من مختلف جوانبها، كما أوردها الرحالة، فتعرضت لفئات المجتمع الدمشقي ولاحظت أنهم ركزوا في رحلاتهم على فئتين محددتين من فئات المجتمع، فئة أهل العلم والعلماء، وفئة التجار والحرفيين، وقد تعجب الرحالة الأجانب كيف أن أهل دمشق تقدموا علمياً وحضارياً فشدهم البيمارستان النوري بعظمته وتراتيبه الخاصة وما ينفق به على المرضى من مختلف الأقطار. كما ركز الرحالة الأجانب رغم تسجيل انطباعاتهم الخاصة عن المجتمع الدمشقي على التجار والحرفيين.

تناول البحث كل ما يتعلق بمجتمع دمشق من مؤسسات المجتمع التي تعنى بشؤون الأفراد من تعليم وصحة وتامين الاحتياجات المعيشية لسكان دمشق من مرافق عامة تؤمن لأهلها الراحة والتواصل فيما بينهم.

كما تم تناول المؤسسات التعليمية من مساجد ومدارس وما يتعلق بها من نظم اجتماعية ساعدت على انتشار التعليم والرقي به خاصة مؤسسة الوقف ودورها في تشجيع العلم والحث عليه.

ولكي يتمكن القارئ من تكوين صورة واضحة عن دمشق كان لا بد من التعريف بجغرافية دمشق، وإعطاء لمحة سريعة عن أهم الأحداث التاريخية التي مرت بها والنظم الإدارية التي كانت سائدة في تلك الفترة الممتدة ما بين القرنين السادس والثامن الهجريين/الثاني عشر الرابع عشر الميلاديين.

المقدمة

دمشق من أقدم المدن في التاريخ، تمتاز بمحافظتها على عروبتها رغم كل الظروف، فقد صهرت مختلف القوميات في العروبة منذ المد الإسلامي الأول مروراً بالسلاجقة والأيوبيين والمماليك الذين حولوا بيزنطة لدولة تركية، إلا أنهم في دمشق تحولوا عرباً[1].

كانت دمشق مقصداً رئيسياً للرحالة المسلمين والأجانب أثناء فترة الدراسة الواقعة ما بين القرنين السادس والثامن الهجريين/الثاني عشر والرابع عشر الميلاديين ولقد تعددت أسباب الرحلة ودوافعها، ولكنها مجتمعة أوجبت على الرحالة المرور بدمشق، فإن كانت الرحلة من أجل العلم أو من أجل الحج أو من أجل التجارة، لا بد من المرور بدمشق فاستقبلت دمشق جموع الرحالة والوافدين من مختلف الأقطار الإسلامية[2].

كان العالم الإسلامي يشهد فترة صراع مذهبي وعسكري،

---

[1] الأوتاني، أحمد محمد، **دمشق في العصر الأيوبي**، ط1، التلوين للتأليف والنشر، دمشق، ص7. وسيشار له لاحقا: الأوتاني، دمشق. وانظر: خربوطلي، شكران، **إجراءات الامويين لتحويل دمشق إلى مدينة إسلامية**، الندوة الدولية دمشق في التاريخ، 1427هـ/2006، وزارة التعليم العالي السورية، دمشق، ط.1، ج1، ص273. سيشار له لاحقا: الندوة الدولية دمشق في التاريخ، 2006.

[2] عباس، إيناس احمد، الندوة الدولية دمشق في التاريخ، 2006، **دمشق محطة للمغاربة والأندلسيين في الرحلة إلى المشرق**، ج1 ص456.

فالصراع السني – الشيعي في أوجه، وكلا الطرفين يسعى للاستحواذ على دمشق، والصراع الصليبي – الإسلامي جعل من دمشق محوراً أساسياً للصراع، والمغول الزاحفين من الشرق وضعوا أمام أعينهم هدفاً واضحاً هو الاستيلاء على دمشق للعبور منها للقاهرة، إلا أن كل هذه الصراعات والخلافات جعلت من دمشق مقصداً للمهاجرين والفارين من أمام زحف الجيوش المعادية[3].

شهدت دمشق هجرة أهالي حلب وما حولها الفارين من الزحف المغولي، وأهالي فلسطين الفارين من الزحف الصليبي، وفي نفس الوقت بدأت دويلات الطوائف بالسقوط في الأندلس وبدأت هجرة جديدة كان لدمشق فيها النصيب الأكبر[4].

دوّن الكثير من المؤرخين القدامى الأحداث السياسية والعسكرية في هذه الفترة وتابعوا تفاصيلها، لكنهم لم يلتفتوا إلى الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لسكان دمشق بشكل كافٍ، وربما كان لجسامة الأحداث ما يشغلهم عن الالتفات لمثل هذه الأمور، وساهم قدوم الرحالة لدمشق بسد هذا النقص، حيث سجلوا مشاهداتهم اليومية لأوضاع مجتمع دمشق، فكانت مصدراً مهماً لدراسة التاريخ الحضاري للمدينة بمختلف جوانبه الاقتصادية والاجتماعية.

حاولت الدراسة متابعة مدى تأثير الصراع العسكري على الوضع الاقتصادي بمختلف جوانبه الصناعية والتجارية لرصد تأثير هذا الصراع على

---

[3] حول الأوضاع التي مرت بها دمشق، انظر الفصل الثاني من هذه الدراسة.

[4] زيادة، نقولا، **دمشق في عصر المماليك**، ط1، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، بيروت، د ت، ص117، سيشار له لاحقاً: زيادة، دمشق في عصر المماليك.

حركة التجارة.

وكيف واجه سكان دمشق الصراع الدائر وما هي نظمهم وتراتيبهم الاجتماعية التي وضعوها لمواجهة تلك الأمور.

تم تقسيم البحث إلى مقدمة وستة فصول وخاتمة تضمنت بعض الاستنتاجات التي توصل إليها الباحث بالإضافة لبعض الصور والجداول التوضيحية التي أضيفت للدراسة.

الفصل الأول:

خصص للتعريف بالمصادر التي تم الاعتماد عليها والتعريف بالرحالة الذين زاروا دمشق في الفترة مابين القرنين السادس والثامن الهجريين/الثاني عشر والرابع عشر الميلاديين وإعطاء صورة عن حياتهم ومؤلفاتهم ومنهجهم في كتابة الرحلة.

الفصل الثاني:

يتكون من مبحثين حيث تناول المبحث الأول الوصف الجغرافي لموقع دمشق من حيث طبيعة الموقع والتسمية وما دار حولها من خلاف والمناخ والعوامل المؤثرة على موقع دمشق من مختلف الجهات وطبيعة الأرض والأنهار التي تخترقها.

أما المبحث الثاني فتم من خلاله إعطاء لمحة تاريخية عن أوضاع دمشق السياسية في الفترة التي سبقت فترة الدراسة لتعطي القاري مدخلاً عن تلك الأوضاع وانعكاساتها على واقع المجتمع الدمشقي.

الفصل الثالث:

تناول هذا الفصل الأوضاع السياسية والإدارية في دمشق خلال فترة الدراسة حيث قسم إلى مبحثين، المبحث الأول تحدث عن الأوضاع السياسية

السائدة في دمشق أثناء فترة الدراسة.

أما المبحث الثاني فتناول الأوضاع الإدارية سيما وأنه قد تعاقب على دمشق خلال هذه الفترة ثلاثة دول.

الفصل الرابع:

تناول الفصل الرابع الحديث عن وصف دمشق كما شاهدها الرحالة منذ دخول المدينة من أبوابها إلى استقرارهم بها فوصفوا (مرافقها من الأبواب والحارات والمسجد والمشاهد والإحياء والضواحي).

الفصل الخامس:

تحدث عن الأوضاع الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة فتم التطرق إلى ملكية الأرض في تلك الفترة وإلى النظام الإقطاعي السائد وأهم منتجات دمشق حيث لعبت دمشق دوراً تجارياً مركزياً، وتم البحث في علاقات دمشق التجارية مع المناطق المجاورة والبعيدة عنها والتعرف على أهم صادراتها ووارداتها، مع التركيز على أنواع صناعتها المشهورة في ذلك الوقت.

الفصل السادس:

تناول الحياة الاجتماعية كما وصفها الرحالة، الذين اهتموا بالحديث عن فئتين محددتين من المجتمع كما تم التعرض إلى المؤسسات الاجتماعية التي كانت منتشرة في دمشق والمؤسسات التعليمة ودور الوقف كما تم إظهار إسهامات المرأة الدمشقية في هذا المجال والعادات والتقاليد السائدة في المجتمع.

اما الخاتمة فقد ضمنها الباحث ما توصل إليه من استنتاجات مع إرفاق بعض الصور التوضيحية لمعالم دمشق.

الفصل الأول

دراسة تحليلية لأهم مصادر البحث

دراسة تحليلية لأهم مصادر البحث:

تعتبر كتب الرحلات المصدر الرئيسي في هذه الدراسة وتم الرجوع إلى كتب لرحالة مسلمين وأجانب زاروا المنطقة، وكتب اختلف الباحثون في تسميتها ما بين كتب الرحلات والكتب الجغرافية وتعتبر هذه الكتب مصدراً غنياً لتلك المعلومات الأساسية للدراسة وستتم الإشارة من خلالها إلى الرحالة الذين زاروا دمشق بتسلسل زمني من بداية الفترة الزمنية للدراسة وحتى نهايتها.

كما شكلت كتب الحوليات والتراجم والسير والموسوعات الجغرافية مادة غنية أثرت الدراسة لأن أصحابها كانوا شهود عيان نقلوا ما رأوه مباشرة.

كتب الرحلات:

- **ابن العربي 468هـ/1076م- 543هـ/1148م:**

محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله ابن العربي المعافري[1] الأندلسي الأشبيلي المالكي[2] ولد بأشبيلية ليلة 8 شعبان سنة 468هـ/1076م

---

[1] ابن بشكوال، (ت 578هـ/1182م) **الصلة**، تحقيق :إبراهيم الأبياري، الطبعة الأولى، دار الكتاب المصري، 1410هـ/ 1989م، ج3، ص855 وسيشار له لاحقاً. أبن بشكوال، الصلة.

[2] ابن خلكان، أبي العباس شمس الدين احمد بن عمر بن أبي بكر (ت 681هـ/1282م) **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق :إحسان عباس، (د.ط)، دار صادر، ج4، ص 296 وسيشار له لاحقاً: ابن خلكان، وفيات ألأعيان.

وتوفي في ربيع الآخر سنة 543هـ/1148م في مدينة فاس ودفن فيها[1].

كانت حياة ابن العربي حافلة بالعلم منذ صغره حيث نشأ في بيت علم وجاه وتعلم على يد شيوخ بلده[2] ثم ارتحل إلى المشرق في نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر ميلادي سنة 485هـ/1092م وهو في مقتبل العمر حيث أمضى رحلته متجولاً بين علماء المشرق الإسلامي زار خلالها القاهرة والإسكندرية وبيت المقدس ودمشق وبغداد والأماكن المقدسة في الحجاز[3] كان ابن العربي حريصاً على الالتقاء بعلماء المشرق والاستزادة منهم في مختلف مجالات العلوم فأمضى ما يقارب ثمانية أعوام منكباً على التبحر فيها عاد بعدها إلى بلاده بعلم واسع وخير بلغ معه مرتبة الاجتهاد وقيل بحقه (لو لم ينسب لأشبيلية إلا هو لكفاها فخراً[4]).

عاد ابن العربي إلى اشبيلية سنة 493هـ/1100م بعد أن توفي والده في المشرق حيث تولى قضاء اشبيلية الذي عرف فيه بالحزم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم عزل عن القضاء وتفرغ لتدريس تلاميذه[5].

---

[1] ابن بشكوال، الصلة، ج3، ص 857.

[2] أعرب، سعيد. **مع القاضي أبي بكر بن العربي**، دار الغرب الإسلامي، طبعة بلا، ص11 وسيشار له فما بعد: أعرب، مع القاضي أبي بكر ابن العربي.

[3] الضبي، احمد بن يحيى بن احمد بن عميرة (ت 599هـ/1203م) **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس،** دار الكتاب العربي، 1967، ص 92 وسيشار له لاحقاً :الضبي، بغية الملتمس.

[4] ابن سعيد، علي بن موسى بن محمد بن عبدالملك (ت 685هـ/1612م) **المغرب في حلى المغرب**، وضع حواشيه خليل المنصور، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1417هـ/1996م، ج1، ص183 وسيشار له فما بعد ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب.

[5] النباهي، ابن الحسين، (ت 793هـ/1390م) **تاريخ قضاة الأندلس**، ضبط وشرح مريم=

رحلته للمشرق:

دون ابن العربي رحلته للمشرق في كتاب أسماه (ترتيب الرحلة) لكنه فقد في حياته نظراً لما تعرض له من مخاطر أثناء توليه القضاء، ووصلتنا مقتطفات منه حفظها لنا في كتاب قانون التأويل[1].

تحدث ابن العربي في هذا الكتاب عن المراكز والمدن الإسلامية التي زارها وتوقف عندها، وتعرض فيه لدمشق بإشارات بالغة الأهمية عن مدى التقدم الحضاري في معظم مجالات الحياة[2]، وعن نظافة دمشق وطرق تقديم الطعام وكيفية استغلال المياه والاستفادة منها في الأمور المنزلية.

يعتبر ابن العربي أول من وضع فن أدب الرحلات حسب رأي بعض الدارسين نظراً لأسلوبه في التدوين[3].

مؤلفاته:

ترك ابن العربي العديد من المؤلفات في الفقه والتشريع منها (ترتيب المسالك في موطأ مالك)، (ونواهي الدواهي)، (وسراح المريدين) وغيرها الكثير إلا أن ما يهمنا هنا هو كتاب (قانون التأويل) الذي يحتوي أجزاء من

=قاسم طويل، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ/1994م ص 138 وسيشار له لاحقاً :التباهي، قضاة الأندلس.

[1] أعرب، **مع القاضي أبي بكر بن العربي**، ص 6.

[2] سيتم الحديث عن هذا الموضوع بالتفصيل في الفصول اللاحقة

[3] كراتشكوفسكي، اغناطيوس، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، ترجمة :صلاح الدين عثمان، ط2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1408هـ/1987م، ص331. سيشار له لاحقاً: كراتشكوفسكي، الادب الجغرافي.

رحلته للمشرق تحت مسمى (ترتيب الرحلة)[1].

- **الوهراني ت 575هـ/1179م:**

أبو عبدالله محمد بن محرز بن محمد الوهراني[2] لقب بركن الدين وقيل جمال الدين[3] أديب وفقيه مغربي ارتحل إلى الشرق في القرن السادس الهجري/الثاني عشر ميلادي ودخل مصر أيام السلطان صلاح الدين متاجراً بصنعته التي تميز بها وهي الإنشاء إلا أنه صدم بوجود نخبة من أهل المشرق تفوقه في هذا المجال فأخذ منحى آخر ولكنه لم يترك صنعته مع ذلك اتجه إلى الكتابة بأسلوب النقد الساخر والهادف[4] وارتحل من مصر إلى دمشق حيث استقر بها وعمل خطيبا لمسجد داريا[5] وبقي بها إلى أن توفي سنة

---

(1) المقري، أحمد محم. (ت 1041هـ/1631م) **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، شرحه وضبط حواشيه مريم طويل وآخرون، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، 1415هـ/1995م، ج2، ص254. وسيشار له لاحقاً :المقري، نفح الطيب.

(2) وهران: مدينة على البر الأعظم من المغرب وبينها وبين تلمسان مسرى ليلة وهي على ضفة البحر يعمل أهلها بالتجارة وتعرضت المدينة للخراب عدة مرات بسبب الحروب للمزيد، انظر: الحموي، شهاب الدين (ت 626هـ/1228م)، معجم البلدان، ج5، ط2، دار صادر، بيروت ص 385. سيشار لة لاحقا: الحموي، معجم البلدان.

(3) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج4، ص 385 ومن ألقابه ركن الدين وجمال الدين تتضح مكانته الدينية التي يتمتع بها.

(4) نفس المصدر، ج4، ص 385. لقد وجد الوهراني أمامه نخبة من الأعلام البارزين في صناعة الإنشاء أمثال القاضي الفاضل وعماد الدين الأصفهاني فعدل عن الجد للهزل للمزيد راجع نفس المصدر ونفس الصفحة.

(5) داريا: قرية كبيرة ومشهورة من قرى غوطة دمشق، نسب لها مجموعه من الفقهاء والعلماء والقضاة للمزيد راجع: الحموي، **معجم البلدان**، ج2، ص431.

575هـ/1179م ودفن هناك.

ميزات مقامات الوهراني:

ترك لنا الوهراني تحفة أدبية رائعة تعد مصدراً تاريخياً هاماً لتلك الحقبة الزمنية التي عاشها فقد صاغ أوضاع المجتمع الدمشقي بطريقته الأدبية الخاصة الناقدة الساخرة، تحتاج مقامات الوهراني إلى دراسة خاصة للوقوف على ميزاتها وفي هذه الدراسة تم أخذ ما يخدم الدراسة من ميزاتها ونلخصها فما يلي:

1. الجرأة والصراحة في طرح قضايا المجتمع في ذلك العصر بأسلوب مختلف عن المألوف في الكتابة والذي كان يركز على الجوانب الإيجابية وإظهارها فنجده قد خالف هذا النهج في مقاماته لتصل إلى صلب وضع المجتمع وتقدمة بأسلوب فكاهي جديد.
2. التطرق إلى الآفات والأمراض الاجتماعية التي كانت سائدة في تلك الفترة في مجتمع دمشق بالذات ومنها على سبيل المثال لا الحصر فساد القضاء والمحسوبية والتفاوت الطبقي الواضح.
3. إظهار شخصيته المغربية الخاصة به ملمحاً إلى أن الأوضاع السائدة في المشرق غير موجودة في موطنه الأصلي وربما كان ذلك ناتج عن عدم استيعاب المجتمع هذا الأديب الفقيه وبقى يشعر بغربة داخل نفسه[1].

- **السائح الهروي ت 611هـ/1215م:**

أبو الحسن علي بن بكر بن علي الهروي[2] الأصل

---

[1] سيتم البحث في أوضاع المجتمع الدمشقي بشكل مفصل في الفصول اللاحقة.

[2] نسبة إلى مدينة هراة وهي مدينة عظيمة ومشهورة من أمهات مدن خراسان وقد كانت أعظم وأجل مدينة وأكثر سكان عندما زارها ياقوت الحموي تشتهر بالبساتين=

الموصلي[1] المولد، فأصله من هراة ولكنه ولد واستوطن الموصل واشتهر بكثرة رحلاته وتجوله بين البلدان، وتفوقه في علم السيماء جعله محط أنظار صاحب حلب الظاهر ابن صلاح الدين الذي قربه منه وأقام له مدرسة خاصة به بقي بها إلى أن توفي في رمضان سنة 611هـ/1215م[2].

تميز الهروي بحبه للسفر وزيارة القبور والأضرحة للتقرب للأولياء، والتجوال فلم يترك براً أو بحراً يمكنه الوصول إليه إلا شاهده وكتب بخط يده في ذلك المكان[3]، وهذا يشير إلى اهتمام الهروي بتوثيق اسمه في المكان الذي زاره وليضفي مصداقية على رواياته عن تلك الأماكن، وإن خالطها نوع من حب الذات لذلك سمي (بالسائح الهروي)[4]، وقد ارتبط اسمه وذكره مع بلدان مغرب العالم الإسلامي بالرغم من أصله المشرقي[5].

سبب الرحلة:

تختلف رحلة الهروي اختلافاً واضحاً عن باقي الرحلات من حيث الهدف والسبب فلم يكن هدفه من تلك الرحلات الحج أو طلب العلم. والدليل

= والمياه الغزيرة وتزخر بالعلماء إلا أنها خربت عندما دخلها التتار بعد ذلك. للمزيد انظر الحموي، **معجم البلدان**، ج5، ص 369.

(1) الموصلي، نسبة إلى مدينة الموصل التي ولد فيها.

(2) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج3، ص385.

(3) نفس المصدر، ص385.

(4) حسن، زكي. **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، (د.ط)، دار الرائد العربي، بيروت، 1401هـ 1981 م، ص90. وسيشار له لاحقاً: زكي، الرحالة المسلمون.

(5) كراتشكوفسكي، **الأدب الجغرافي**، ص346.

على ذلك زيارته لمقامات الأولياء والأضرحة [1].

فربما كان يهدف من هذه الزيارة التقرب إلى الأولياء عن طريق زيارة مقاماتهم، أو أن الوضع السائد في تلك الفترة له الأثر الأكبر على نفسية الرحالة مما جعله ينشغل بهذا النوع من الزيارات.

أشار الهروي في حديثه عن رحلته، أنه دوّن رحلته بناء على طلب من رسول الخليفة العباسي الناصر لدين الله الذي كان متجهاً إلى صلاح الدين الأيوبي، فلبى هذه الرغبة وهذه سمة صبغت معظم كتابات ذلك العصر أيضاً[2].

ويبين منهجه بالتدوين فقد اعتمد على ذاكرته، وأشار إلى فقدان كتبه ومذكراته في البحر أثناء تعرضه للاعتداء[3]، لكنه طلب من القارئ أن يدقق فيما كتب، وأن الأخطاء – إن وجدت – فهي تعود لقدم الأحداث، وأن ما دونه يعتمد على ذاكرته وأنه نسي أكثر الأحداث[4]، خالط الرحلة نوع من الأساطير والخرافات إلا أن هذا لا ينفي ما تحتويه من معلومات قيمة ودقيقة[5] لكنه كان لا يحاكم ما يسمع ويروى له[6].

---

(1) كراتشكوفسكي، **الأدب الجغرافي**، ص347

(2) زكي، **الرحالة المسلمون**، ص89. وكذلك أشار المؤلف الهروي لهذا بوضوح انظر مقدمة المؤلف في الإشارات، ص13.

(3) الهروي، أبي الحسن علي بن أبي بكر (ت 611هـ/1214م) **الإشارات إلى معرفة الزيارات**، تحقيق: علي عمر، (د.ط)، مكتبة الثقافة الدينية ص14. وسيشار له لاحقا: الهروي، الإشارات.

(4) نفس المصدر، ص 14.

(5) زكي، **الرحالة المسلمون**، ص90

(6) رمضان، أحمد، **الرحلة والرحالة المسلمون**، (د، ط)، دار البيان العربي، جدة، =

ذكر ابن خلكان أن للهروي مجموعة من المصنفات غير كتاب الإشارات في معرفة الزيارات، منها (الخطب الهراوية)، وكتاب آخر يذكر الهروي أنه ألفه واسمه (منازل الأرض ذات الطول والعرض)[1]، وكتاب الإنارة، والعجاب، والأصنام لكنه لم يصلنا إلا كتاب الإشارات الذي بين أيدينا[2].

دمشق من خلال كتاب الإشارات[3]:

وصف الهروي دمشق وقراها ومساجدها ومزاراتها ودوَّن معلومات قيمة عن المدينة وما يحيط بها من الخارج، وما يوجد بداخلها، وقد عرف بشكل واضح بتلك المزارات، وأماكن العبادة، ووصف المناطق المجاورة لدمشق وسيتم التعرف عليها من خلال الفصول اللاحقة.

- **ابن جبير (ت 614هـ/1217م):**

أبوالحسن محمد بن أحمد جبير بن محمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن سعيد بن مروان بن عبدالسلام بن مروان بن عبدالسلام بن جبير الكناني[4]، كان جده عبدالسلام من أوائل الداخلين للأندلس مع طالعة بلج

جدة، = =ص287، وسيشار له لاحقاً: رمضان، الرحلة والرحالة.

[1] ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج3، ص385.

[2] زكي، **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، ص90.

[3] سيتم الحديث عن وصف دمشق وتفاصيل ذلك في الفصول القادمة.

[4] التيجي، القاسم بن يوسف (ت 873هـ/1329م) **مستفاد الرحلة والاغتراب**، تحقيق عبدالحافظ منصور، الدار العربية للكتاب، تونس 1975م ص243، وسيشار له لاحقاً: التيجي، مستفاد الرحلة.

القشيري[1] سنة 123هـ/740م[2].

كان مولده في العاشر من ربيع الأول سنة 540هـ/1145م (ببلنسية)[3] شرق الأندلس[4] وهناك رواية أاخرى تقول أن مولده كان سنة 539هـ/1144م في مدينة (شاطبة[5]) لذلك نسب إلى المدينتين فهو شاطبي وبلنسي وإن اختلفت الروايات في ولادته فللمدينتين نصيب من ابن جبير فإن لم يكن للولادة فللإقامة أيضاً على الرغم من أنه قضى معظم حياته في غرناطة[6]، فهو

---

[1] بلج بن بشير بن عياض القشيري، قائد سيرة هشام بن عبدالملك على مقدمة جيش مع عمه كلثوم إلى إفريقية عندما ثار أهلها على أميرهم فقاتل البربر وقتل عمة في أوائل سنة 124هـ/740م رحل إلى الأندلس مع أصحابه ثم لم يلبث أن قتل أمير الأندلس واستولى عليها. للمزيد انظر. الحميدي، أبي عبدالله محمد بن نصر (ت 488هـ/1095م) **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، ط 1، الدار المصرية، 1966، ص5. وسيشار له لاحقا: الحميدي، جذوة المقتبس.

[2] ابن الخطيب، لسان الدين (ت 776هـ/1374م) **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق : محمد عبدالله عنان، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي القاهرة، 1393هـ/1973م ج2، ص230. وسيشار له فما بعد: ابن الخطيب، الإحاطة.

[3] بلنسية: كورة ومدينة مشهورة بالأندلس متصلة بحوزة كورة تدمير، وهي شرق تدمير وشرقي قرطبة وهي برية وبحرية ذات أشجار وانهار وأهلها خير أهل الأندلس ويسمون عرب الأندلس بنسب لها مجموعة وافرة من أهل العلم، للمزيد انظر، الحموي، **معجم البلدان**، ج1، ص491.

[4] ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج2، ص239.

[5] شاطبة: مدينة في شرق الأندلس وشرق قرطبة وهي مدينة كبيرة وقديمة خرج منها خلق من الفضلاء وبها من الصناعات الشهيرة وقد قدم عدد من أبنائها إلى دمشق للمزيد انظر: الحموي، **معجم البلدان**، ج3 ص309.

[6] غرناطة: هي أقدم مدن كورة البيرة من أعمال الأندلس وأعظمها وأحسنها يخترقها=

بلنسي المولد غرناطي الموطن[1].

توفي ابن جبير في الإسكندرية في التاسع والعشرين من شعبان سنة 614هـ/1217م[2] بعد أربعة وسبعين عاماً، كان خلالها مثال العالم والفقيه والأديب والرحالة[3].

نشأ ابن جبير في كنف والده، وقد حرص على تربيته وتعليمه، فقد تنقل منذ بداية حياته بين المراكز العلمية في المغرب الإسلامي، والأندلس فدخل بلنسية، وشاطبة، وغرناطة، وسبتة[4]، وفاس[5] والتقى العلماء في تلك المراكز[6]، وكان لوالده ما أراد، فأعده أحسن إعداد حتى أصبح أحد كتاب الدولة الموحدة التي حكمت الأندلس والمغرب في تلك الأثناء، وحظي

يخترقها= =نهر يلقط من ساحته الذهب الخالص. المزيد انظر الحموي، **معجم البلدان** ج4ص195.

(1) ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج2، ص231.

(2) نفس المصدر، ج2، ص239.

(3) نقولا زيادة: **ابن جبير عالم وفقيه وأديب ورحالة**، مجلة العربي، العدد الثامن عشر، الكويت، 1959م ص117 ص119.

(4) سبتة: بلد مشهورة من قواعد بلاد المغرب العربي ومرساها أجود المراسي على البحر وهي على بر البربر تقابل جزيرة الأندلس وهي حصينة ضاربة في البحر داخلة كدخول كف على زند. ينسب إليها مجموعه من العلماء والأعيان. للمزيد انظر، الحموي، **معجم البلدان**، ج3 ص182

(5) فارس: مدينة مشهورة على بر المغرب العربي تشتهر بالعيون في بيوتها سواقي موزعة من الأنهار التي تخترقها تشتهر بالصناعة والتجارة والزراعة ينسب إليها العديد من العلماء، للمزيد انظر، الحموي. **معجم البلدان**، ج4، ص230.

(6) كراتشكوفسكي، **الأدب الجغرافي**، ص332.

بمكانة خاصة لديهم لسعة علمه، وقدرته على نظم الشعر والنثر[1].

الرحلة: تسميتها ومنهجها:

وتعد رحلة ابن جبير من أشهر كتب الرحلات التي وصلتنا، والتي دونت على شكل مذكرات يومية حيث شرع بتدوينها منذ أن غادر بلاده سنة 578هـ/1182م إلى أن عاد لها سنة 581هـ/1185م، واختلفت الآراء في تسمية رحلة ابن جبير[2] فقد ذكرت باسم (تذكرة الأخبار عن اتفاق الأسفار)، و(رحلة الكناني) وكتاب (اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك) إلا أن احد المصادر القديمة نفى هذه التسمية عنها وهي (اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك) وأشار إلى أنها رسالة كتبها إلى أحد علماء فاس أثناء عودته من المشرق سنة 593هـ/1196م أي بعد رحلته الثانية والتي عاد منها سنة 587هـ/1191م، واقتصرت على الأماكن المقدسة في الحجاز وبيت المقدس[3] فتكون رحلة ابن جبير موضع دراستنا قد سبقتها بعشر سنوات على الأقل بالتدوين.

والأقرب إلى الاسم الصحيح هو ما ذكره ابن جبير في بداية رحلته

---

(1) الأنصاري، عبدالقدوس، **مع ابن جبير في رحلته**، الطبعة الأولى، المطبعة العربية الحديثة، جدة، 136م، 1976 م، ص24. وسيشار له فما بعد. الأنصاري، مع ابن جير.

(2) كراتشكوفسكي، **الأدب الجغرافي**، ص333، حيث يرجح أن تسمية الرحلة الأصح هو رحلة الكناني.

(3) المراكشي، أبو عبدالله محمد بن عبدالملك الأنصاري الأوسي، (ت 703هـ/1303م) **السفر الخامس من الذيل والتكملة لكتاب الموصل والصلة**، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الأولى، دار الثقافة بيروت، 1965، ص604، وسيشار له لاحقاً: المراكشي، الذيل والتكملة.

وهي (تذكرة الأخبار عن اتفاق الأسفار)[1].

نهج ابن جبير في تدوين رحلته منهجاً واضحاً، فكانت على شكل مذكرات يومية وقد دونت بالتاريخين الهجري والميلادي، وقد أظهر سلبيات وإيجابيات يومه بكل وضوح، وقد طغت عليها النزعة الدينية، فقد كان يعظم ويدعو للمدن الإسلامية التي يمر بها بالخير والبركة والحراسة من الله عز وجل، ويدعو على المدن الصليبية بالخراب والزوال[2].

طال التشكيك رحلة ابن جبير، على أنها ليست من تصنيفه، بل قيد معانيها وتولى ترتيبها وتنضيدها بعض الآخذين عنه، وهذا قول غير دقيق لأنه يصعب على أي شخص ناقل أن يدون بنفس الدقة ويذكر تاريخ الأحداث بهذه الدقة، إن لم تكن مدونة أصلاً من صاحب الرحلة[3].

لابن جبير مؤلفات أخرى غير الرحلة منها: ديوان شعر اسمه (وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح) يحوي مراثيه على زوجته، وديوان أخر باسم (نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان)[4].

---

[1] ابن جير، أبي الحسن محمد بن احمد بن جير (ت 614هـ/1217م) **رحلة ابن جير**، دار صادر، 1384هـ/1964م، ص7. وسيشار له لاحقاً. ابن جبير، الرحلة.

[2] ضيف، شوقي، **الرحلات**، ط 4، دار المعارف، ص 71، وسيشار له لاحقاً، ضيف، الرحلات.

[3] المراكشي، **الذيل والتكملة السفر الخامس**، ص598. وانظر أيضاً أرسلان، شكيب، **الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية**، طبعة بلا، الحياة، بيروت، ج3، ص118. وسيشار له لاحقاً: أرسلان، الحلل السندسية.

[4] المراكشي، **الذيل والتكملة السفر الخامس**، ص608. وانظر أرسلان، الحلل السندسية، ج3 ص 118.

وتجمع المصادر على أن ابن جبير قام بثلاث رحلات إلى المشرق[1]، ولكل رحلة ظروفها وأسبابها الخاصة بها وأهم رحلاته هي الأولى حيث دون بها مذكراته اليومية ورحلته المعروفة (رحلة ابن جبير)، وسيتم تناول تلك الرحلات وبشكل موجز.

الرحلة الأولى: (578هـ/1182م)/(581 هـ/1185م):

ربما كان الدافع الأساسي لهذه الرحلة هو أداء فريضة الحج، فبعد أن نهل ابن جبير من معين العلم والمعرفة في بلاده، لم يبقى لديه إلا زيارة الأماكن المقدسة في الحجاز ليؤدي فريضة الحج سيما وأنه نشأ في وسط ديني، وكان حافظاً للقران الكريم[2] وأن ما تذكره بعض المصادر من أسباب رحلته هو تكفير خطيئة ارتكبها ربما كان من باب التجني على هذا العالم والفقيه فلم تشير المصادر القريبة من تاريخ وفاة ابن جبير لتلك الحادثة[3] تميزت هذه الرحلة بشموليتها فزار مصر والحجاز والعراق والشام، ودون انطباعاته ومشاهداته عن هذه البلاد في رحلته المشهورة.

أما رحلته الثانية فكانت سنة: (585هـ/1189م)/(587هـ/1191م):

جاءت بعد أن حرر صلاح الدين الأيوبي القدس، وربما كان للأثر

---

[1] المراكشي، **الذيل والتكملة السفر الخامس**، ص596. وانظر ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج2 ص230.

[2] عباس، إحسان، **دراسة في الرحلة ابن جير الأندلسي البلنسي الكناني**، طبعة 1، دار الغرب الإسلامي، 2001م، ص13، وسيشار له لاحقاً: عباس، دراسة في الرحلة.

[3] لم يرد عند ابن الخطيب في الإحاطة أو المراكشي في الذيل والتكملة ما ذكره المقري عن سبب الرحلة. للمزيد عما يذكره المقري، انظر **نفح الطيب** ج3 ص142 وانظر ترجمة ابن جبير عند ابن الخطيب والمراكشي.

النفسي الذي تولد لديه في رحلته الأولى دافعه الخفي وراء هذه الرحلة نظراً لما شاهدة من سيطرة الصليبيين على معظم المناطق في الشرق الإسلامي، فأراد أن يفرح ويعبر عن فرحته بالحضور إلى بيت المقدس التي لم يزرها في تلك الرحلة[1].

وجاءت الرحلة الثالثة سنة: (602هـ/1205م)/(614هـ/1217م):

رحل إلى المشرق بعد أن فقد زوجته فقصد الحجاز لأداء فريضة الحج، وأمضى بعض الوقت في الأماكن المقدسة في الحجاز، ثم في بيت المقدس، وأقام بعد ذلك بالإسكندرية معلماً إلى أن وافاه الأجل ودفن بها[2].

دمشق في رحلة ابن جير[3]:

من المفارقات العجيبة أن ابن جبير لم يزر دمشق في رحلته الثانية والثالثة على الرغم من وقوفه طويلاً عند دمشق في رحلة الأولى، حيث أمضى بها ما يزيد عن سبعين يوماً، فكانت بعد مكة الأكثر إقامة لديه.

لقد توقف ابن جبير عند أوضاع دمشق الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، فتحدث عن الوقف، وعن المدارس، والمستشفيات، وعادات أهل دمشق، فكانت رحلته ذات مصداقية عالية فكانت تدون أحوال دمشق في

---

(1) ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج2 ص232.

(2) تشير المراجع الحديثة مثل شوقي ضيف في كتاب الرحلات ص71. وزكي محمد حسن في الرحالة المسلمون ص88 أن الرحلة الثالثة كانت سنة 614هـ وهذا خطأ واضح. للمزيد انظر المراكشي، **الذيل والتكملة** السفر الخامس، ص606 حيث يذكر أن الرحلة كانت سنة 602هـ.

(3) سيتم التطرق للأوضاع دمشق من خلال رحلة ابن جير في شكل مفصل في الفصول اللاحقة.

تلك الفترة من الزمن، فلا يستطيع أي دارس لتاريخ تلك الحقبة الاستغناء عن هذه الرحلة والاستعانة بها للوقوف على تلك الأوضاع، ودراسة تاريخ دمشق من مختلف النواحي، فقد تعرض ابن جبير إلى نقاط مهمة وحساسة منها العادات والتقاليد، والحياة الثقافية، والأوقاف، وأمور أخرى كثيرة سيتم التعرض لها في الفصول اللاحقة.

- **ابن رشيد الفهري (657هـ- 1258م/721هـ- 1321م):**

محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن إدريس بن سعيد بن مسعود بن حسن بن عمر بن محمد بن رشيد أبو عبدالله الفهري السبتي[1].

ولد سنة 657هـ/1259م وتوفي سنة 721هـ/1321م في مدينة فاس[2] بعد أن لجأ إليها عقب المحنة التي تعرض لها في غرناطة[3] ودفن بها.

ارتحل ابن رشيد الفهري إلى المشرق الإسلامي سنة 683هـ/1284م، فزار مصر، والشام، والديار المقدسة في الحجاز فأدى فريضة الحج سنة 685هـ/1286م، وعاد إلى بلاده بعد أن التقى بعلماء المشرق الإسلامي وأخذ عنهم أنواع العلوم المتعددة[4]، لقد أثنى على ابن رشيد كل من ترجم له فوصف بالعالم، والفقيه، والأديب، والمؤرخ، بالإضافة لكونه شاعر نظم الشعر، وقد انعكس علمه على صفاته الشخصية وأخلاقه، فكان عظيم

---

(1) الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك (ت764هـ/1363م) **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وآخرون، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث، 1420هـ/2000م، ج4، ص1999 وسيشار له فما بعد : الصفدي، الوافي بالوافيات.

(2) ابن الخطيب. **الإحاطة**، ج3 ص142.

(3) نفس المصدر، ص142.

(4) الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج4ص199، انظر ابن الخطيب، الإحاطة، ج3 ص136.

الوقار، والسكينة، حسن الخلق، متواضعاً، محباً للفقراء، والغرباء، وطلبة العلم، اشتغل بالتدريس بالإضافة إلى إمامة المسجد الكبير بغرناطة[1].

مميزات الرحلة:

امتازت رحلة ابن رشيد والمسماة "ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة"، أنها حوت معلومات في مختلف صنوف العلوم، كالفقه، والأدب، والتاريخ الطبيعي، ومن أهميتها أنها تعتبر شبه مذكرات يومية[2].

واختلف في عدد مجلداتها فمنهم من ذكر أنها أربع مجلدات باسم (الرحلة الشرقية)، ومنهم من ذكر أنها حوت ستة مجلدات، والأرجح هذا القول لأن ما بين يدينا منها هو الجزء الخامس من الرحلة[3] وقد يكمن سبب الخلاف الطباعة أو الكتابة منهم من جعلها أربعة مجلدات ومنهم من جعلها ستة مجلدات.

دمشق في رحلة ابن رشيد:

حظيت دمشق باهتمام واضح لدى الرحالة فكان مقصده لها يعادل وصوله للبيت الحرام وهذا يتضح من مقطوعة شعرية وجدت في كتب التراجم التي ترجمت له[4] أما ما يتعلق بحديثه عن دمشق أثناء الرحلة مما يؤسف له أن الجزء الرابع من الرحلة والذي يتعلق بالحديث عن دمشق بشكل أوسع لا يزال مفقوداً مع محاولة الباحث الاتصال مع مركز المخطوطات المغربية

---

[1] ابن الخطيب مصدر سابق ونفس الصفحة.

[2] كراتشكوفسكي، **الأدب الجغرافي**، ص411.

[3] عند الصفدي ووردت على أنها أربع مجلدات في حين ذكر ابن الخطيب أنها ستة مجلدات.

[4] ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج3، ص138.

بالرباط إلا أنه لم يحصل على نتيجة، والجزء موضع الدراسة يشير في بدايته للخروج من دمشق وهو يعطي إشارة ولو بسيطة عن مكانة دمشق في تلك الفترة الزمنية سيما وأن الرحالة، كان بها سنة 684هـ/1285م[1].

- **ابن بطوطة (703هـ- 1303م/770هـ- 1368م):**

محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن يوسف بن عبدالرحمن بن يوسف اللواتي الطنجي أبو عبدالله بن بطوطة[2] وكان يلقب بشمس الدين[3].

رحالة مغربي ولد سنة 703هـ/1303م يوم الاثنين 17 رجب بمدينة طنجة[4].

---

[1] ابن رشيد، محمد بن عمر بن رشيد الفهري (ت 721هـ/1321م) **ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة**، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، 1408هـ/1988م، ج5، ص1، المقدمة، وسيشار له فما بعد. ابن رشيد، ملء العيبة. وانظر أيضاً الإيبش، أحمد، والشهابي، قتيبة، دمشق في نصوص الرحالين والجغرافيين العرب والمسلمين طبعة1، منشورات، وزارة الثقافة، دمشق، ج1، ص425: وسيشار لاحقاً: الايبش، دمشق في نصوص الرحالين والجغرافيين.

[2] ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج3 ص273 وانظر العسقلاني الدرر الكامنة، ج5، ص227.

[3] ابن بطوطة، أبو عبدالله محمد بن عبدالله (ت 770هـ/1368م). **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، شرحه وكتب هوامشه: طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة 3، 1423هـ/2002م، ص26. وسيشار له لاحقاً: ابن بطوطة، تحفة النظار.

[4] طنجة: بلد على ساحل بحر المغرب تقابل الجزيرة الخضراء وآثارها ظاهرة بناؤها بالحجار ليس لها سور على ظهر جبل وماؤها من قناة تجري لهم لا يعرف منبعها بينها وبين سبتة مسيرة يوم وهي أخر حدود افريقية وبنسب لها عدد من العماء. للمزيد انظر الحموي : **معجم البلدان**، ج4 ص 43.

وينسب إلى عائلة كريمة اشتهر منها القضاة وهذا ما كان واضحاً عند ابن بطوطة عندما خيره ملك الهند بأحد المناصب فاختار القضاء معللاً ذلك بأنه صنعته وصنعة أبائه وأجداده[1]، وقد تولى القضاء هو أيضاً عند انطلاق رحلته كما هو واضح من سياق الرحلة.

يعتبر ابن بطوطة شيخ الرحالين العرب والمسلمين، نظراً للمدة التي قضاها متجولاً بين أصقاع المعمورة، وتدوينه لمشاهداته التي تتعلق بحياة الشعوب وتقاليدها، فقد ترك لنا إرث ضخم من المعلومات عن تلك الأمم التي عاشت في تلك الحقبة الزمنية[2].

مميزات رحلة ابن بطوطة:

امتازت رحلة ابن بطوطة بطول المدة الزمنية التي قضاها متجولاً فقد أمضى ما يقارب ربع قرن من التجول بين أنحاء المعمورة، حيث بدأت رحلته سنة 725هـ- 1324م وعاد إلى فاس سنة 750هـ- 1349م، بالإضافة إلى انطلاقه برحلة أخرى باتجاه الأندلس والسودان استمرت ما يقارب أربع سنوات ناهيك عن المسافة التي قطعها والتي تقدر بحوالي مائة وخمسة وسبعون ألف ميل فهو بحق رحالة العصر[3].

بالإضافة إلى ذلك تميزت رحلاته بكثرة النقد والتشكيك حول مشاهداته ووصفه للبلدان والشعوب التي زارها، وتعرضها للنقد والتحليل من

---

[1] ابن بطوطة، **تحفة النظار**، ص 523.

[2] زيادة، نقولا، **الجغرافية والرحلات عند العرب**، (د.ط)، الشركة العالمية للكتاب، 1987، ص187، وسيشار له فما بعد: زيادة، الجغرافية والرحلات.

[3] كراتشكوفسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي**، ص456

دارسي الرحلة[1].

يرى الدارسون إن الاختلال والتداخل في المواضيع في رحلات ابن بطوطة سببه يعود إلى مدون الرحلة ابن جزي وليس إلى ابن بطوطة الذي سرد أحداث وتفاصيل رحلته على مدون الرحلة فقام بتدوين أحداث ومشاهدات ربع قرن بشكل موجز، وربما لو دون الرحلة الرحالة نفسة لوجدنا بين أيدينا نص أغنى من هذا النص بكثير وابتعدت الرحلة عن التشكيك والتهويل كما يدعي البعض[2].

ابن بطوطة في دمشق:

تعرضت رحلة ابن بطوطة لكثير من النقد والتحليل والتشكيك، وكذلك تعرض وصفه ومشاهداته عن دمشق إلى كثير من التشكيك، وربما يعود السبب في ذلك إلى تدوين أحداث الرحلة بالمجمل وليس بشكل تفصيلي، إلا أنه مع دراسة الأحداث التي يذكرها ابن بطوطة ومقارنتها مع الواقع، يتضح أن ابن بطوطة زار دمشق أثناء رحلته ما لا يقل عن ثلاث مرات فإذا كان قد أدى فريضة الحج سبع مرات فلا يستبعد أنه كان يعرج على دمشق[3].

---

[1] ابن الخطيب، **الإحاطة،** ج 3 ص 273 وانظر : العسقلاني، الدرر الكامنة، ج5، ص277.

[2] كراتشكوفسكي، **الأدب الجغرافي،** ص465. وانظر: م. ف. مينورسكي، الجغرافيون والرحالة المسلمون، ترجمة: عبدالرحمن حميده، العدد 73، الجمعية الجغرافية الكويتية، ربيع ثاني 1405 هـ/يناير 1985، ص23. سيشار له لاحقاً: مينورسكي، الجغرافيون والرحالة.

[3] عبدالهادي التازي، لقاء الفقيه والرحالة هل التقى ابن تيمية ابن بطوطة، العربي، =

تعرض ابن بطوطة إلى مختلف نواحي الحياة في دمشق فتطرق، إلى النواحي الاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية، وتوقف طويلاً عند الوقف، وأبرز دوره في حياة أهل دمشق، وذكر أنواع الوقف، كما عرج على ذكر العلماء، والمساجد، وعادات سكانها، ووقف كثيراً عند بعض الأمور الخاصة والعامة التي سنتطرق لها في الفصول اللاحقة[1].

كتب الرحلات الأجنبية[2]

لقد توفر للدراسة عدد محدود من كتب الرحلات الأجنبية وهي مصدر معاصر لفترة الدراسة حيث افادت الدراسة بمعلومات قيمة عن دمشق وضواحيها وحدائقها وبساتينها ومختلف صنوف الفواكة التي تنتجها دمشق.

كما زودتنا بمعلومات عن البيوت بدمشق والأسواق والشوارع والتجار والحرفيين وكيفية إعداد الطعام وطريقة بيع الأطعمة وتحضيرها.

ومن هذه الكتب

Visit to the Holy Places ومؤلفه هو Frescobal Gucci and Sigole

وكتاب A voyage beyond the seas ومؤلفه Nicola of Poggibonsi

=ع553، 2004/12/1، الكويت، حيث يذكر أنه عثر على مخطوطة بخط ابن بطوطة تفيد بوجوده في دمشق سنة 727 هـ/1326م. فعلى هذا الأساس يكون ابن بطوطة زار دمشق على الأقل ثلاث مرات.

(1) سيتم التطرق إلى مختلف النقاط التي ذكرها ابن بطوطة عن دمشق في الفصول اللاحقة.

(2) زيادة، نقولا، **رواد الشرق العربي في العصور الوسطى**، القدس، 1943، ص 111. سيشار له لاحقاً: زيادة، رواد المشرق العربي.

الموسوعات الجغرافية

أما المصدر الآخر والذي لا يقل أهمية عن المصدر الأساس لهذه الدراسة وهي كتب الموسوعات الجغرافية والتي أطلق عليها أحياناً كتب (الرحلات)[1] أيضاً وقد كان لثلاثة منها فائدة جمة ولا سيما وأنها كتبت في الفترة التي تتعرض لها الدراسة ومن هذه المصادر:

1. الإدريسي.
2. ياقوت الحموي.
3. القز ويني.

- **الإدريسي (493- 560هـ/1099- 1165م):** [2]

محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس بن يحيى بن علي بن حمود بن ميمون بن احمد بن علي بن عبدالله بن عمر بن عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب[3] لذلك لقب بالشريف[4]، ولد في سبتة[5]، ولم تشر المصادر التي ترجمت له إلى تاريخ ولادته ووفاته، وبقيت هذه النقطة محل اختلاف بين

---

[1] رمضان، **الرحلة والرحالة المسلمون**، ص161 - 177 - 297، ضيف، **الرحلات**، ص19 - 21، حسن، **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، ص64- 102- 126.

[2] هذا التاريخ بالنسبة للولادة والوفاة غير متفق عليه وإنما كان رأي أغلبية الباحثين تثبيت ذلك التاريخ. للمزيد حول هذا الموضوع انظر: حسن، محمد عبدالغني، **الشريف الإدريسي أشهر جغرافي العرب والإسلام**، د ط، الهيئة المصرية للتأليف والنشر، 1971، ص42. وسيشار له لاحقاً: حسن، الشريف الإدريسي أشهر جغرافي العرب والإسلام.

[3] الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج1، ص138.

[4] نفس المصدر.

[5] كراتشوفسكي، **الأدب الجغرافي**، ص304.

الباحثين الذين اهتموا بالإدريسي وكتبوا عنه[1]، ويعزى البعض قلة الاهتمام بالإدريسي نظراً لارتباطه بروجر ملك صقلية[2] وأن كتابه ألفه تلبية لرغبة ذلك الملك وانصرافه لخدمته[3].

اتجه الإدريسي منذ بداية حياته للعلم والمعرفة، فقد بدأ الترحال لطلب العلم، وهو في مقتبل العمر، فوصل قرطبة وهو ابن ستة عشر عاماً[4] وقد اطلع على مختلف صنوف المعرفة فكان له ما أراد فأصبح موسوعي العلم والمعرفة مطلعاً على مختلف مجالات العلوم[5].

وعندما ذاع صيته، واشتهر بعلمه استدعاه ملك صقلية، ليحقق له حلمه في إنجاز خريطة للعالم، وكتاب يصف به جغرافية الأرض[6] وكان نتيجة ذلك أن خرج علينا الإدريسي بكتاب قيم جداً ويعد من أهم كتب الجغرافيا التي ألفت في تلك الفترة، نظراً لمزجه بين الحضارتين الأوروبية

---

[1] حسن، الشريف، **الإدريسي أشهر جغرافي العرب والإسلام**، ص42.

[2] روجر: ملك الفرنج بصقلية اشتهر بالرفق بالمسلمين والاعتناء بهم مات بمرض الخوانيق وقد بلغ من العمر ثمانين سنة ومدة ملكه عشرين سنة توفي سنة 548هـ/1154م. ابن الأثير، **الكامل**، ج9، ص94

[3] رمضان، **الرحالة والرحالة المسلمون**، ص161.

[4] كنوان، عبدالله، الشريف الادريسي اعظم جغرافي أتى بعد بطليموس في القرون الوسطى، مجلة المناهل، وزارة الثقافة المغربية، ع 1، السنة الاولى، ذو القعدة 1394هـ/نوفمبر 1974م، ص 14. وسيشار له لاحقاً: كنوان، الشريف الادريسي.

[5] كراتشوفسكي، **الأدب الجغرافي**، ص321.

[6] محمد مظلوم، **الشريف الإدريسي وكتابه**، مجلة العربي، العدد556، اذار2005. وسيشار له لاحقا: مظلوم، الشريف الإدريسي.

والإسلامية ونتيجة استفادته من خبرات من سبقه في ذلك المجال[1].

دمشق من خلال كتاب نزهة المشتاق[2]:

أعطى الإدريسي دمشق اهتماماً خاصاً، فقد توقف عندها طويلاً، وأبرز ملاحظات هامة عن دمشق ومجتمعها، لا بد لأي دارس من الوقوف عندها، فقد أبرز الدور الحضاري لدمشق في تلك الفترة، وبين أنها كانت تعيش نوعاً من الرفاه في بداية القرن السادس الهجري/الثاني عشر للميلاد، وذكر أنواع الصناعات وجودتها، وعلاقات دمشق التجارية وهذا ما سيتم التطرق إليه لاحقاً.

- **ياقوت الحموي (ت 626هـ/1228م):**

هو شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي لا تذكر المراجع الأصيلة شيئاً عن تاريخ ميلاده أخذ أسيراً من بلاد الروم وحمل إلى بغداد مع غيره من الأسرى، حيث بيع. فاشتراه تاجر غير متعلم، يقال له عسكر الحموي، فنسب إليه، وسمي ياقوت الحموي.

ألحقه مولاه بأحد الكتاتيب ليتعلم، على أمل أن ينفعه وينفع الناس في ضبط الحسابات وحصر الأعمال التجارية، وقرأ ياقوت الصرف والنحو وسائر قواعد اللغة، واستخدمه مولاه في الأسفار التجارية، ثم اعتقه. عندئذ راح ياقوت يكد ويكسب العيش عن طريق نسخ الكتب، وقد استفاد من هذا العمل فاطلع على العديد من الكتب واتسع أفقه العلمي. والمعروف أن الكتب المنسوخة كان يشتريها المهتمون بالقراءة وجمع الكتب، والأسواق

---

[1] كراتشوفسكي، **الأدب الجغرافي**، ص32.

[2] سيتم التطرق إلى ما أفادته الدراسة من كتاب الإدريسي في الفصول اللاحقة.

كانت تعج بالكتبة والخطاطين وباعة الكتب[1].

عاد ياقوت إلى مولاه الذي وكل إليه عمله وعطف عليه وطلب منه السهر على أسفاره للتجارة. فاستفاد من رحلاته المتعددة بجمع المعلومات الجغرافية الفريدة. ثم سافر إلى حلب، مستغلاً تنقله لجمع المعلومات، ومن ثم انتقل إلى خوارزم، فاستقر فيها إلى أن أغار جنكيز خان المغولي عليها عام 616هـ/1219م. ففرّ ياقوت معدماً إلى الموصل، مخلفاً وراءه كل ما يملك. ثم سار إلى حلب وأقام في ظاهرها، إلى أن توفي سنة 626هـ/1229م[2].

أهم مؤلفات ياقوت الحموي كتابه المعروف (معجم البلدان) ويتحدث في كتابه هذا عن خمسة مواضيع رئيسية هي:

- ذكر صورة الأرض، وما قاله المتقدمون في هيئتها، والمتأخرون في صورتها.
- معنى الإقليم وكيفيته.
- البريد، الفرسخ، الميل، الكورة، وهي ألفاظ يكثر تكرارها.
- حكم الأرضين والبلاد المفتتحة في الإسلام.
- أخبار البلدان التي يختص ذكرها بموضع دون موضع.

دمشق من خلال معجم البلدان:

وقف ياقوت عند دمشق كثيراً بإبراز ملامح واضحة لها أفادت الدراسة في مختلف نواحيها الاقتصادية، والاجتماعية، والعمرانية والثقافية،

---

(1) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج5، ص127.

(2) اليافعي، أبي محمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان (ت768هـ/ 1365م) **مرآة الجنان وعبرة اليقظان**، وضع حواشيه، خليل المنصور، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، 1417هـ- 1997م، ج4، ص48. وسيشار له فيما بعد: اليافعي، مرآة الجنان.

فذكر تاريخ إنشاء المدينة، وميزات المسجد الأموي، والمناطق المقدسة التي حولها، فلا يستطيع أي دارس لتلك المرحلة في مجال أن يتجاوز كتاب معجم البلدان، فهو وثيقة تؤرخ للمنطقة في حقبة الدراسة في شتى أنواع المعرفة وسيتم إظهار تلك الإفادة من خلال فصول الدراسة.

- **القزويني (ت682هـ/1283م):**

عماد الدين زكريا بن محمود القزويني[1]، ينحدر من أسرة عربية استوطنت عراق العجم[2] استطاع القزويني أن يصل إلى الجمهور ويخاطبه بلغة مبسطة فكان أقرب إلى الجمهور، كان القزويني يسير على نهج علماء عصره فكان موسوعي العلم والمعرفة[3] واشتغل بالقضاء وبالتدريس[4] ومن كتب القزويني التي أفادت منها كتاب (آثار البلاد وأخبار العباد) والذي تميز بعدة سمات منها عدم اهتمامه بالمسالك وإنما اهتم بأحوال البلاد والسكان وتعدى حدود الدولة الإسلامية إلى الدول المجاورة[5] وقد أشتمل الكتاب على رحلات المؤلف ورحلات الرحالة الذين التقى بهم أو قرأ كتبهم وما ذكره ما سبقه من الرحالة[6].

---

[1] ابن الفوطي (ت723هـ/1324م) **الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة**، طبعة بلا، دار الفكر، بيروت، 1407هـ/1987م، ص206. وسيشار له لاحقا: ابن الفوطي: الحوادث الجامعة.

[2] كراتشكوفسكي، **الأدب الجغرافي**، ص388.

[3] كراتشكوفسكي، **الأدب الجغرافي**، ص387.

[4] ابن الفوطي، **الحوادث الجامعة**، ص207.

[5] ضيف، **الرحلات**، ص21. وانظر: حسن، **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، ص126.

[6] رمضان، **الرحلة والرحالة المسلمون**، ص298.

دمشق من خلال كتاب آثار البلاد:

توقف القزويني عند دمشق سيما وأنه ارتحل إليها وسجل مشاهداته فهو جغرافي ورحالة أقام في دمشق فترة طويلة تناول أحوال سكان دمشق وأهلها من مختلف النواحي وتطرق إلى عاداتهم وتقاليدهم ومدى ما توصلوا إليه من تقدم في مجال الزراعة والصناعة ويشير إلى تقنية المياه المستخدمة بالإضافة إلى تحديدهم يوم محدد للراحة والاستجمام[1].

يأتي بعد ذلك كتب البلدانيات وبالذات ما يتعلق بدمشق والتي أفادت الدراسة أيضاً، مثل كتاب تاريخ دمشق لابن عساكر والذي لا يمكن الاستغناء عنه فكل من يتناول تاريخ دمشق لابد له من الرجوع لذلك المصدر بالإضافة إلى كتاب الأعلاق الخطيرة لابن شداد والذي يحوي قسماً كاملاً عن دمشق بالإضافة لذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، أما كتب الحوليات والسير التي كانت ركيزة أساسية هي أيضاً في إعداد هذه الدراسة، فهي كتب قيمة بمعلوماتها وكثيرة في عددها، حيث شكلت مع المراجع الحديثة والدوريات مادة غنية عن أوضاع مدينة دمشق واستفادت منها الدراسة بالعديد من المواقع ستكون مثبتة في قائمة المصادر والمراجع.

---

[1] سيتم الحديث وبشكل مفصل عما أفادته الدراسة عن أوضاع دمشق من ذاك الكتاب لاحقاً.

الفصل الثاني

1- دراسة لجغرافية دمشق

2- أوضاع دمشق التاريخية قبل فترة الدراسة

جغرافية دمشق

(1) تسمية دمشق:

تكاد تجمع المصادر على أن تسمية دمشق اقترنت بثلاثة أمور أساسية فمنهم من ما قرنها باسم الشخص الباني ومنهم ما قرنه بسرعة البناء وأخيراً قرنت بالتربة وما تنتجه وسوف يتم التعرض بشيء من الاختصار لكل هذه الأمور. فأما من نسب التسمية له فهو اسم شخص يدعى دمشق وهناك روايات كثيرة عن هذا الاسم فمنهم من قال سميت نسبة إلى:

1- دمشق بن قاني بن ارفخذ بن سام بن نوح عليه السلام[1].

2- دمشق بن نمرود بن كنعان[2].

3- العازر غلام إبراهيم عليه السلام[3].

4- دمشقين غلام الإسكندر حيث أوعز لغلامه ببناء المدينة وسماها

---

[1] دمشق الشام بكسر أوله وفتح ثانيه هكذا رواه الجمهور والكسر لغة فيه وشين معجمه وآخره قاف، البلدة المشهورة قصبة الشام وهي جنة الأرض بلا خلاف لحسن عمارة ونضارة بقعه وكثرة فاكهة ونزاهة رفعه وكثرة مياه. انظر: الحموي، معجم البلدان، ج2، ص463.

[2] المقدسي، محمد بن احمد، (ت390هـ/ 1000م) **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، الطبعة الأولى دار السويدي للنشر والتوزيع أبو ظبي، ص162. وسيشار له فيما بعد: المقدسي، أحسن التقاسيم. وانظر الحموي، معجم البلدان، ج2، ص463.

[3] الحموي، **معجم البلدان**، ج2، ص463. وانظر الحميري محمد بن عبدالمنعم (ت900هـ/1494م) **الروض المعطار في خبر الأقطار**، ط2، مكتبة لبنان، 1984، ص237. وسيشار له فيما بعد: الحموي، الروض المعطار.

باسمه[1].

أما القول عن نسبة الاسم إلى سرعة البناء أن كلمة دمشق أخذت من قولهم دمشقوها أي أسرعوها كما يذكر الأصمعي[2] ويستدلوا بالقول ناقة دمشقة بفتح الدال وسكون الميم يقصد بها السرعة.

وصاحبي ذات هباب دمشق كأنها بعد الكلال زورق[3]

ويقال دمشق الضرب إذا ضرب ضرباً سريعاً خفيفاً وقيل أن دمشق فعل من قول العرب ناقة دمشق الخطو إذا كانت خفيفة الخطوة والدمشقة السرعة في المشي دمشق يدمشق دمشقة ودمشاقاً إذا أسرع قال عبدالرحمن الجمعي وهو بعكر يزيد بن أبي سفيان[4] عند حصارهم دمشق:

---

[1] ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي، (ت571هـ- / 1176 م).**تاريخ مدينة دمشق**، تحقيق محب الدين أبي سعيد، طبعة بلا، دار الفكر، بيروت 1415هـ 1995م، ج1 ص15، وسيشار له فيما بعد: ابن عساكر، تاريخ دمشق، وانظر أيضا الحموي، معجم البلدان، ج2 ص 463.

[2] ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ج1، ص 19، وانظر أيضا ابن الجوزي، شهاب الدين أبي المظفر يوسف بن قزاوغلي، (ت654ه/1256 م) **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان** (ص76) طبعة أولى، 1405هـ- 1985م، دار الشروق، بيروت.سيشار له لاحقا: ابن الجوزي، مراة الزمان..

[3] ابن شداد، عز الدين أبي عبدالله محمد بن علي بن إبراهيم(ت684هـ/1285م) **الاعلاق الخطيرة**، تحقيق :سامي دهمان، ط1، المعهد الفرنسي للدراسات العربية دمشق1375هـ/1956م، ج2 القسم الأول، ص15. وسيشار له لاحقا، ابن شداد، الاعلاق الخطيرة.

[4] يزيد بن أبي سفيان: هو يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبدشمس أخو معاوية لأبيه أسلم يوم فتح مكة كان أحد القادة الذين توجهوا لفتح الشام تحت قيادة أبو=

ابلـــغ أبـــا ســـفيان عنـــا بأننـــا	**على خير حال كان جيش يكونها**
وأنــا علــى بــاب دمشــقة نرتمــي	**وقد حـان مـن بـاب دمشـق حينهـا**[1]

أما الأمر الآخر الذي عزي له اسم دمشق فهو منسوب إلى لفظة رومية وهي مشتقة من ذوو مِسكَيْن أي المسك المضاعف لطيبها فذوا لتصغير وميسيك هو المسك ثم عربت وقيل دمشق[2]. وهناك من يذكر أن دمشق هي إرم ذات العماد[3] المذكورة بالقرآن الكريم يقول تعالى: ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴾[4] ويذكر أيضا أن سبب التسمية يعود إلى أبي جيروان ابن سعد بن عاد بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام وكذلك يذكر عوف بن خالد وعكرمة وغيرهما هذه التسمية [5] هذا ما تعرضت له بعض المصادر القديمة حول سبب تسمية دمشق وسنتعرض إلى بعض الكتابات الحديثة التي تخالف تلك التسميات معتمدة على تفسير المخلفات الأثرية التي تم العثور عليها لاحقاً.

تعزو الدراسات الحديثة سبب تسمية دمشق إلى طبيعة الأرض وما تنتجه وأن المنطقة أخذت تسميتها من طبيعتها الجغرافية ومن هذه الدراسات

=عبيدة شارك في فتح دمشق وتوفي في طاعون عمواس سنة 19 هـ640م.

[1] ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ج1 ص 20.

[2] نفس المصدر، ص 21.

[3] ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ج1، ص13، وانظر الحموي، معجم البلدان، ص464، وانظر أيضا: البكري، أبي عبدالله البكري، ت (487هـ/1094م) **المسالك والممالك**، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، ط 1، الدار العربية للكتاب، بيروت، 1992، ج1، ص 463.سيشار له لاحقا : البكري، المسالك.

[4] سورة الفجر، الآية (7).

[5] الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، ص237.

ما ذهب إلى (إن هذا الاسم كما يبدو مؤلف من مقطعين الأول (دو) أو (دا) وهي تعني اسم الإشارة ذو أو ذا أو دار وتعني موقعا حصيناً والمقطع الثاني ميسيك وهي كما يبدو مشتقة من شيء كما يقول hawpt وهكذا تعني التسمية دار ميسيك (الأرض المسقية)[1].

وهناك من يعزو الاسم إلى نوع الحجارة الموجودة في المنطقة كما يذهب بذلك العالم Albright حيث يرى أن كلمة ميسيك هي أصل الكلمة العربية (الشق) وهي تعني الحجر الجصي وأن تسمية دومشق تعني (ذو الحجر الجصي) وهذا ما نلحظه في كتابات أخرى أيضاً[2].

مع ما نجده من اختلاف كبير بين ما كتبه القدماء من أن تسمية دمشق تعود لاسم شخص هو أول من سكنها وأسس نواتها إلا أن اسم المكان وطبيعته لا يعطيه التسمية المطلقة بل يتغير بمجرد أن دخل الإنسان إليه وهذه طبيعة في النفس البشرية فلا يعقل أن يكون سبب التسمية يعود إلى طبيعة جغرافية المنطقة وربما كان الأنسب نسبتها إلى اسم بانيها.

الموقع:

تقع دمشق في منطقة سهلية نوعاً ما فهي محاطة بالجبال من الشمال

---

(1) عفيف البهنسي، **دمشق أقدم مدينة في العالم**، مجلة التراث العربي، العدد55و56، السنة14، 1994 م، ص232، وسيشار له لاحقا: البهنسي، دمشق أقدم مدينة

(2) سوفاجيه، جان، **دمشق الشام لمحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى عهد الانتداب**، تعريب فؤاد افرام البستاني تحقيق: أكرم حسن العلبي، الحمراء دمشق، ط، 1989، ص36. وسيشار له لاحقا سوفاجية، دمشق الشام.للمزيد حول تسمية دمشق انظر:هنري لامنس، دمشق واسماؤها القديمة، مجلة المشرق، مج3، عدد14، 1900، ص- ص 658- 662. سيشار له لاحقا: لامنس، دمشق واسماؤها.

والغرب منفتحة على الصحراء من الشرق والجنوب تلك الصحراء التي تمتد إلى الفرات شرقاً والجزيرة العربية جنوباً وأرضها واسعة كثيرة المياه والزرع[1].

وتقع على ارتفاع 690م عن سطح البحر وعلى خط طول 36°، 18° شرق غرينتش وخط عرض 33 ° و22° درجة شمالاً[2].

إن وجود سلسلة جبلية تحجزها عن البحر وهي سلسلة جبال لبنان الشرقية أجبر دمشق على أن يكون تواصلها مع الصحراء أكثر يسراً من تواصلها مع البحر مما أوجد كم من الطرق البرية التي تمتد من دمشق باتجاه الشرق والجنوب[3].

جعلها هذا الموقع محطة رئيسية لالتقاء سكان البادية القادمين من الشرق وبعض القادمين من السواحل عبر الثلمة الواقعة بين جبال الحرمون وجبال لبنان الشرقية لتكون دمشق على الرغم من بعدها والحواجز التي تقف حائلاً بينها وبين البحر منفذاً لأهل الصحراء والتجار إلى العالم الخارجي من خلال تلك الثلمة المذكورة[4].

---

[1] الاصطخري، أبي زيد احمد بن سهل البلخي، (ت300هـ- 912م) **مسالك الممالك،** طبعة ليدن، 1927، ص 59، وسيشار له فيما بعد: الاصطخري، مسالك الممالك.

[2] سوفاجيه، دمشق، ص23.

[3] شليشر، ليندا، **دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، ترجمة عمرو الملاح ودينا الملاح، مراجعة عطاف مارديني، ط1، دار الجمهورية، دمشق، 1419هـ- 1998م، ص17، وسيشار له فيما بعد: شيلشر، دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

[4] خير، صفوح، **مدينة دمشق دراسة في جغرافية المدن**، طبعة1، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، لا يوجد سنة النشر، ص124، وسيشار له فيما بعد:=

وتعزو بعض الدراسات الحديثة إلى أن اختيار هذا الموقع ليبني عليه الإنسان مدينته يعود بالأساس إلى خصوبة تربة الموقع والتي يعود فضلها إلى نهر بردى فلولا ذلك النهر لما ازدهرت المدينة وترعرعت[1].

على أن هذا الموقع وعلى أهميته جعل دمشق تتمتع بعلاقة مزدوجة مع جيرانها ومحيطها فهي أحياناً علاقة تجارية ودية وأحياناً عدائية متمثلة بغارات البدو المحيطين بها من الشرق والجنوب[2].

وتعود أهمية موقع دمشق كونها نقطة تجمع للمناطق المجاورة وتوزيع لمنتجاتهم فهي سوقها الذي يتم فيه التبادل التجاري[3] بالإضافة إلى خصوبة التربة والتي تجذب إليها العديد من السكان ليستقروا بها ويمارسوا نشاطاتهم الاقتصادية سواء الزراعية منها أو التجارية[4].

أن ما حققه الإنسان من اختراع لأنظمة الري وشق القنوات وسع الرقعة الزراعية لدمشق بل جعل من غوطتها أحد العجائب نظراً لكثافة إنتاجها الزراعي وتشابك الأشجار بها فعدت من أغنى بقاع الأرض مما تنتجه[5].

=خير، مدينة دمشق.

(1) سوفاجيه، **دمشق الشام**، ص24، وانظر أيضا شليشر، **دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، ص17، وانظر: خير، مدينة دمشق، ص 127. وانظر:احمد، محمود عبدالحميد، اسم دمشق في التاريخ، الندوة الدولية دمشق في التاريخ، ج1، ص26.

(2) خير، **مدينة دمشق**، ص131، شليشر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ص17.

(3) شليشر، **دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، ص 18.

(4) ابن الفقيه الهمذاني، أبي بكر احمد بن محمد، (ت290هـ/- 902م) **مختصر كتاب البلدان**، ط1، دار إحياء التراث 1407هـ- 1988م)ص 101.وسيشار له لاحقا: الهمذاني، مختصر كتاب البلدان.

(5) سوفاجيه، **دمشق الشام**، ص24.

إلا أن هناك من يأخذ على موقع دمشق مآخذ عدة منها:

1. عدم وجود عقبات أمام من يريد الاعتداء على دمشق أو اجتياحها نظراً لانفتاحها جهة الشرق والجنوب فطبيعة الأرض لا تعيق أي تقدم معادي لها.
2. سهولة قطع المياه عن القسم الأكبر منها.
3. عدم وجود حجر البناء واعتمادها على الصلصال وجذوع الأشجار وهذا يفقدها صورتها الجمالية.
4. صعوبة المواصلات بين المدينة والبحر من جهة وصعوبة تأمين الطرق البرية باتجاه العراء نظراً للهجمات المتكررة من البدو أو عدم توفر المياه[1] من جهة اخرى.

ان الأهمية التي أخذها موقع دمشق يعود لأنها سوق لمنطقة زراعية ومركز صناعي مهم فهذا ساعد على ازدهار دمشق وليس موقعها الجغرافي[2].

ويرى آخرون أن أهمية دمشق وازدهارها يعود إلى موقعها الجغرافي لأنها نقطة التقاء بين الشرق متمثلاً بالجزيرة العربية والعراق واليمن وفارس وبين مخرجها إلى البحر ويعتقد اخرون ان السلاسل الجبلية لم تكن عائقاً أمام قدرة الإنسان على اجتيازها وهذا جعل دمشق نقطة الوصل بين سكان الصحراء من جهة وسكان المناطق الشمالية والغربية على البحر[□] من جهة أخرى.

---

[1] المرجع نفسه، ص26.

[2] سوفاجيه، **دمشق الشام لمحة تاريخية**، ص 27.

[3] شليشر، **دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، ص17، وانظر أيضا: خير، مدينة دمشق، ص125.

وربما لم يكن لأي من الأسباب فضل عن الأخر. فمن يرى أن أهمية دمشق تعود لزراعتها وصناعتها فهو على حق، لكنه غفل عن حاجة دمشق للطرق لتصريف البضاعة، ومن يرى أن أهمية دمشق تعود لطبيعتها الجغرافية ولكونها نقطة التقاء الطرق التجارية، فقد غفل عن حاجة التجار لسد احتياجاتهم من أسواق دمشق.

وتأتي دمشق كبقعة مغايرة لجوارها، فهي محاطة بالجبال شمالاً وغرباً من الشمال تحدها جبال القلمون ومن الغرب سلسلة جبال لبنان الشرقية. أما من ناحية الشرق والجنوب فهي محاطة بالصحراء أو بادية بلاد الشام فمن الشرق تحدها البادية السورية ومن الجنوب مرتفعات بركانية وهي مرتفعات الكسوة وسهل حوران[1].

وهذا يؤيد ما ذهب إليه الحميري على اعتبار أن حدها الجنوبي أيضاً يمثل مرتفعات فيرى أن دمشق محاطة بالأرباض من جميع الجهات إلا من جهة الشرق[2] هذا التنوع في الحدود بين المناطق الجبلية من جهة والصحراوية من جهة أخرى أضفى على دمشق طابع خاص بأن تجمع ما بين اختلافات هذه المناطق المجاورة لها.

التضاريس:

كما شاهدنا من خلال استعراض حدود دمشق نجد أنها منطقة

---

(1) شليشر، **دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، ص17، أيضا، خير، مدينة دمشق دراسة في جغرافية المدن، ص125.

(2) الحموي، **معجم البلدان**، ج2، ص465، أيضا، الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، ص240.

سهلية محاطة بطبيعة ومميزات جغرافية مختلفة[1] فهي كثيرة المياه وكثيفة الأشجار متنوعة الإنتاج وتحوي على تضاريس مختلفة، فوجود الجبال المجاورة لها والصحراء شكل طبيعة وتضاريس خاصة بدمشق وأن غلب عليها طابع الأرض المنبسطة أو السهلية فوجود الجبال بجوارها جلب لها نهر بردى الذي تعتمد عليه اعتماداً كلياً في زراعتها وإنتاجها ووجود الصحراء الممتد سهَّل توفر الأراضي الممكن استغلالها وزراعتها نظرا لتوفر المياه[2].

وتشمل تضاريس دمشق بالرغم من ضيقها على جبل قاسيون وهو الجبل المبارك الذي يقصده العباد بالإضافة إلى منطقة منخفضة وهي الغوطة التي تسد حاجة دمشق من الإنتاج الزراعي وهي تروى من نهر بردى[3] والمدينة مائلة إلى الطول بشكل مستطيل وربما كان ذلك ناتج عن عدم القدرة بالتوسع بالبناء نتيجة تحكم التضاريس بها وللرغبة بعدم الخروج خارج نطاق المدينة[4] مع وجود بعض الأودية التي تتخللها أيضاً مثل وادي البنفسج والذي يبلغ طوله اثنا عشر ميلاً في عرض ثلاثة أميال[5].

---

[1] سوفاجيه، **دمشق الشام لمحة تاريخية**، ص 26، أيضا. شلشير، دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ص18، خير، مدينة دمشق، ص 126.

[2] ابن حوقل، أبي القاسم بن حوقل النصيبي، (ت367 هـ- 979م) **صورة الأرض**، ط 1، مكتبة الحياة بيروت، 1979، ص161 وسيشار له لاحقاً: ابن حوقل صورة الأرض.

[3] الحموي، معجم البلدان، ج2 ص 465.

[4] الحموي، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، ص240.

[5] ابن الوردي، زين الدين أبو حفص عمر بن المظفر، (ت749هـ- 1348م)**خريدة العجائب وفريدة الغرائب**، (د.ط) دار الشرق العربي، حلب، 1991، ص19، وسيشار له فيما بعد ابن الوردي، فريدة العجائب.

مصادر المياه:

تعزو الكثير من الدراسات ازدهار دمشق وأخذها مكانتها بين مدن العالم القديم بالذات إلى توفر المياه وغزارتها[1] ولأن المطر أو الغيث هو المصدر الأساسي للماء وقد ورد ذكره في القرآن الكريم في أكثر من موضع وأنه هو مصدر الحياة ومديمها فقد قال تعالى في محكم كتابه العزيز﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾[3] ولأن فصل الشتاء في دمشق في معظم سنيه قصير لجأ أهل دمشق لاستغلال مياه الأمطار بأفضل طريقة فكان المطر هو المصدر الأول لسد احتياجاتهم من الماء[4].

وتشكل الأنهار المصدر الثاني للمياه فقد اشتهرت دمشق بحسن استغلال وإدارة المياه من خلال نظام ري متطور يعتمد على القنوات التي تقوم بتوزيع مياه النهر واستغلالها إلى أقصى مدى وإيصال المياه إلى كل بقعة يمكن استغلالها سكانياً أو زراعياً وقد ذكرت العديد من المصادر أن القنوات التي شقت داخل دمشق كانت من وسائل الراحة والرفاهية لسكانها[5] بالإضافة إلى الأنهر التي تفرعت عن نهر بردى وأروت غوطة

---

(1) سوفاجيه، **دمشق الشام**، ص24.

(2) سورة الشورى، آية 28.

(3) سورة لقمان، آية 34.

(4) سوفاجيه، مرجع سابق، ص24.

(5) ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص161، وانظر أيضاً: المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ص160، وانظر أيضا، الادريسي، أبي عبدالله محمد بن عبدالله بن إدريس، (ت560هـ 1164) **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، ط1، عالم الكتاب، بيروت، 1409هـ- =

دمشق التي اعتمد عليها السكان بشكل شبه تام على منتجاتها الزراعية ومن هذه الأنهر تذكر المصادر[1]:

(1) نهر يزيد.

(2) نهر ثورة.

(3) نهر قناة المزه.

(4) نهر بانياس.

(5) نهر سقط.

(6) نهر يشكر.

(7) نهر عادية وتوصف مياه هذا النهر بأنها ليست مشروبة لان عليها مصبات المدينة[2].

بالإضافة للنهر الأساس بردى.

أما المصدر الثالث فهو العيون.

تذكر معظم المصادر وتكاد تجمع على ما يتفرع في دمشق من أنهار يعود بالأصل إلى عين الفيجة بالإضافة إلى عيون أخرى ولكن ليست بنفس القوة من ضخ المياه[3].

=1989م، ص366 وسيشار له فيما بعد: الإدريسي، نزهة المشتاق وانظر أيضاً: سوفاجيه، دمشق الشام لمحة تاريخية، ص23.

(1) الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، ص367، وانظر أيضاً ابن الجوزي، **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، ص 73. وانظر:العطار، محمد، (ت1177هـ/1827م) علم المياة الجارية في مدينة دمش، تحقيق: احمد غسان سبانو، ط 1، دار قتيبة، دمشق، 1404هـ/1984م، ص8. سيشار له لاحقا: العطار: علم المياة.

(2) الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، ص367.

(3) ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص116، وانظر الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق=**

المناخ:

مناخ دمشق لا يخرج عن مناخ دائرة البحر الأبيض المتوسط وإن كانت للتضاريس المحيطة بدمشق تأثيره فوجود سلسلة من الجبال شمال وغرب دمشق يقف حاجز بينها وبين تدفق كميات كبيرة من مياه الأمطار عليها فمعدل السقوط المطري لا يتجاوز 30 ملم وترتفع درجة الحرارة بها في الصيف لتصل إلى 37[1].

يعد فصل الصيف من أطول فصول السنة في دمشق فالشتاء قصير والجفاف طويل يميل إلى جو الصحراء إن لُطْف مناخها وارتفاع موقعها وقربها من البحار دفع السكان للجوء إلى استغلال خيرات الطبيعة المتوفرة لديه فاستغل نهر بردى وغوطة دمشق أفضل استغلال[2].

لمحة تاريخية عن أوضاع دمشق قبل فترة الدراسة:

دخلت دمشق في ظل الدولة العربية الإسلامية عندما دخلها المسلمون فاتحين سنة 14هـ/636م[3] وبدأت تأخذ دورها المميز في العالم الإسلامي حيث

=**الآفاق**، ص 267، وانظر: ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ص73.

(1) سلسلة اقرأ، **دمشق مدينة السحر والشعر**، مطبعة المعارف ومكتبها بمصر، بمعاونة الدكتور حسن بك وأنطوان الجميل بك وعباس محمود العقاد وفؤاد الصروف، ص9.

(2) سوفاجيه، **دمشق الشام**، ص24.

(3) البلاذري، أبو الحسن احمد بن يحيى بن جابر، (ت279هـ/892م) **فتوح البلدان**، مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان، ط بلا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1398هـ/1978م، ص127. وسيشار لاحقاً: البلاذري، فتوح البلدان، إلا أن الطبري يذكر أن فتح دمشق تم سنة 13هـ/635م للمزيد. الطبري، أبي جعفر محمد بن جبير، (ت310هـ/922م) **تاريخ الأمم والملوك**، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ2003م. مج2، ص259. وسيشار له لاحقا: الطبري، تاريخ الأمم والملوك.

أصبحت وبعد مدة قصيرة من بداية الدعوة الإسلامية مقر دار الإسلام ومركز الحكم لإمبراطورية مترامية الأطراف تمتد من الأندلس غرباً إلى الصين شرقاً فما أن آلت الأمور إلى بني أمية لقيادة العالم الإسلامي سنة 41هـ/661م حتى اتجهت الأنظار إلى دمشق حيث كان معاوية مقيماً في بيت المقدس فأشار عليه مستشاروه أن يجعل دمشق مقر حكمه وسلطانه[1].

فغدت مركز جذب العديد من الفاتحين والتجار والمفكرين فقد أغرت المزارعين والتجار على حد سواء بخصوبة تربتها وغزارة مياهها عاشت دمشق ما يقارب قرناً من الزمان وكلمتها مسموعة في جميع أنحاء المعمورة تأتي إليها الوفود من كل الأقطار لقضاء المصالح الدينية والدنيوية وأصبحت قبلة ومحط أنظار العالم في ذلك إلى أن سقطت الخلافة الاموية سنة 132هـ/749م[2].

ثم ما لبثت أن تلاشت هذه الحقبة مع ظهور العباسيين واستيلائهم على دمشق فنكلوا في المدينة انتقاماً من سادتها الأمويين سابقاً، فبعد دخولهم المدينة قاموا بهدم سور المدينة وتخريبها مما اضطر السكان لهجر مدينتهم والابتعاد عنها للحفاظ على سلامتهم فزال بذلك عهد دمشق الذهبي[3].

---

(1) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، المجلد الثالث، ص167 وانظر.المسعودي أبي الحسن علي بن الحسين بن علي (ت346هـ/ 957م)، مروج الذهب، ط1، مكتبة المدرسة، 1402هـ/ 1982م، مج2، ج3، ص3، وانظر: هنري لامنس، **كيف صارت دمشق عاصمة**، مجلة المشرق، السنة التاسعة والعشرون، كانون أول 1931م، ص- ص892- 896.

(2) خير، صفوح، **مدينة دمشق دراسة جغرافية**، ص151.

(3) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، المجلد الرابع، ص354.

استمر وضع دمشق كمدينة ثانوية لا تؤثر بمجرى الأحداث بل تنعكس الأحداث عليها طيلة فترة العصر العباسي، وقد بدا ذلك بشكل واضح بعد أن ضعفت الدولة العباسية[1] وظهرت إمارات مستقلة – وأن تبعت اسمياً إلى الخليفة العباسي – فقد سيطر عليها الطولونيون سنة 264هـ/877م[2] وبعد ذلك الإخشيديون سنة 318هـ/930م[3] ثم شهد العالم الإسلامي فترة مضطربة مذهبياً وسياسياً فظهر في العالم الإسلامي ثلاث خلافات الخلافة الأموية في الأندلس الخلافة الفاطمية في المغرب ومصر والخلافة العباسية في بغداد وكان من نتائج هذا الصراع أن سقطت دمشق في يد الفاطميين وأقيمت الخطبة للخليفة الفاطمي بدمشق سنة 358هـ/968م[4] وأسفر استيلاء الفاطميين على دمشق عن آثار سلبية انعكست على المدينة

---

[1] خير، صفوح، **مدينة دمشق دراسة جغرافية**، ص155.

[2] سميت الدولة الطولونية نسبة إلى احمد بن طولون والذي بدأت ولايته سنة254هـ/868م بالديار المصرية وقد ضمت ولايته مصر والشام ودخل دمشق سنة 265هـ/ 878م. للمزيد انظر: ابن الكثير، ابن الفداء عماد الدين، **البداية والنهاية**، تحقيق مصطفى بن العدوي، ط1، دار ابن رجب، مصر، 1425هـ/ 2005م، مج6، ج11، ص107، وسيشار له فيما بعد :ابن الكثير، البداية والنهاية.

[3] سميت الدولة الأخشدية بهذا الاسم نسبة إلى الاخشيد محمد بن طغج والذي استولى على مصر والشام سنة 324هـ- / 935م، للمزيد، انظر.ابن الأثير(ت630هـ/1232م) **الكامل في التاريخ**، تحقيق: خليل مأمون شحادة، ط1، دار المعرفة، لبنان، 1422هـ/ 2002م، ج6، ص427، وسيشار له فيما بعد ابن الأثير، الكامل.

[4] للمزيد حول أحداث دمشق وسقوطها بيد الفاطميين، راجع: ابن كثير، **البداية والنهاية**، مج6، ج11، ص363.

فتجلى الصراع المذهبي[1] وسوء سيرة الولاة الفاطميين في دمشق مما أثار السكان ضدهم وحدثت الاضطرابات المستمرة والتي كانت تسفر في أكثر الأحيان عن طرد والي المدينة المعين من قبل الفاطميين[2] وقد أحرقت دمشق عدة مرات إلى أن وصل الحريق إلى الجامع الأموي والذي يحظى بمكانة متميزة وخاصة لسكان دمشق مما يمثله من رمزية لهم[3] هذا ناهيك عن تهديد القرامطة[4] لدمشق عدة مرات واستيلائهم عليها سنة 360هـ/973م قبل أن يتمكن الفاطميون من إعادة سيطرتهم على دمشق سنة 363هـ/976م.

عاشت دمشق فترة مضطربة وأحداث متلاحقة ألمت بها خلال الحكم الفاطمي فلم يمضي عام واحد من أيام الفاطميين بها بلا أحداث داخلية ومعارك بين السكان في دمشق والسلطة الجديدة، ويمكننا القول أن فترة الحكم الفاطمي لدمشق كانت مرحلة مخاض لولادة قوة جديدة لاستلام المدينة وإعادتها إلى مكانتها الأولى في بدايات الفتح الإسلامي لتكون مقراً لدولة جديدة ينطلق منها تحرير باقي أنحاء العالم الإسلامي من السيطرة الصليبية، فكان الفتح السلجوقي[5] لدمشق انطلاقة هذه المرحلة الهامة من

---

[1] حول مقاومة سكان دمشق للنفوذ الفاطمي، راجع: ابن كثير، مصدر سابق، ص363.

[2] المصدر نفسة، ص367.

[3] ابن القلانسي، حمزة بن أحمد بن علي بن محمد التميمي (ت555هـ- / 1160م) **تاريخ دمشق**، تحقيق سهيل زكار، ط 1، دار صادر للطباعة والنشر، دمشق 1435 هـ- / 1983م، ص13، وسيشار له لاحقا: ابن القلانسي، تاريخ دمشق.

[4] حول دخول القرامطة دمشق وتهديدهم المستمر للبلد، انظر: ابن كثير. **البداية والنهاية**، مج6، ج11، ص362.

[5] السلاجقة: هم سلالة من الأتراك ينسبوا إلى جدهم سلجوق اعتنقوا الإسلام في=

مراحل التاريخ الإسلامي.

دمشق في العهد السلجوقي:

كان لدخول السلاجقة لبلاد الشام واستيلائهم على دمشق أهمية كبيرة فقد كان دخولهم نقطة تحول في التاريخ الإسلامي بشكل عام، فنظراً لما كانت تشهده منطقة بلاد الشام من صراع مرير بين قوى مختلفة عقائدياً ومذهبياً ظهر السلاجقة لينتصروا للخلافة في بغداد على منافستها في الشام وهي الدولة الفاطمية شيعية المذهب، فكانت دمشق أقصى أمنيات كل من بغداد والقاهرة ذلك أن المسيطر عليها يستطيع نقل المعركة إلى خارج حدود عاصمته ويضمن ساحت صراع بعيداً عن حدود مملكته [1].

ظهر السلاجقة كقوة إسلامية فتية تدين بالمذهب السني وضعت نصب عينيها منذ انطلاقتها الاولى هدفاً واضحاً هو القضاء على المذهب الشيعي والمتمثل بالدولة الفاطمية فكان أول تصريح لطغرل بيك[2] ملك

=القرن الرابع هجري وأسسوا دولتهم في بلاد ما وراء النهر ثم عبروا إلى خراسان بعد القضاء على السامانيين والغزنوين، انظر: أبي الفداء، **المختصر في أخبار البشر**، ج1، ص517. وانظر: الشامي، أحمد. **تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى**، ط1، دار النهضة العربية، القاهرة 1405هـ- 1985م، ص30. وسيشار له فيما بعد: الشامي، أحمد، العلاقات بين الشرق والغرب.

[1] سوريال، عزيز. **العلاقات بين الشرق والغرب تجارية – ثقافية- صليبية**، ترجمة، فليب صابر سيف، ط 1، مراجعة احمد خاكي، دار الثقافة المسيحية، القاهرة، 1972، 41. وسيشار له لاحقاً: سوريال، عزيز، العلاقات بين الشرق والغرب.

[2] طغرلبيك (ت455هـ/ 1063م) محمد بن مكائيل بن سلجوق أول ملوك السلاجقة وهو الذي بنى دولتهم استدعاه الخليفة العباسي القائم بأمر الله لملك العراق ولقبه الخليفة بملك المشرق والمغرب وكان حسن السيرة كثير الصيام حليماً كتوماً للأسرار=.

السلاجقة أنه ينوي التوجه إلى الشام ومصر للقضاء على الدولة الفاطمية[1] وقد خدمت الظروف المد السلجوقي القادم من الشرق وتعزز ذلك برسالة من الخليفة القائم بأمر الله[2] وجهها للسلاجقة يستعين بهم على البويهيين[3] الذين حجروا على الخليفة واستولوا على الأمور كاملة في بغداد.

دخل السلاجقة بغداد سنة 447هـ/1055م واستطاعوا القضاء على الدولة البويهية ودعي لطغرلبيك على منابر بغداد[4] ومنها انطلق السلاجقة باتجاه الشام لتحقيق حلمهم المعلن وهدفهم الواضح في توسيع نفوذهم والقضاء على الفاطميين.

كان من نتائج توجه السلاجقة إلى الشام أن اصطدموا بالدولة البيزنطية فكانت بينهم وبين البيزنطيين معركة حاسمة وهي معركة ملاذ كرد سنة 463هـ- 1071م والتي انتصر بها السلاجقة على الروم وكان لها تأثيرات واضحة على مختلف الصعد بالنسبة للعالم الإسلامي[5].

=انظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، مج6، ج12، ص162. وانظر أبي الفداء، **المختصر في أخبار البشر**، ج1، ص541.

[1] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج8، ص158.

[2] الخليفة العباسي، القائم بأمر الله ت467هـ /1074م، وهو أبي جعفر عبدالله بن القادر بالله أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر بالله بن المعتضد بن الأمير أبي أحمد الموفق بن المتوكل بن المعتصم، تولى الخلافة سنة422هـ- 1030م، وقد استمرت خلافته قرابة 44 عاما. للمزيد انظر: ابن كثير. **البداية والنهاية**، مج6، ج2؛ ص184.

[3] المصدر نفسة، مج6، ج12، ص162.

[4] أبي الفداء، **المختصر في أخبار البشر**، ج1، ص529.

[5] عطا، زبيدة. **الترك في العصور الوسطى**، ط بلا، دار الفكر العربي، تاريخ نشر، بلا، ص51، وسيشار له فيما بعد: عطا، الترك في العصور الوسطى.

بعد الحملة السلجوقية على بلاد الشام بقي أحد قادتها العسكريين وهو اتسز بن أوق الخوارزمي[1] حيث سار إلى أعمال دمشق بهدف الاستيلاء عليها من الفاطميين سنة 463هـ/1071م وضايقها بالحصار وأتلف غلالها إلا أنه لم يفلح في أخذ المدينة وتوجه إلى جنوب بلاد الشام حيث تزعم مجموعات الأتراك التي دخلت المنطقة قبل السلاجقة ومنهم الناوكية[2] فاستولى على فلسطين واستولى على بيت المقدس من الفاطميين واتخذها قاعدة للانطلاق ثانية باتجاه المناطق المجاورة وبالذات دمشق[3] فقد واصل غاراته باتجاه دمشق واستخدم أساليب مختلفة في الحصار فقطع الميرة عن السكان ورعى المزروعات عدة سنوات[4] مما سبب اختلال الوضع الأمني بدمشق نتيجة

---

[1] اتسز هواتز أواطسز بن أوق الخوارزمي التركي احد القادة التركمان استولى على دمشق ولقب نفسه الملك المعظم وهو أول من ملك دمشق من الأتراك سنة 468هـ/1075م وقطع خطبة الخلفاء الفاطميين وأعاد الدعوة لخلفاء بني العباس. للمزيد، انظر: زكار، سهيل. **مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية**، ط2، دار الفكر، 1975، ص265، سيشار له لاحقا: زكار، مدخل الى الحروب الصليبية. وانظر: العبادي، **التاريخ العباسي والفاطمي**، ص185.

[2] الناوكية: هم مجموعة التركمان الذين لم يدينوا بالطاعة للسلطان السلجوقي وضمت مجموعة قليلة من سكان خراسان والعراق والجزيرة، هاجروا تحت ضغط السلاجقة دخلوا بيزنطة واستقروا في جنوب بلاد الشام وقد ذابوا في جسم التركمان إتباع السلاجقة الذين جاؤوا إلى الشام بعد سنة 462هـ/ 1070م وقد مهدت أعمالهم للفتح السلجوقي لبلاد الشام وساعدت على نجاحه، للمزيد انظر: زكار، سهيل، **مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ص**155.

[3] المرجع نفسه، ص ص156- 157.

[4] ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص174.

الصراع بين العسكر والأهالي، وخراب المنازل وهجر الناس بيوتهم، وغلاء الأسعار وقلة الأقوات.

هذه الأمور وغيرها سهلت على اتسز السبل لاقتحام المدينة والسيطرة عليها سنة 468هـ/1075م[1] منهياً بذلك حكم الفاطميين، لتدخل دمشق بعدها حقبة جديدة من تاريخها بانتقالها لسيادة الدولة السلجوقية سنية المذهب والتابعة اسمياً لدار الخلافة في بغداد.

إلا أن هناك من يشير إلى أن اتسز أساء السيرة في المدينة فهجّر أهلها وأسكن جنده بيوت أهالي دمشق وصادر ممتلكاتهم فدخلها وهي شبه خالية من سكانها الذين فروا منها[2].

حاول اتسز توسيع منطقة نفوذه فوجه أنظاره إلى مصر محاولاً الاستيلاء عليها إلا أنه فشل في ذلك، وبعد عودة اتسز مهزوماً من محاولته الفاشلة بدأ بتغيير سياسته تجاه الأهالي فأصبح يهتم بشؤون البلد من ناحية العمارة والزراعة وشجع الأهالي والمزارعين على العودة إلى بيوتهم ومزارعهم في الغوطة فرخصت الأسعار وعم الرخاء في البلد[3].

بدأت دمشق مع اتسز تستعيد دورها القيادي، فبعد أن كانت مطمع العديد من دول الجوار والغزاة، بدأت الحملات تنطلق منها بهدف توسيع المملكة الفتية، فاتجهت حملة من دمشق شمالاً باتجاه حلب وحملة باتجاه مصر، إلا أن كلا الحملتين لم تحققا الغاية المنشودة فانعكست آثارها السلبية على اتسز، فبعد أن فشلت الحملة المتجهة إلى مصر أعاد الفاطميين

---

(1) المصدر نفسه، ص175، وانظر: زكار، **مدخل تاريخ الحروب الصليبية**، ص165.

(2) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص176.

(3) المصدر نفسه، ص176.

الكرة للاستيلاء على دمشق، فاستنجد اتسز بتاج الدولة تتش إلا أن الهجوم الفاطمي سرعان ما تراجع عندما علم بقدوم تاج الدولة تتش[1]، لنصرة دمشق ضد التقدم الفاطمي اغتنم تتش فرصة الاستيلاء على دمشق فقتل حاكمها اتسز متعللاً بذرائع عدة[2] وتسلم تتش دمشق سنة 472هـ/1071م وآلت الأمور إليه فعمل على تحسين الوضع الداخلي لدمشق[3] وحاول توسيع نفوذه متخذاً دمشق قاعدة للحكم فانطلق باتجاه حلب مكرراً محاولة اتسز إلا أنه فشل في السيطرة عليها سنة 472هـ/1079م[4].

تعرضت دمشق أثناء حكم تاج الدولة تتش للحصار عدة مرات إلا أن صمود أهل دمشق ودفاعهم عنها أحبط محاولات الحصار[5] وبدا التوسع على حساب المناطق المجاورة لها ينمو وبشكل كبير[6] فبعد أن ضمن تتش انصياع والي حلب ووالي الرها[7] لخدمته بناء على أوامر تلقوها من أخيه السلطان ملكشاه[8] طلب السلطنة لنفسه بعد وفاة السلطان ملك شاه غير أن طموحاته

---

[1] تتش: هو أبو المظفر تاج الدولة بن ألب ارسلان بن داوود بن ميكائيل بن سلجوق. استولى على دمشق سنة471هـ/ 1077 م) وقتل بالقرب من بغداد سنة488هـ/ 1095م للمزيد انظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، مج6، ج12، ص225.

[2] ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص182.

[3] المصدر نفسه، ص183. يعزي سبب مقتل اتسز لتأخره في استقبال تتش: للمزيد حول هذا الموضوع راجع، ابن كثير، **البداية والنهاية**، مج6، ج12، ص

[4] ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص214.

[5] ابن الأثير، **الكامل**، ج1، ص279.

[6] حول حصار دمشق راجع ابن الأثير، **الكامل**، ج8، ص289، وانظر ص304.

[7] ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص209.

[8] ملكشاة ت485هـ/ 1092م ملك شاه بن الب ارسلان بن داود بن ميكائيل بن=

طموحاته قضي عليها عندما قتل في المعركة التي وقعت بينه وبين ابن أخيه السلطان بركياروق[1].

بعد مقتل تتش آلت أمور دمشق إلى ابنه شمس الملوك[2] بعد أن هيأ الأمر معاوني والده وبالذات ساوتكين الذي راسله سراً ودعاه ليتسلم المدينة بعد أن رتب أمورها فخرج سراً وعلى جناح السرعة حيث استلم حكم المدينة واستقر له الأمر[3] شهدت فترة حكم شمس الملوك صراعاً مريراً بينه وبين أخيه الملك رضوان بن تطش حاكم حلب فقد حاول رضوان السيطرة على دمشق، إلا أنه فشل وكذلك أعاد الكرة أخيه شمس الملوك فهاجم حلب لكنه فشل هو أيضاً[4]. في خضم هذه الأحداث والمنازعات الخارجية حدثت

=سلجوق، ملك بغداد، وامتدت مملكته من أقصى بلاد الترك إلى أقصى بلاد اليمن وراسله الملوك من سائر الأقاليم للمزيد انظر : ابن الكثير، **البداية والنهاية**، مج6، ج127. وفي سنة484هـ/ 1094 م عقد مؤتمر في بغداد واتخذ القرار بان يكون حاكم حلب وحاكم الرها في خدمته أخيه تتش. للمزيد انظر: ابن الأثير، **الكامل**، ج2، ص343.

[1] ابن الكثير، **البداية والنهاية**، مج6، ج12، ص226.

[2] شمس الملوك، هودقاق بن تتش، ملك دمشق بعد وفاة أبيه سنة488هـ/1094م إلى498هـ/ 1104م انظر ابن الأثير، **الكامل**، ج8، ص379.

[3] ساوتكين هو أحد الأمراء التابعين لتتش قام باستدعاء ابنه شمس الملوك دقاق ويسر له أمر السيطرة على دمشق وحكمها بعد مقتل السلطان تاج الدولة تتش. انظر: ابن الأثير، **الكامل**، ج8، ص379.

[4] أبي الهيجاء، عز الدين محمد بن أبي الهيجاء، (ت700هـ- /1301م) **تاريخ أبي الهيجاء**، تحقيق صبحي عبدالمنعم محمد، ط 1، رياض الصالحين للنشر والتوزيع، 1413هـ- /1993م، ص148. وسيشار له فيما بعد: أبي الهيجاء، تاريخ أبي الهيجاء.

تطورات خطيرة في المنطقة فقد بدأ المد الصليبي بالتوغل في المنطقة، وشاركت دمشق في محاولة صد هذا التقدم بالوقوف إلى جانب الرها[1] أضف إلى ذلك أن موت دقاق أنهى مرحلة من مراحل حكم الأسرة في دمشق فانتقلت السلطات إلى أيدي نظام جديد بدا يظهر وهو ما يعرف بالاتابكيات[2].

اتابكية دمشق (497- 549هـ/1103- 1154م):

استطاع طغتكين[3] أن يقضي على حكم أبناء تاج الدولة تتش بطريقة سلمية وأن ينقل مقاليد السلطة ليده فحكم ما يقارب خمسة وعشرين سنة (497- 522هـ/1103- 1128م) صرف طغتكين اهتماماً خاص للداخل وكان يهدف كسب ود القاعدة الشعبية لديه وهم أهل دمشق، ليهيئ لنفسه ولأبنائه من بعده حكم المدينة، فعمل على تنشيط القطاع الزراعي والذي انعكس مردوده إيجابياً فرخصت الأسعار وتوفرت المواد التموينية وقد كان لانتشار الأمن والاستقرار أن ازدهرت البلاد وانصرف

---

[1] أبي الهيجاء، مصدر سابق، ص150.

[2] الاتابك لفظ تركي مكون من مقطعين اتا: ومعناه الأب وبيك: ومعناه الأمير وكان يطلق على مربي أولاد السلاجقة من الأتراك وتم منحهم الاقطاعات مقابل قيامهم بشؤون الأبناء وتأديتهم الخدمة الحربية وقت الحرب. للمزيد انظر العبادي، **التاريخ العباسي والفاطمي**، ص197.

[3] طغتكين: هوطغتكين الاتابك صاحب دمشق التركي احد غلمان تاج الدولة تتش بن الب ارسلان السلجوقي كان من خيار الملوك وأعدلهم وأكثرهم جهاد للأعداء توفي سنة522هـ - 1128م. انظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، مج6، ج12، ص277، وانظر: سخنيني، عصام، **طغتكين اتابك دمشق488هـ- 522هـ/1095م- 1128م**، ط1، منشورات جامعة البتراء الخاصة، 2003، ص78.

الأهالي للعمران مطمئنين آمنين على أنفسهم وأموالهم نظير ما أحدثته سياسة طغتكين في البلاد من عدل وحسن معاملة[1].

اهتم بجميع نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية إلا أن حاكم دمشق لم يهمل جانب آخر وهو الجانب الدفاعي عن دمشق التي كانت مهددة من قبل الصليبين العدو الجديد الذي دخل المنطقة بالإضافة إلى بعض المناوشات الجانبية مع المدن المجاورة والتي حاول من خلالها توسيع نفوذه ليتمكن من السيطرة عليها[2].

حارب طغتكين الصليبين واستطاع الوقوف في وجههم ومنعهم من الاقتراب من دمشق سنة 499هـ/1105م[3] وناصر الجيش الفاطمي ضد الصليبين على الرغم من الاختلاف المذهبي فوقف بجانب الفاطميين متصدياً للمد الصليبي[4].

حارب طغتكين كل من حاول الاقتراب من دمشق مدافعاً عن مقر حكمه، وكذلك لبى نداء الواجب عندما طلب منه.كذلك فقد مد يد العون للمدن المجاورة له، إلا أننا نجده قد هادن الصليبين عندما شعر بالخطر من بني جلدته، فقد كان قائداً عسكرياً شجاعاً وسياسياً بارعاً هادئاً. حارب

---

(1) ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص235. وانظر: سخنيني، عصام، طغتكين اتابك دمشق، ص96.

(2) ابن الأثير، **الكامل**، ج8، ص488.

(3) المصدر نفسه، ج8، ص483.

(4) ابن الأثير، **الكامل**، ج8، ص519. وانظر: سخنيني، عصام، **طغتكين اتابك دمشق**، ص106.

عندما شعر أنه يستطيع الحرب وسالم وقت اقتضت الضرورة[1] بعد وفاة طغتكين استلم الحكم ابنه تاج الملوك بوري[2] (522- 525هـ/1128- 1130م).

شهد عهده اضطراب أحوال دمشق واستفحل أمر الإسماعيلية بالشام عامة وفي دمشق خاصة دخل بهرام دمشق سنة 520هـ/1126 م(وهو أحد دعاة الباطنية) بناء على استشارة نجم الدين أيل غازي بن ارتق[3] التي قدمها لحاكم دمشق لاتقاء شره وشر جماعته فلاقى معاملة حسنة ومنحه ظهير الدين ثغر بانياس سنة 520هـ/1126م فتجمع أعوانه إليه من مختلف الأصقاع فخشيهم الناس تفاديا لشرهم[4] وضاقت الرعية والعلماء منهم ذرعاً خصوصاً بعد أن تعاضدوا مع وزيره طاهرالدين المرزباني[5] والصليبين للقضاء على تاج الملوك وتعاهدوا على دخول دمشق[6] فلم يمهلهم تاج الملوك كثيراً إذ قضى

---

[1] للمزيد حول حروب طغتكين مع الصليبين ومهادنته لهم راجع: ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص263. أبوالهيجاء، تاريخ أبوالهيجاء ص162 وانظر، سخنيني، عصام، **طغتكين، اتابك دمشق**، ص115.

[2] تاج الملوك هوتاج الملوك بوري بن طغتكين استطاع أن يظم مناطق كثيرة لحكمه توفي سنة525هـ/1130م بعد أن طعنه أحد الباطنية انتقاما منه انظر ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص366.

[3] ايل غازي بن ارتق، صاحب حلب توفي سنة 516هـ/1122م كان شهماً حسن السيرة قاتل الفرنج وانتصر عليهم في معارك عديدة انظر ابن الأثير، **الكامل**، ج8، ص603.

[4] ابن القلانسي، تاريخ دمشق، 352، وانظر ابن الأثير، **الكامل**، ج8، ص650.

[5] طاهر المرزباني، هوأبوعلي طاهر بن سعد المرزباني وزير طغتكين ومن ثم ابنه بوري كان نافذ الكلمة على الرعية، ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص350.

[6] ابن الأثير، **الكامل**، ج8، ص269 حيث اتفق مع الفرنجة أن يسلموه صور ويسلمهم دمشق.

عليهم وقضى على وزيره وهبت العامة في مختلف مناطق دمشق للقضاء عليهم وقتلهم[1].

حاول الصليبيون الهجوم على دمشق للانتقام لحلفائهم الذين قضى عليهم تاج الملوك فحاصروا المدينة إلا أنهم فشلوا في الاستيلاء عليها[2] وبعد ذلك حاول الباطنية في عام 525هـ/1130م قتل تاج الملوك انتقاماً لما حصل لهم إلا أنهم لم يتمكنوا منه فجرحوه وبقي مدة بعد ذلك وتوفي[3].

تولى الحكم من بعده شمس الملوك إسماعيل[4] (525- 529هـ/1130- 529هـ/1130- 1135م) بموجب وصية والده وتميز عهده القصير نسبياً بالحكم بعده متناقضات[5] منها قيامه بمحاربة الصليبين واستعادة بعض المواقع منهم وتوسيع مناطق نفوذه والاهتمام بأمور البلد[6] إلا أننا نجده قد تراجع عن هذا النهج فهادن الفرنجة وتهاون معهم وتحولت سيرته إلى الظلم وأساء إلى الرعية[7] وتسربت أنباء عن دعوته لزنكي للاستسلام مما دفع أمه

---

(1) ابن الأثير، **الكامل**، ج8، ص269.

(2) المصدر نفسه، ج8، ص270.

(3) أبي الفداء، **المختصر في أخبار البشر**، ج2، ص67.

(4) شمس الملوك إسماعيل بن تاج الماوك بوري بن طغتكين، صاحب دمشق اونكي الظالم في دمشق وبالغ في المعقوبات لاستخراج الأموال كان بخيلا ودنيء النفس مما ساعد على أن تقف العامة والخاصة ضده للتخلص منه، انظر: ابن الأثير، **الكامل**، ج8، ص709.

(5) أبي الهيجاء، **تاريخ أبي الهيجاء**، ص195.

(6) ابن الكثير، **البداية والنهاية**، مج6، ج12، ص282.

(7) ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص387.

أمه أن تقوم بقتله بالتنسيق مع غلمانها فساد نوع من الفرح بمقتله[1].

ثم تولى الحكم في دمشق أخاه شهاب الدين محمود[2] (533-529هـ/1135- 1139م) بمساعدة والدته[3] وقد تعرضت دمشق في عهده للحصار من قبل عماد الدين زنكي الذي قدم إلى دمشق بناء على دعوة شمس الملوك له ليتسلم دمشق إلا أن أهلها دافعوا عنها ولم يتمكن زنكي من البلد[4].

بعد فشل زنكي في السيطرة على دمشق دبت الفوضى الداخلية بها نتيجة للفتنة التي تعرضت لها، حيث ثار العسكر ضد صاحب دمشق بسبب إعادته للحاجب يوسف بن فيروز[5] فقتله العسكر وخرجوا خارج البلد إلى بعلبك، ولم يعودوا إلا بعد أن قبل شهاب الدين محمود شروطهم وخرج لاستقبالهم[6].

لقد استطاع شهاب الدين محمود أن يحتوي اضطرابات دمشق الداخلية وأن يرفع عنها الحصار الخارجي، لكنه قتل غيلة على يد مجموعة

---

[1] المصدر نفسه، ص389.

[2] شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بن طغتكين صاحب دمشق قتله ثلاثة من خواصه واقرب الناس إليه، انظر أبي الفداء، **المختصر في أخبار البشر**، ج2، ص80، وانظر، المنجد، صلاح الدين، **ولاة دمشق في العهد السلجوقي**، ط3، دار الكتاب، بيروت، 1981، ص22.

[3] المصدر نفسه، ص390.

[4] نفس المصدر، ص391 وانظر، ابن الأثير، **الكامل**، ج8، ص754.

[5] يوسف بن فيروز هو شحنة دمشق وقد كان مسموع الكلمة متمكن عند تاج الملوك مقبول الرأي. انظر، ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص386.

[6] ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص411.

من غلمانه[1] واستلم بعده أخيه جمال الدين والذي توفي في نفس السنة 533هـ/1139م نتيجة مرض ألم به[2].

استلم بعده مجيرالدين محمد بن بوري[3]، إلا أنه لم يكن له من السلطة شيء فقد قام بأمور البلد معين الدين اتز[4] وقد أحسن السيرة في البلد وقاوم الحصار الصليبي على دمشق سنة 542هـ- 1147م، وراسل صاحب الموصول سيف الدولة غازي[5] يستنجد به لصد الصليبيين فاستطاع معين الدين أن يصمد وأن يلحق الهزيمة بالفرنجة[6] توفي معين الدين في ظل هذه الظروف وحزن الناس عليه كثيراً.

أدى غياب معين الدين عن ساحة الأحداث في دمشق إلى ضعف مجير الدين فتدخل الصليبيون في شؤون دمشق الداخلية[7] فهادنهم صاحبها بل

---

[1] ابن الأثير، **الكامل**، ج8، ص749.

[2] أبي الفداء، تاريخ أبي الفداء، **المختصر في أخبار البشر**، ج2، ص81.

[3] مجير الدين بن محمد بن بوري تولى الحكم بعد وفاة أخيه جمال الدين إلا انه لم يمكن من الأمر شيء فالأمور كلها كانت بيد معين الدين اتز توفي مجير الدين 564هـ/1168م. أبي الفداء، **المختصر في أخبار البشر**، ج1، ص80. انظر : المنجد، صلاح الدين، **ولاة دمشق في العصر السلجوقي**، ص23.

[4] معين الدين اتز صاحب دمشق وهو الذي كان إليه الحكم فيها وإليه ينسب قصر معين الدين الذي في الغور أبو الفداء، **المختصر**، ج2 ص.

[5] سيف الدين غازي بن عماد الدين اتابك زنكي صاحب الموصل ولي الموصل ثلاث سنين وشهرين وكان حسن الصورة توفي شابا سنة544هـ/1149م للمزيد انظر: أبي الفداء، **المختصر**، ج2 ص90.

[6] ابن الأثير، **الكامل**، ج9 ص47

[7] نفس الصدر، ص 102. وانظر أبي الهيجاء، **تاريخ أبي الهيجاء**، ص229.

ووصل الحد أن استنجد بهم ضد نورالدين زنكي الذي حاصر المدينة سنة 549هـ- 1154م[1] علماً بأن هذا الموقف المهادن للفرنجة كان لصالح نورالدين زنكي وأدى إلى وقوف أهالي دمشق لجانب زنكي مما سهل دخوله للمدينة[2].

الزنكيون في دمشق (549- 577هـ/1854- 1181م):

سنحت الفرصة لنورالدين زنكي من دخول دمشق سنة 549هـ/1154م بعد أن تعاون معه الأحداث[3] وأهالي البلد وفتحوا له باب المدينة الشرقي[4] ولجأ صاحبها مجيرالدين إلى القلعة فاستطاع نورالدين أن يتفق معه على أن

---

[1] ابن الأثير، **الكامل**.ج9ص103. وانظر ابن كثير، **البداية والنهاية**، مج، ج12، ص313.

[2] ابن الأثير، **الكامل**، ج9 ص103.

[3] الأحداث: هم حركة ولدت في بلاد الشام ونمت في إطار هذه البلاد ونبعت من مشاكلها الخاصة السياسية والاجتماعية والاقتصادية.للمزيد انظر، زكار. سهيل، **مدخل إلى الحروب الصليبية**، ص80. وهناك تعريف اخرللأحداث فيذكر انهم مجموعة ظهرت ابان للفراغ السياسي الذي ظهر نتيجة انهيار السلطة وفقدان الامن واحتلال الفاطميين لدمشق حيث حرمت الاستقرار في دمشق وكان لها الدور الأبرز في إخراجهم منها. للمزيد انظر: شاكر مصطفى، **الحركات الشعبية وزعمائها في دمشق في العهد الفاطمي**، مجلة كلية **الآداب والتربية**، جامعة الكويت، العدد الثالث والرابع، حزيران 1973- جمادى الأولى 1393، كانون أول: ذوالقعدة، وانظر: كلود كاهن، **الحركات الشعبية الاستقلال الذاتي في المدن الإسلامية خلال القرون الوسطى**، مجلة الاجتهاد، العدد السادس، السنة الثانية، 1410هـ- 1990م، بيروت، ص117، وسيشار له لاحقا، الحركات الشعبية

[4] ابن أبي الهيجاء، **تاريخ ابن أبي الهيجاء**، ص230.

يخرج من القلعة وأقطعه حمص عوضاً عن دمشق[1] وبذلك انتهى حكم أسرة طغتكين التركية.

كان لدخول الزنكيون دمشق أثر كبير على الأوضاع في الشرق الإسلامي فلقد اتخذها نورالدين قاعدة للانطلاق لمحاربة الصليبين نظراً لقرب موقعها من المواقع التي احتلوها[2] فاتجه بتأليف القلوب حوله وأخذ يشاور علماء المدينة وكبارها في أمور البلاد ويهيئ الأرضية الصلبة للانطلاق إلى ما بعد تلك المرحلة[3].

استطاع نورالدين أن يحقق حلم السلاجقة الأول في القضاء على الدولة الفاطمية في مصر فبعد ثلاث حملات متلاحقة جهزت لمساعدة الفاطميين تنفيذ رغبة الوزير شاور[4] في إنفاذ جيش إلى مصر للوقوف إلى جانبه للقضاء على منافسه في الوزارة ضرغام بن سوار[5] فقد أرسل نورالدين قائده أسدالدين شيركوه إلى مصر سنة 559هـ/1163م وتمكن من خلع ضرغام

---

[1] ابن الأثير، **البداية والنهاية**، مج.6، ج12، ص313.

[2] السامرائي، فراس سليم حياوي، **التقاليد والعادات الدمشقية**، ط1، الأوائل، دمشق 1425هـ/2004م، ص42، وسيشار له فيما بعد: السامرائي، التقاليد والعادات الدمشقية.

[3] ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص405.

[4] شاور هو أبو شجاع شاور بن مجير، وزير الخليفة الفاطمي في مصر وكان له عدد من المنافسين ومنهم ضرغام وهو من استدعى نور الدين لدخول مصر، العبادي، **التاريخ العباسي والفاطمي**، ص312.

[5] ضرغام بن سور. هو أحد الأمراء الذين استطاعوا أن يجمعوا الجموع ويستلم الوزارة بدلا من شاور قتل على يد الجيش الشامي الذي وصل مصر سنة 559هـ/1363م ابن كثير، **البداية والنهاية**، مج6 ج12، ص229.

وإعادة شاور إلى الوزارة لكن شاور أحس بالخطر القادم من الشام فتحالف مع الصليبين ضد جيش نورالدين زنكي ولكن هذا التحالف لم يفلح[1].

كانت الحملة الأهم هي تلك الحملة التي جاءت بناء على طلب الخليفة الفاطمي العاضد[2] من نورالدين أن يقف إلى جانبه ليحد من تغلغل النفوذ والتهديد الصليبي لمصر وأرسل نورالدين حملة أخرى بقيادة أسدالدين أيضاً سنة 564هـ/1168م ورافقه في هذه الحملة صلاح الدين[3] تمكن أسدالدين من تحقيق الهدف الذي أرسل من أجله فدفع الفرنجة عن مصر وأصبح وزير للخليفة العاضد وأمسك بزمام الأمور في البلد[4] بعد وفاة أسدالدين خلفه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي في منصبه والذي استطاع أن يحقق حلم العباسيين بقطع الخطبة للخليفة الفاطمي وأن يدعى للخليفة العباسي[5] على منابر القاهرة[6] سنة 569هـ/1169م.

---

(1) ابن كثير، **البداية النهاية**، مج6، ج12، ص229.

(2) الخليفة العاضد واسمه عبدالله ويكنى أبي محمد بن يوسف الحافظ بن محمد بن المنتصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المنصور بن القائم بن المهدي أول ملوك الفاطميين. كانت سيرته مذمومة وقد خطب للخليفة العباسي على منابر القاهرة في عهدة وتوفي سنة 567هـ/1171م للمزيد انظر. ابن كثير، **البداية والنهاية**، مج6، ج12، ص346.

(3) المصدر نفسه، مج6، ج12، ص337.

(4) ابن كثير، **البداية والنهاية**، مج6، ج12، ص338.

(5) الخليفة العباسي هو أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد بن المقتفي بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه توفي سنة 575هـ/1179م، انظر: السيوطي، جلال الدين، (ت911هـ/1505م)، **تاريخ الخلفاء**، مراجعة جمال محمود مصطفى، ط2، دار الفجر، القاهرة، 1425هـ/2004م، ص348.سيشار له لاحقا: السيوطي، تاريخ الخلفاء.

(6) ابن الاثير، **الكامل**، ج9، ص224.

كان من نتيجة هذا النصر أن أصبح نورالدين قائداً لبلاد الشام ومصر، حيث قلده الخليفة العباسي المستضيء السيفين دلالة لولايته على مصر والشام[1] وبدأ يجهز جيشه للانطلاق لتحرير بيت المقدس من الصليبين حيث عمل على تجهيز منبر خشبي تحمله الجيوش الإسلامية إلى بيت المقدس[2] إلا أن القدر عاجله قبل تحقيق حلمه فتوفي نورالدين سنة 569هـ/1162م لينتهي دور عائلة من العوائل التي حكمت المنطقة وبدأ دور عائلة جديدة لكنها سارت على نفس النهج وهذا ما سنستعرضه خلال حديثنا عن الأوضاع السياسية في المنطقة أثناء فترة الدراسة.

مما تقدم نستطيع أن نخلص إلى عدة ملاحظات هامة من خلال دراستنا للفترة التي سبقت مرحلة الدراسة بالذات بعد استيلاء السلاجقة على دمشق سنة 468هـ/1075م.

ومن هذه الملاحظات ما يلي:

(1) عودة هيبة الحكم لدمشق واتخاذها مقراً لحكام دمشق.

(2) أسست لمرحلة من الاستقرار والازدهار فقدته دمشق منذ دخول العباسيين لها.

(3) القضاء على الفاطميين في بلاد الشام والدعوة للخليفة العباسي من على منابر دمشق.

(4) عودة بلاد الشام ومصر ولو اسمياً إلى حظيرة الخلافة العباسية.

(5) إقامة المدارس على مختلف مذاهب أهل السنة بقصد محاربة مخلفات المذهب الشيعي.

---

(1) ابن كثير، **البداية والنهاية**، مج6، ج12، ص348.

(2) المصدر نفسه، مج7، ج13، ص41.

(6) القضاء على الباطنية والإسماعيلية والحد من نفوذهم وسطوتهم التي كانت ترهب الفقهاء والعلماء وتشيع الرعب والخوف بين العامة[1].

[1] للمزيد حول اوضاع دمشق في تلك الفترة انظر :.جوني، وفاء، دمشق بين اتابكيتين البورية والزنكية (النورية)497- 569هـ/1103- 1173م، الندوة الدولية دمشق في التاريخ، ، ج1، ص ص351- 371..

الفصل الثالث

الأوضاع السياسية والإدارية في دمشق خلال العهدين الأيوبي والمملوكي

الأوضاع السياسية في دمشق خلال العهد الأيوبي

أصبح صلاح الدين الأيوبي الرجل الأول بمصر بعد أن تمكن من القضاء على الخلافة الفاطمية شيعية المذهب في محرم سنة 567هـ/1171م وأعاد مصر بهذا الانجاز إلى حظيرة الخلافة العباسية فدعي للخليفة العباسي من على منابر القاهرة[1] ولقد لقي صلاح الدين كل الدعم من سيده نورالدين والخلافة العباسية في سبيل تحقيق ذلك الهدف حيث احتفل بهذا الانجاز في بغداد ودمشق ودقت البشائر ابتهاجاً بعودة مصر إلى سلطة الخلافة العباسية[2].

اتجه صلاح الدين إلى تثبيت حكمه في مصر وبسط نفوذه وصرف جل اهتمامه لهذا الجانب مع حرصه الشديد على الظهور بمظهر التابع لنورالدين فعمد على إظهار ولاءه المتكرر لنورالدين[3] إلا أن نورالدين كان

---

[1] أبو شامة، عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي (ت665هـ/1267م) **مختصر كتاب الروضتين في أخبار الدولتين**، اختصار وتعليق؛ محمد بن حسن بن عقيل، الطبعة الأولى، دار الأندلس، جدة، 1418هـ/1997م، ص150 وسيشار له لاحقا: أبي شامة، مختصر كتاب الروضتين. وانظر أيضا: ابن الأثير، **الكامل**، ج9، ص244. وانظر ابن كثير، **البداية والنهاية**، مج6، ج12، ص350.

[2] ابن الأثير، **الكامل**، ج9، ص245، وانظر ابن كثير، **البداية والنهاية**، مج6، ج12، ص346. وانظر: ايلسيف نيكيتا، **الشرق الإسلامي في العصور الوسطى**، ترجمة منصور أبو الحسن، د.ط، دار الكتاب الحديث، بيروت، 1406هـ/1986، ص438، وسيشار له: ايلسيف، الشرق الأوسط.

[3] ابن الأثير، مصدر سابق ص223، وانظر ابن كثير، مصدر سابق ص350. وانظر: الحنبلي، الأحمد بن إبراهيم (ت876هـ/1471م) **شفاء القلوب في مناقب بني أيوب**، تحقيق: مديحة الشرقاوي، ط1، مكتبة الثقافة، القاهرة، 1996م/1415هـ، ص105=.

يرقب ذلك الحراك بشيء من الحذر فساد علاقتهما نوع من الريبة والشك كما يذكر المؤرخون[1] ولم يستقر أمر صلاح الدين إلا بعد وفاة نورالدين زنكي في دمشق سنة 569هـ/1174م.

أحدثت وفاة نورالدين فراغا سياسياً كبيراً سيما وأن مشروع الوحدة والهادف للقضاء على النفوذ الصليبي والشيعي في بلاد الشام قد بدأ بالنضوج بعد أن تمكن صلاح الدين من بسط نفوذه في مصر، فلم يكن هناك وارث لعرش نورالدين من أبنائه إلا ولده الصالح إسماعيل الذي لا يتجاوز الحادية عشر من عمره فقد تم اختياره ليكون خليفة لأبيه من قبل أمراء دمشق[2] إلا أن الأمور ساءت في دمشق وأصبح عدد السادة الذين يوجهون الصالح إسماعيل يفوق عدد الرعية[3] فاختلفت الآراء والأهواء وطمع الفرنجة من

=وسيشار له لاحقا: الحنبلي، شفاء القلوب.

[1] حول ماجرى بين نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي. انظر: ابن الأثير، **الكامل**، ج9، ص246 وابن كثير، **البداية والنهاية**، مج6، ج12، ص350. إلا أن ابن شداد يذكر عكس ذلك تماماً وإن صلاح الدين كان يرفض رأي أي شخص يشير عليه بملاقاة نور الدين وقتاله حول ذلك انظر: ابن شداد، بهاء الدين (ت632هـ/1239م) **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، تحقيق: جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى، القاهرة، 1415هـ/1994، ص88 وسيشار له لاحقا: ابن شداد، النوادر السلطانية. وانظر: ايليسيف، **الشرف الأوسط**، ص439.

[2] الأصفهاني، عماد الدين أبو عبدالله محمد بن صفي الدين(ت597هـ/1220م) **سنا البرق الشامي**، تحقيق: رمضان ششن.ج1، الطبعة الأولى، 1971، دار الكتاب الجديد، ص153. وسيشار له لاحقا: الأصفهاني، سنا البرق الشامي.

[3] البير شاندور، **صلاح الدين الأيوبي البطل الأنقى في الإسلام**، ترجمة: سعيد أبو الحسن، تحقيق: نديم مرعشلي، الطبعة الثانية، دار طلاس، 1993م، ص132=.

جديد بدمشق وحاصروها فرأى أمرائها أن يدفعوا مبلغاً من المال للصليبيين مقابل رد أذاهم عنها[1].

كان صلاح الدين يرقب ما يحصل بدمشق وقد ساءه تحكم الأمراء بابن سيده وتهاونهم في الدفاع عن دمشق إلا أنه كان ينتظر اللحظة المواتية ليدخل دمشق بناء على دعوة أهلها لا بحد السيف وبالفعل لقد وجهت الدعوة له ليستلم دمشق من قبل بعض الأمراء لكن صلاح الدين لم يكن على عجلة من أمره لكي لا يظن أنه يسعى للحلول مكان ابن سيده في دمشق[2].

دخل صلاح الدين دمشق سنة 570هـ/1174م بسلام بدون إراقة دماء ونهج مع أهل دمشق وعلمائها وفقهائها نهجاً قربه من الجميع فاستحوذ على القلوب والعقول[3] وأظهر بشكل لا لبس فيه إنه جاء ليثبت سلطان ابن سيده ويحميه من الطامعين[4]

=وسيشار له لاحقا: البير، صلاح الدين.

[1] ابن كثير، **البداية النهاية**، مج6، ج12، ص367.

[2] الأصفهاني، **سنا البرق الشامي**، ج1 ص168، وانظر. ابن الأثير، **الكامل**، ج9، ص283. وانظر: مصطفى، شاكر، **صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفترى عليه**، دار القلم، الطبعة الأولى، 1419 هـ/1998م، ص156. وسيشار له لاحقا: شاكر، صلاح الدين.

[3] حول إجراءات صلاح الدين عندما دخل دمشق من إلغاء المكوس وزيارة الفقهاء في بيوتهم والقضاء على المظاهر الغريبة التي ظهرت في دمشق ارجع إلى: أبي شامة، **مختصر كتب الروضتين في إخبار الدولتين**، ص185. وانظر: ابن شداد، بهاء الدين (ت632هـ/1127م) سيرة صلاح الدين الأيوبي، الطبعة الأولى، دار المنار، 1421هـ/2000م، ص30. وسيشار له لاحقا: ابن شداد، سيرة صلاح الدين.

[4] ابن الأثير، **الكامل**، ج9، ص284. الأصفهاني، **سنا البرق الشامي**، ج1، ص177.

وتصور لنا بعض مظاهر الاستقبال التي لقيها صلاح الدين بدمشق حالتها المتردية بعد وفاة نورالدين زنكي[1]. فبعد أن أجرى صلاح الدين بعض الترتيبات الإدارية في دمشق ترك أخاه طغتكين[2] وخرج لبدء المرحلة الجديدة من مراحل الجهاد ضد الصليبيين وهي توحيد بلاد الشام ومصر لمواجهة ذلك الخطر[3]. واجه الزنكيون هذا التوجه الذي قادة صلاح الدين بتحالف ثلاثي بينهم وبين الإسماعيلية والصليبيين للقضاء على صلاح الدين[4] إلا انه انتصر عليهم في موقعة فاصلة قرب حماة ألغى على أثرها خطبة الصالح إسماعيل من على المنابر التابعة له وسك العملة باسمه وتوج ذلك باعتراف الخليفة العباسي بصلاح الدين حاكماً لمصر وسوريا[5].

غدت دمشق بعد دخول صلاح الدين لها عاصمة الدولة الجديدة ومقر قيادة عملياتها الحربية إلى نهاية حياته وكان ينظر لها على أنها الجذور

---

(1) انشد بعض الشعراء قصائد عند دخول صلاح الدين لدمشق وقد بينوا الحالة المتردية التي وصلت لها دمشق فقال أبو الفتح التعاويذي:

أضحت دمشق وقد حلت بجوها　　　مأوى الطريد وموئل المسكين

(2) وقال الشاعر نشر الدولة

شكت بعده مما توطن غيرها　　　وقالت- وكم أمثالها - ليتني مصر

للمزيد انظر:شاكر، **صلاح الدين**، ص160

(3) طغتكين: هو سيف الإسلام صاحب اليمن أخو السلطان صلاح الدين سيره صلاح الدين إلي اليمن سنة 577هـ/1181م توفي باليمن سنة 593هـ/1197م للمزيد انظر: الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج16، ص258.

(4) شاكر، **صلاح الدين**، ص155.

(5) الأصفهاني، **سنا البرق الشامي**، ج1، ص191. وانظر، شاكر، صلاح الدين ص159. وانظر عطا، الترك في العصور الوسطى، ص 104.

والأساس لتلك الدولة الفتية والتي ضمت مصر وبلاد الشام[1] حيث انطلق منها المد الإسلامي بقيادة صلاح الدين وتوج ذلك بتحرير بيت المقدس سنة 583هـ/1187م[2].

إلا أن هذا الاستقرار السياسي والإداري لدمشق لم يستمر طويلاً فبعد وفاة صلاح الدين سنة 589هـ/1192م نشب الصراع بين ملوك البيت الأيوبي لفرض سيطرتهم على دمشق فملك مصر كان يطمح بضم دمشق لسلطته. وملك حلب باتت نفسه تمنية بالسيطرة عليها أيضاً وقد تمكن الملك العادل[3] من ضم دمشق لسلطته وأصبحت تابعة لمصر فشهدت نوعاً من الاستقرار والاطمئنان نظراً لطول المدة التي تولى فيها الملك المعظم عيسى الحكم فيها[4].

إلا أنه بعد وفاة الملك العادل بدء الصراع من جديد بين الملك الكامل في مصر والملك المعظم عيسى في دمشق وتطور هذا النزاع إلى تحالفات إقليمية جديدة سعى في إقامتها الملوك الأيوبيون مع أطراف خارجية لتصفية حساباتهم

---

[1] بوول، ستانلي، **صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس**، ترجمة فاروق أبو جابر، الطبعة الأولى، الأهرام للنشر والتوزيع، 1416هـ/1995م. ص160، وسيشار له لاحقا: بوول، صلاح الدين.

[2] ابن جبير، **الرحلة**، ص 260، وانظر: بول، صلاح الدين، ص160.

[3] الملك العادل، أبو بكر بن أيوب ملك مصر والشام وكان حليما ذا رأي سديد ومكر ملك دمشق سنة 595هـ/1199م ومصر 596هـ/1200م. للمزيد انظر: ابن الأثير، **الكامل**، ج9، ص674.

[4] الملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب تملك دمشق أثناء حكم أبيه لمصر كان عالما حليما توفي سنة624هـ/ 1228م للمزيد انظر: ابن الأثير، **الكامل**، ج9، ص772.

الشخصية فتحالف الكامل مع الفرنج وتحالف المعظم عيسى مع الخوارزمية[1] وكان لهذه التحالفات انعكاساتها السلبية على كلا الطرفين[2].

عاد لدمشق استقرارها بعد فترة الاضطراب التي عاشتها خاصة بعد استيلاء الصالح أيوب عليها سنة 643هـ/1245م[3] وبقي الأمر على ما هو عليه إلى أن سقطت الدولة الأيوبية في مصر سنة 648هـ/1250م حيث قاوم الأيوبيون في الشام هذا الانقلاب على سلطتهم فتقدم البيت الأيوبي الملك الناصر يوسف واستقر بدمشق وبقي الصراع دائراً بين الأيوبيين والمماليك إلى أن تفوق التتار على الأيوبيين ودخلوا دمشق سنة 658هـ/1260م[4].

الأوضاع السياسية في دمشق خلال عهد المماليك:

بدأ عهد المماليك في دمشق سنة 658هـ/1260م بعد معركة عين جالوت (والتي أعادت وحدة مصر والشام تحت سلطان واحد هو السلطان المملوكي والذي اتخذ من القاهرة مقراً لحكمه).بعد ذلك استعادت دمشق

---

[1] حول التحالفات التي تمت بين ملوك مصر الأيوبيين من جهة والصليبيين من جهة أخرى وملوك دمشق الأيوبيين والخوارزمية. انظر: زيان، حامد زيان، **الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية**، ط1، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1403هـ1983م، ص 109. وسيشار له لاحقا زيان، الصراع السياسي والعسكري.

[2] حول موقف الأهالي والعلماء من هذه الاتفاقيات انظر: قاسم، قاسم عبده، **الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري**، (د.ط)، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، د.ت، ص99 وسيشار له لاحقا: قاسم، الأيوبيون والمماليك.

[3] اليافعي، **مرآة الجنان وعبرة اليقظان**، ج4، ص87.

[4] نفس المصدر ص92.

عافيتها إثر انسحاب التتار منها، كما أنها شهدت في هذا العام تقلب العديد من الدول في السيطرة عليها[1] مما جعل سلاطين المماليك يولونها أهمية خاصة، فقد أصبحت دمشق قاعدة لانطلاقهم باتجاه الحدود الشرقية والشمالية وهيأت لهم الفرصة للإغارة على القلاع الصليبية التي كانت متواجدة على السواحل الشمالية[2] فكان لا بد لأي سلطان يتسلم مهامه بالقاهرة أن يزور دمشق ويقيم بها ويتابع أمورها على أرض الواقع[3] وغدت دمشق العاصمة الثانية للدولة المملوكية والنيابة الأكبر والأهم بين نيابات تلك الدولة ويطلق عليها (نيابة الشام) وامتدت حدودها إلى الفرات والرستن[4]

---

[1] كانت سنة 658هـ/1260م سنة عاصفة بالأحداث في دمشق فقد تجمع بها الأيوبيين لمقاومة التتار ودخلها التتار ثم دخلها المماليك فتكون قد شهدت تقلب ثلاث دول عليها في هذا العام. للمزيد انظر: الدمشقي، محمد بن طولون (ت953هـ/ 1546م) **إعلام الورى بمن ولى نائب من الأتراك بدمشق**، تحقيق: محمد دهمان، الطبعة الثانية، دار الفكر، دمشق، 1404هـ/1984م، ص31. وسيشار له لاحقا: الدمشقي، أعلام الورى.

[2] أصبحت دمشق قاعدة للانطلاق للحملات العسكرية ضد التتار والصليبيين للمزيد حول هذه الموضوع انظر. ابن ايبك، أبي بكر بن عبدالله (ت736هـ/1335م) **كنز الدرر وجامع الغرر**، تحقيق: اولرخ هارمان، ط1، قسم الدراسات الإسلامية المعهد الألماني للآثار بالقاهرة، 1390هـ/1971م، ج8، ص127 وسيشار له لاحقا: ابن ابيك، كنز الدرر. وانظر عاشور، سعيد عبدالفتاح، **الأيوبيون والمماليك في مصر والشام**، طبعة منقحة، دار النهضة العربية، القاهرة، 1996، ص212. وسيشار له لاحقا: عاشور الأيوبيون والمماليك.

[3] قام السلطان الظاهر بيبرس بعدة زيارات لدمشق منذ تسلمه السلطة فقد زارها سنة 659هـ1261/م، وكذلك توفي ودفن بها سنة 676هـ/1277م. انظر: ابن ايبك، **كنز الدرر**، ج8، ص81.

[4] الرستن: بلدة قديمة على نهر العاصي بين حماه وحمص. انظر:الحموي، معجم=

شمالاً إلى البحر المتوسط غرباً وغزة والكرك جنوباً[1] ومنها تنطلق الأوامر والتعليمات للنيابات الأخرى وفيها مركزاً للبريد[2].

إن مكانة دمشق والدور الكبير الذي أصبحت تلعبة في العهد المملوكي جعل منها محط اهتمام ومطمع عدد كبير من أمراء المماليك ليتولوا نيابتها، وقد أدرك سلاطين المماليك ما تمثله نيابة دمشق من قوة لمن يتولى هذا المنصب، سيما وأنها أغرت عدد من نوابها بإعلان استقلالهم عن السلطة المركزية في القاهرة وإعلان أنفسهم ملوك مستقلين في دمشق[3]،

=البلدان، ج3، ص43.

[1] ابن كنان، محمد بن عيسى (ت1153هـ/1740م) "**نيابتا دمشق وحلب**" من كتاب المواكب الإسلامية. تحقيق: بندر محمد الهمذاني، الطبعة الأولى، جامعة أم القرى، 1423هـ/2002م، ص 56 وسيشار له لاحقا: ابن كنان، نيابتا دمشق وحلب.

[2] لابيدس، **مدن الشام في العصر المملوكي**، ترجمة: سهيل زكار، ط 1، دار احسان للطباعة والنشر، دمشق، 1405 هـ1985 م، ص42، سيشار له لاحقا: لابيدس، مدن الشام. **مدن الشام**، وانظر: غوانمه، يوسف درويش، **التاريخ السياسي لشرقي الأردن**، الطبعة الثانية، دار الفكر، عمان، 1982، ص40، وسيشار له لاحقا: غوانمه، التاريخ السياسي لشرق الأردن.

[3] أعلن سنجر الحلبي نفسه ملكا على دمشق عقب مقتل قطز وأطلق على نفسه لقب الملك المجاهد ودعي له على منابر دمشق وسكت العملة باسمه وقد قضى بيبرس على هذه المحاولة بعدة طرق من المصادر ما يذكر انه قضى عيها بقوة السلاح ومنها ما يذكر انه قضى عليها بالحيلة والمال للمزيد انظر: أبو الفداء، **المختصر**، ج2، ص320. حيث يذكر أنه تم القضاء عليه بالقوة. وانظر. المقريزي، تقي الدين احمد بن علي (ت845هـ/1442م) **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق: محمد مصطفي زيادة، طبعة أولى، مصر الجديدة، 1376هـ/1957م، ج1، ق2، ص444. حيث يذكر انه تم القضاء عليه بالحيلة. وسيشار له لاحقا: المقريزي، السلوك، الملك سنقر الأشقر نفسه ملكا=

هذا الوضع حتم على أن يتم اختيار نائب دمشق بعناية فائقة حتى وصل الحد لاختيار الأمراء الضعاف ليتولوها حتى لا يقوموا بحركات استقلالية شبيهه بمن سبقهم[1] ناهيك عن قصر مدة الولاية لدمشق فأصبح من الطبيعي أن لا تتجاوز مدة والي دمشق عام واحد وربما تعاقب عليها في نفس العام أكثر من ثلاثة ولاة[2] فقد تولى نيابة دمشق في العهد المملوكي الأول قرابة ثلاثة وأربعون نائباً منهم أربعة وثلاثون نائب لم يتجاوز حكمهم لدمشق أكثر من عام بل منهم من لم يتجاوز شهراً في نيابته.

هذا الإرباك أدى إلى اضطراب سياسي في دمشق مما جعلها محط أنظار الأعداء مرة أخرى، فلقد حاول التتار استغلال حادثة انشقاق نائب دمشق حيث أعلن نفسه ملكاً مستقلاً عن الدولة المملوكية سنة 659هـ/1261م عقب مقتل قطز[3] إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل وأوجب ذلك تعزيز دمشق كموقع دفاع أولي عن القاهرة في وجه المغول[4].

غلب على سياسة المماليك بشكل عام تغليب المصلحة الخاصة على مصالح عامة الشعب وتجلى ذلك في حكم نواب دمشق فكان نائب دمشق على استعداد أن يتخلى عن دمشق مقابل حفظ كيانه ووضعه الخاص حتى

=على دمشق عقب استيلاء السلطان المنصور قلاوون على السلطة ولقب نفسه بالملك العادل ودعي له على المنابر وسكة العملة باسمه إلا أن قلاوون قضى على حركته بقوة السلاح. للمزيد. انظر. ابن ايبك، **كنز الدرر**، ج8، ص236.. للمزيد انظر: الوقاد، محسن، ندوة دمشق في التاريخ، 2006، ج2، ص1.

(1) المصدر نفسه، ج8، ص93. حيث يوضح السلطان بيبرس انه يريد نائب ضعيف لدمشق.

(2) أبي الفداء، **المختصر**، ج2، ص326.

(3) أبي الفداء، **المختصر**، ج2، ص320. غوانمه، **التاريخ السياسي لشرق الأردن**، ص58.

(4) أبي الفداء، مصدر سابق، ص333.

انه قد يتعاون مع الأعداء للاستيلاء على دمشق[1].

ناهيك عن إرهاق الشعب وجمع الأموال بمختلف الطرق مما أدى إلى تحسين أوضاع المماليك الخاصة على حساب أهالي دمشق[2].

لقد كان لنواب دمشق دوراً هاماً في تعزيز قوة السلطان في القاهرة أو ضعفه[3] وربما كان للدور البارز الذي يلعبه نائب دمشق سبب رئيسي لتخلص سلطان القاهرة منه خوفاً على كرسيه[4].

إلا أن هناك مراحل معينة يبرز فيها دور قوي ومؤثر لدمشق لدى بعض النواب الذين سمحت لهم الظروف بالبقاء مدة طويلة في دمشق وهذا انعكاس لواقع سلطان القاهرة أيضاً فمتى كان سلطان القاهرة قوياً كانت الأوضاع في دمشق تسير للتحسن والاستقرار[5].

---

[1] تحالف نائب دمشق سيف الدين القفجاقي المنصوري مع التتار وهاجموا الشام ودخلوا دمشق واستباحوا حرمتها وقضى أهلها قرابة خمسة أعوام في حال صراع مع التتار الذين ضروا البلاد ونهبوا خيراتها. للمزيد انظر: أبوالفداء، **المختصر**، ج2، ص381. وانظر: دهمان، محمد احمد، **ولاة دمشق في عهد المماليك**، الطبعة الثانية دار الفكر، دمشق، ، 1404هـ/1984م. ص85. وسيشار له لاحقا: دهمان، ولاة دمشق.

[2] حول تردي أوضاع دمشق انظر الكتبي، محمد شاكر (ت764هـ/1362م) **عيون التواريخ**، تحقيق نبيلة عبدالمنعم، د.ط، مطبعة اسعد، بغداد، 1991 م، ج23، ص22، وسيشار له لاحقا: الكتبي عيون التواريخ.

[3] لمعرفة من تولى السلطة في القاهرة وكان نائب في دمشق انظر: ابن ايبك، **كنز الدرر**، ج8، ص365.

[4] عين السلطان المنصور قلاوون ستقر الأشقر نائب لدمشق ليصفو له الجو ويتولى السلطة في القاهرة. انظر: دهمان، **ولاة المماليك**، ص66.

[5] شهدت أوضاع دمشق تحسن كبير عندما تولها النائب سيف الدين تنكز فقد=

ولقد كان الدور الأبرز لدمشق سياسياً وعسكرياً أثناء سلطنة الظاهر بيبرس والذي جعل منها مقراً دائماً له بعد أن ثبت دعائم حكمه في القاهرة[1] فقد عمل على القضاء على الثورات الداخلية التي قامت ضده وعقد معاهدات سياسية وتحالفات مع القوى الإقليمية المعاصرة له وربما كان الهدف من تلك الاتفاقيات لكي يحيد تلك القوى ويكسبها لجانبة[2] كما استقبل الوفود والسفراء في دمشق[3] ومنها انطلق باتجاه الشرق حيث تمكن من الانتصار على المغول الذين نكثوا عهودهم معه واستطاع أن يبسط نفوذه وسلطانه على معظم أنحاء الشرق الإسلامي[4].

إن ماشهدته دمشق من اهتمام واضح من قبل سلاطين ربما كان مرده حرصاً منهم على أن لا تتكرر حوادث الانشقاق والخروج عن السلطة

=أمضى بها ما يزيد عن ربع قرن للمزيد انظر: دهمان، **ولاة دمشق**، ص156.

(1) سالم، السيد عبدالعزيز، **تاريخ الأيوبيين والمماليك**، د.ط، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997، ص238. وسيشار له لاحقا: سالم، تاريخ الأيوبيين والمماليك، وانظر العبادي، احمد، **قيام دولة المماليك الأولى**، د.ط، مؤسسة الشباب، الإسكندرية، 1982، ص177. وسيشار له لاحقا: العبادي، قيام دولة المماليك،

(2) تحالف الظاهر بيبرس مع الإمبراطور البيزنطي وعقد معه حلفا دفاعيا سنة660هـ/1262م وحالف تتار القفجاق أيضا. للمزيد انظر: عاشور الأيوبيون والمماليك، ص211. وانظر: العبادي، **قيام دولة المماليك**، ص202.

(3) جعل الظاهر بيبرس من دمشق شبه مقر دائم له واستقبل بها السفراء ومن الأمثلة على ذلك، سفراء التتار في دمشق سنة670هـ/1272م، المقريزي، **السلوك**، ج1 ق2، ص602.

(4) حول غزوات بيبرس المنطلقة من الشام انظر: أبي الفداء، **المختصر**، ج2، ص ص336- 340. وانظر: عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص216. وانظر: العبادي، **قيام دولة المماليك**، ص235.

المركزية في القاهرة فهؤلاء السلاطين الأقوياء استقبلت دمشق عهدهم بالانفصال عن المركز[1] ربما كان للاستقرار السياسي الذي تشهده القاهرة أثره الفعال في استقرار دمشق وبروز دورها الواضح في صناعة الأحداث السياسية على صعيد دولة المماليك فعندما تستقر أحوال السلطان ينطلق للإعمار والبناء وتحرير ما اغتصب من الديار الإسلامية وهذا ما يظهر من خلال الحملات التي انطلقت من دمشق لصد التتار على الجبهة الشرقية أو لتخليص السواحل الشامية من بقايا مخلفات الاحتلال الصليبي والذي تم على يد السلطان خليل بن قلاوون[2] وكان لاختلال الأوضاع في القاهرة أثره السيء والمدمر على دمشق وهذا ما كان واضحاً عندما دخل التتار دمشق في نهاية القرن السابع الهجري/الثالث عشر ميلادي وبمساعدة نائبها الأسبق حيث عاشت فترة مريرة من تاريخها وشهدت الخراب ونزوح السكان منها[3] وقد تكررت هذه الحادثة بعد نهاية حكم المماليك البحرية لها وبداية دولة المماليك البرجية فغزاها تيمور لنك وأحدث الخراب الشديد بها[4].

أوضاع دمشق الإدارية أثناء العهدين الأيوبي والمملوكي:

تعتبر النظم الإدارية في دمشق أثناء العهدين الأيوبي والمملوكي امتداد لإرث تاريخي طويل فدمشق مدينة عريقة كانت لها نظمها الإدارية التي لا

---

[1] تم الإشارة إلى استقلال نائب دمشق سنجر الحلبي زمن الظاهر بيبيرس والنائب سنقر الأشقر زمن السلطان المنصور قلاوون سابقا.

[2] ابن ايبك، **كنز الدرر**، ج8، ص313.

[3] أبي الفداء، **المختصر**، ج2، ص381. وانظر: دهمان، **ولاة دمشق**، ص ص 86- 114.

[4] طقوس، محمد سهيل، **تاريخ المماليك في مصر والشام**، الطبعة الثانية، دار النفائس، بيروت 1420هـ/1999م، ص426. وسيشار له لاحقا: طقوس، تاريخ المماليك.

يمكن تجاوزها بسهولة فقد أخذ كل من العهدين الأيوبي والمملوكي بعض من تلك النظم القديمة وإن غلبت النظم الإدارية السلجوقية عليها[1] فقد نشأ صلاح الدين الأيوبي مؤسس الدولة الأيوبية في كنف ورعاية الزنكيين وتولى دمشق[2] وكذلك كان وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد في مصر[3] فقد خبر الإدارة وتمرس بها وربما ساعدته هذه الخبرات على ترتيب أوضاعه الإدارية لاحقاً في دولته والتي شملت مصر والشام وكانت دمشق مقراً لحكمه[4] سار

---

[1] يقول القلقشندي: واعلم أن الدولة الأيوبية لما طرأت على الدولة الفاطمية وخلفتها في الديار المصرية خالفتها في كثير من تراتب الملك وغيرت غالب معالمها وجرت على ما كانت عليه الدولة الاتابكية عماد الدين زنكي بالموصل ثم ولده الملك العادل نور الدين محمود بالشام وما معه. للمزيد انظر: القلقشندي، أحمد بن علي (ت821هـ/1418م) **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، دار الكتب الخديوية، القاهرة 1332هـ/1914م، ص5. وسيشار له لاحقا: القلقشندي، صبح الأعشى.

[2] تولى صلاح الدين الأيوبي شحنكية دمشق سنة 550هـ/ 1155 م)، ابن كثير، البداية والنهاية، مج6، ج12 ص314 والشحنكية تعني متولي الشرطة أوقاندها. انظر: دهمان، محمد أحمد، **معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي**، طبعة أولى، دار الفكر، دمشق، 1410هـ/1990م، ص96. وسيشار له لاحقا: دهمان، معجم الألفاظ، التاريخية، انظر، مصطفى، **صلاح الدين المفترى عليه**، ص67.

[3] ابن جبير، **الرحلة**، ص 17. وانظر: ابن الأثير، **الكامل**، ج9، ص223. وانظر: أبو جابر، **صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس**، ص101. قاسم، **الأيوبيون والمماليك**، ص28.

[4] الباشا، حسن، **الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق**، ط2، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، 1409 هـ1989م، ص 76. وسيشار له لاحقا: الباشا، الألقاب الإسلامية، وانظر: محمود التكريتي، **البعد الاجتماعي الحضاري لسياسة صلاح الدين**، مجلة المؤرخ العربي، بغداد، العدد (49)، 1415 هـ 1995م، ص162،. وسيشار=

صلاح الدين على نهج أسلافه الزنكيين فسلم إدارة المدن والقلاع الأيوبية إلى من يثق به من أفراد أسرته وأمراءه الآخرين مقابل تقديم الجند والإمدادات العسكرية في وقت الحرب. وقد ربطهم به مباشرة فمارس سياسة مركزية مع ولاته في مختلف أنحاء دولته[1].

ولم يحدث المماليك أي تأثير كبير على النظم الأيوبية[2]، إلا أن ما يميز دمشق في العهد الأيوبي عن العهد المملوكي أنها كانت تسمى مملكة دمشق في معظم الأحيان حيث يستقل بها أحد أفراد الأسرة الأيوبية ويعلن نفسه ملكاً بدمشق. انتهج الأيوبيون سياسة صلاح الدين التي اختطها لهم في توزيع مملكته بين أبنائه عادت دمشق في فترة حكم الملك العادل إلى حظيرة الدولة الأيوبية وأصبحت تابعة للقاهرة وعين لها الملك العادل ابنه الملك المعظم عيسى كنائب له والذي استقل بدوره عن سلطان القاهرة بعد وفاة أبيه ومع وجود ملك في دمشق إلا أنه كان يعين لها نائب أيضاً أما في العهد المملوكي فقد أصبحت نيابة تابعة للقاهرة مركز الحكم المملوكي وكانت أهم نيابات الدولة المملوكية.

قسمت الوظائف الإدارية الأيوبية والمملوكية إلى ثلاثة أقسام حسب ما

=له لاحقا: التكريتي، البعد الاجتماعي السياسي لصلاح الدين.

[1] التكريتي، المرجع نفسه ونفس الصفحة، انظر: عاشور، **الأيوبيون والمماليك**، ص73. وانظر: عاشور، **نظم الحكم والإدارة في عصر الايوبين والمماليك**، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1995، ص344. وسيشار له لاحقا :عاشور، نظم الحكم والإدارة.

[2] ابن الطوير، أبو محمد المرتفي عبدالسلام بن الحسن (ت617هـ/1220م) **نزهة المقلتين في أخبار الدولتين**، تحقيق: أيمن فؤاد السيد، ط 1، فرانتش تاينز، بيروت، 1412 هـ/1992م، ص54، وسيشار له: اين الطوير، نزهة المقلتين.

أورده القلقشندي[1] وهي كالآتي:

أولا: وظائف أرباب السيوف "الوظائف العسكرية".

ثانيا: الوظائف الديوانية "الأقلام".

ثالثا: الوظائف الدينية "أرباب العلم".

وسيتم التعرض لهذه الوظائف بشيء من الاختصار.

وظائف أرباب السيوف:

السلطان أو الملك: ويطلق لقب السلطان على من يحكم مصر والشام وقد استحدث الأيوبيون هذا اللقب واتخذ بعد ذلك لقباً رسمياً للحاكم الأعلى للدولة بشقيها مصر والشام طوال عصر الأيوبيين والمماليك وأصبح مفهوم السلطان يعني التمتع بالقوة والصلاحيات المطلقة في الدولة أما لقب الملك فقد أطلق على الحكام من بني أيوب والذين حكموا دمشق والعديد من المدن[2] وكانت مهام الملك والسلطان الأساسية النظر في كافة الشؤون الدينية والدنيوية والجنود وبيت المال[3].

---

[1] القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج4، ص17.

[2] لويس، برنارد، **لغة السياسة في الإسلام**، ترجمة، إبراهيم شتا، ط1، دار قرطبة للنشر والتوثيق، 1993، ص 83. وسيشار له لاحقا: لويس، لغة السياسة. وانظر عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص110 وص118. وانظر عاشور، نظام الحكم والإدارة، ص 345. وانظر: الباشا، **الألقاب الإسلامي**ة، ص82.

[3] السبكي، تاج الدين عبدالوهاب (ت771هـ/1369م) **معيد النعم ومبيد النقم**، تحقيق: محمد علي النجار وآخرون، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1413هـ/1993م، ص17- 18. وسيشار له لاحقا: السبكي، معيد النعم. وانظر ابن طولون، شمس الدين محمد (ت953هـ/1546) **نقد الطالب لزغل المناصب**، تحقيق: محمد دهمان وآخرون، الطبعة1، دار الفكر، بيروت، 1412هـ/1992م، ص28. وسيشار له لاحقا:=

النائب أو الوالي: كان لدمشق نائب مكلف بأمرها عين من قبل الأيوبيين وتشمل نيابة القلعة أيضاً إلا أن المماليك خالفوا ذلك وعينوا والي مستقل للقلعة[1] وقد كان يطلق لقب الوالي على النائب في معظم الأحيان[2] وقد تمتع نائب دمشق بصلاحيات كثيرة[3] وكان يتم اختياره بدقة من قبل السلطان[4] ويبرز دور النائب بشكل واضح في أحداث المدينة الداخلية والخارجية عندما يكون تابع لسلطان القاهرة[5] أما عندما يكون الملك مقيماً في دمشق فكان ذلك يحد من صلاحياته[6] وقد لعب نائب دمشق أثناء العهد المملوكي دوراً بارزاً في الأحداث الداخلية والخارجية فحاول بعضهم

=ابن طولون، نقد الطالب.

(1) حول فصل نائب دمشق عن والي القلعة في العهد المملوكي. انظر:العيني، بدر الدين محمود (ت855هـ/1451م) **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية، ط بلا، 1407هـ/1987م، ص291. وسيشار له لاحقا: العيني، عقد الجمان.

(2) السبكي، **معيد النعم**، ص43.

(3) حول صلاحيات نائب دمشق أيام الأيوبيين. انظر: العماد الأصفهاني، **سنا البرق الشامي**، ج5، ص76.

(4) حول توليه وشروط تعيين النائب لدمشق. انظر: العماد الأصفهاني، **سنا البرق الشامي**، ج5، ص75.

(5) ابن شداد ، **الأعلاف الخضيرة**، ج2، ق1.ص22

(6) عزل الملك المعظم عيسى نائب دمشق الأمير مبارز الدين المعتمد إبراهيم نظرا لاستقلاله بالولاية في عهد والده السلطان العادل. للمزيد انظر: أبو شامة، شهاب الدين أبي محمد (ت665هـ/1267م، **تراجم القرنين السادس والسابع**، مراجعة :عزت العطار الحسيني، ط2، دار الجليل، بيروت، 1974.ص134. سيشار له لاحقا: ابوشامة، تراجم القرنين.

الاستقلال بنيابة دمشق عن مركز الدولة في القاهرة[1] وربما كان لهذه الأحداث أثرها الواضح في تعيين والٍ مستقل لقلعة دمشق عن النائب ليساهم في إحباط محاولات نواب السلطنة في دمشق بالاستقلال عن سلطة القاهرة.

الأتابك: وقد تم الإشارة إلى تعريفه سابقاً وهو من يقوم بتربية أولاد الملوك[2] وهو من أكابر الأمراء[3] وقد بقيت الاتابكية منتشرة في العهد الأيوبي والمملوكي وممن تولاها في العهد الأيوبي الملك العادل حيث كان اتابك العزيز عثمان صاحب مصر في عهد صلاح الدين عام 582هـ/1186م[4] ومن تولاها في العهد المملوكي الاتابكية سيف الدين قلاوون حيث كان اتابك سلامش ابن الظاهر بيبرس[5].

الحاجب[6]: أصبحت هذه الوظيفة من الوظائف الهامة في العصر الأيوبي والمملوكي وكان للحاجب دور مهم ومؤثر في هذه الفترة حيث طلب السلطان العادل سنة 593هـ/1196م من حاجب الملك عبدالعزيز عثمان الأمير سيف الدين يازكوج الأسدي[7] إعطاء دمشق لابنه المعظم عيسى[8].

---

[1] تم التطرق لمحاولة نائب دمشق الاستقلال بها عن الدولة المملوكية سابقا في الأوضاع السياسية لدمشق أثناء العهد المملوكي.

[2] ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج1، ص365. وقد أصبح يطلق لقب الاتابكية على اتابك العسكر في العهد المملوكي للمزيد انظر: **القلقشندي**، ج4، ص18.

[3] القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج4، ص17.

[4] المقريزي، **السلوك**، ج1، ص1، ص92.

[5] اليافعي، **مرآة الجنان وعبرة اليقظان**، ج4، ص142.

[6] القلقشندي، ج4، ص20.

[7] المقريزي، **السلوك**، ج1، ق1، ص135.

[8] أبو شامة، **تراجم رجال القرنين السادس والسابع**، ص125.

أمير جاندرا[1]: وهذا منصب يشغله أحد كبار الأمراء فيطلب الأذن للأمراء بالدخول على الحاكم ويدخل قبلهم ومن الوظائف أيضاً الاستاذدار أو الاستادار[2] وهو يعنى بالأمور الإدارية لبيت السلطان من مأكل ومشرب وملبس وتنفيذ أوامر السلطان الخاصة[3].

وهناك أيضاً وظيفة أمير الحج وكان يتولاها أمير من الأمراء المقربين للسلطان ويكون ذا رأي وشجاعة وممن تولاها في عهد صلاح الدين الأيوبي الأمير شمس الدين بن المقدم سنة 583هـ/1187م، وقتل يوم عرفة[4] ومن الوظائف أيضاً الشحنة وهي مجموعة تمثل شرطة المدينة[5] ووظيفة الدوادر وهو من يبلغ الرسائل عن السلطان ويأخذ خطه على عموم المناشير والتواقيع ويبلغ السلطان بما يدور من أحداث[6].

---

[1] وهو بمثابة الحرص الخاص في وقتنا الحاضر وكان المراد به الحافظ على حياة السلطان. للمزيد انظر: القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج5، ص433.

[2] يتحكم في إقطاع الأمير مع الدواوين والفلاحين وغيرهم.للمزيد انظر: السبكي، **معيد النعم ومبيد النقم**، ص26.

[3] القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج4، ص21.

[4] ابن الأثير، **الكامل**، ج9، ص405.

[5] دهمان، **معجم الألفاظ التركية**، ص96.

[6] القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج4، ص20، وانظر: ابن طولون، **نقد الطالب**، ص59. وقد تطورت هذه الوظيفة في عهد الظاهر بيبرس. للمزيد انظر: ابن تغري بردي، جمال الدين ابي المحاسن يوسف، (ت874هـ 1469م) **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، تقديم وتعليق: محمد حسين شمس الدين، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413هـ1992م، ج7، ص164. سيشار له لاحقا : ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة.

ومن الوظائف أيضا الساقي وهو من يقوم بتجهيز مائدة السلطان وتقديم المشروب بعد الأكل[1].

الوظائف الديوانية ومن هذه الوظائف:

الوزارة: وقد تراجعت مكانتها في العهد المملوكي وقد شغل هذا المنصب العديد من الوزراء للأيوبيين والمماليك وأن اختلفت طبيعة الوزارة عما كانت عليه سابقاً[2] وقد نبه فقهاء ذلك العصر إلى أهمية الوزارة وضرورة محافظة الوزير على أمور الملك وحل أثقالها وأوزارها[3] وقد اتخذ صلاح الدين الأيوبي القاضي الفاضل وزيراً له[4] واتخذ الظاهر بيبرس وزيراً له[5].

ديوان الإنشاء: وقد كان لهذا الديوان أهمية خاصة ووظيفة من المراتب العالية ومن يتوله يقوم بقراءة الرسائل والكتب الواردة للسلطان ويعلن المراسم الصادرة عنه ويطلع على شكاوي العامة[6] ويتولى هذا الديوان يجب

---

[1] السبكي، **معيد النعم ومبيد النقم**، ص38. وانظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص427.

[2] ويذكر السبكي أن واجب الوزير تحول إلى مسؤول عن تحصيل الأموال. للمزيد انظر: السبكي، **معيد النعم ومبيد النقم**، ص27. وحول تراجع دور الوزير. انظر عاشور، **الأيوبيون والمماليك**، ص157.

[3] الظاهري، غرس الدين خليل (ت873هـ/1467م) **زبدة كشف الممالك وبيان طرق المسالك**، تحقيق: بولس راويس، اريس، 1892، ص.93.سيشار له لاحقا: الظاهري، زبدة كشف الممالك.

[4] ابن كثير، **البداية والنهاية**، مج7، ج13، ص32.

[5] استوزر الملك الظاهر الصاحب بهاء الدين علي بن محمد بن سليم بن حنا. للمزيد حول ذلك انظر:ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج7، ص160.

[6] أبي طولون، **نقد الطالب**، ص73.

أن يكون فصيحاً طلق اللسان[1].

ومن الوظائف أيضاً "**المستوفي**" وصاحبها يطالب المستخدمين بما يجب عليهم دفعه من الحساب في أوقاته[2] وكذلك "**متولي الخزانة**" وغالباً ما يكون من القضاة[3] و"**ناظر الديوان**" حيث يتولى الإشراف على المستخدمين والولاة والنظار والعاملين بالديوان[4] و"**ناظر الجيش**" الذي يقوم بإثبات سجلات المستخدمين من الجند وعطائهم[5].

الوظائف الدينية:

من هذه الوظائف **ولاية المظالم**: وكان واجبها إيقاف المتظلمين[6] ومن الوظائف أيضاً **قاضي العسكر**: الذي يقوم بالفصل بين الجند ويتحدث في أحكام الغنائم والقسمة والمبيعات والمخاصمات[7] ومن الوظائف أيضاً

---

(1) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج1، ص139.

(2) ابن مماتي، أسعد بن المهذب (ت606هـ/1209م) **قوانين الدواوين**، تحقيق عزيز سوريال، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1421هـ/1991م، ص301. وسيشار له لاحقا: ابن مماتي، قوانين الدواوين.

(3) القلقشندى، **صبح الأعشى**، ج4، ص34.

(4) ابن مماتي، **قوانين الدواوين**، ص298. وانظر السبكي، **معيد النعم**، ص29، وص 64.

(5) السبكي، معيد النعم، ص33.

(6) حول ولاية الظالم انظر، الماوردي، أبى الحسن علي بن محمد (450هـ/ 1058 م) **الأحكام السلطانية**، تحقيق: أحمد مبارك البغدادي، ط1، دار ابن قتيبة، الكويت، 1141هـ/1989م، ص102. وسيشار له لاحقا: الماوردي، الأحكام السلطانية.

(7) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج4، ص37، وانظر: زيادة، دمشق في عصر المماليك، ص119 الماوردي، **الأحكام السلطانية**، ص ص 88 - 90.

قاضي القضاة: وكان من مهامه التحدث في الأحكام الشرعية وتنفيذها وإقامة الحدود والفصل بين الخصوم وتعيين نواب[1] وقد أصبح في العهد المملوكي لكل مذهب من المذاهب قاضي خاص به[2] ومن الوظائف أيضاً **الحسبة**: وهي من الوظائف المهمة المتعلقة بأحكام الشرع وموضعها التحدث بالأمر المعروف والنهي عن المنكر[3] ومن الوظائف أيضا وظيفة **وكيل بيت المال**: وموضوعها التحدث فيما يتعلق بمبيعات بيت المال ومشترياته[4].

ومن الوظائف أيضاً **الخطابة**: حيث كان لخطيب المسجد الأموي مكانة خاصة وكان الملك أو نائب السلطنة من يعين خطيب المسجد الأموي[5] ومن الوظائف أيضاً **مشيخة الشيوخ**: ومهمتها الإشراف على الخوانق الخوانق والربط والزوايا والعناية بها بما تحتاجه تلك الأماكن من عناية خاصة سيما وأن راودها من الفقراء والغرباء في أكثر الأحيان[6].

يتضح أن النظام الإداري في دمشق للأيوبيين والمماليك هو امتداد للنظام الإداري السلجوقي والزنكي مع ما أحدثه من التطوير حسب متطلبات

---

[1] ابن الطوير، **نزهة المقلتين**، ص107. وانظر: القلقتندي، **صبح الأعشى**، ج4، ص36.

[2] من الأمور التي استخدمها الظاهر بيبرس تعيين قاضي لكل مذهب من المذاهب الأربعة فعين قاضي حنفي وشافعي وحنبلي ومالكي. للمزيد انظر:ابن بطوطة، تحفة النظار، ص115.

[3] الشيزري، عبدالرحمن بن نصر، (ت589هـ/1193م) تحقيق، الباز العريني، ط 1، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1365هـ/1946م، ص6. سيشار له لاحقا: الشيزري، الحسبة.

[4] السبكي، **معيد النعم**، ص65. وانظر: ابن الطوير، **نزهة المقلتين**، ص117.

[5] السبكي، **معيد النعم**، ص112.

[6] القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج4، ص99.

عصرهم ومن هذه الوظائف والتي تطورت بشكل ملحوظ وظيفة **النائب**: الذي تمتع بصلاحيات رائعة في العهدين الأيوبي والمملوكي ومن هذه الصلاحيات تعيين الجند وضبط الأمن الداخلي وحفظ المدينة من العدوان الخارجي والمشاركة في تحرير البلاد الإسلامية من بقايا الصليبيين.

ثم ظهرت بعد ذلك وظائف جديدة مثل وظيفة **الدوادر**[1] والذي يقوم بمهام شبيهة بمهام رئيس الديوان في وقتنا الحاضر بالإضافة إلى ظهور عمالقة في ديوان الإنشاء والذين كان لهم الأثر العظيم في تطور الجهاز الإداري كذلك تطورت صلاحيات في معظم الأمور الدينية والاجتماعية والعمرانية.

لقد تطور جهاز القضاء أيضاً بشكل واضح فمنح القضاء الاستقلالية في العهد الأيوبي واستحداث قاضياً لكل مذهب في العصر المملوكي حيث عاش في دمشق أثناء تلك الفترة خليط اجتماعي من مختلف الأقطار الإسلامية والذي كان له الأثرالواضح في تطور المدينة أيضاً.

---

(1) استحدث في العهد المملوكي بعض الوظائف للمزيد حول ذلك انظر:ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج7، ص164.

الفصل الرابع

دمشق كما شاهدها الرحالة

تمهيد:

تعتبر دمشق من أقدم المدن المأهولة في العالم إن لم تكن أقدمها وقد كانت لطبيعتها الجغرافية اثر واضح في رسم معالمها الحضارية والتي توقف عندها العديد ممن زاروا دمشق في هذه المرحلة، فنجد أن وصف البناء في دمشق قد يكون مشتركاً في الغالب بينهم، فمكونات البناء من البيئة المحلية وبالذات الطين والخشب وهي المواد المتوفرة في دمشق وقد أخذ أهالي دمشق في التوسع العامودي في البناء داخل سور المدينة نظراً لضيقها فبنيت البيوت من ثلاث طبقات بعضها فوق بعض[1] وكان عمارها متشابكاً ومتصلاً من جميع جوانبه[2] وزينت مبانيها بالرخام وذهبت سقوفها وبرك الماء في ساحاتها، ويجري الماء في الدار في أماكن عدة، وأغلبية بيوتها واسعة من الداخل، مبنية من الخشب والحجر والأجر مضبب بين مداميك البناء بالخشب الملبن، نظراً لميزة خشبها الخاص المعروف بالحور، والذي إن انكسر يبقى مدة طويلة من الزمن قبل أن يسقط، مما يعطي أهل البيت متسعاً من الوقت لتدارك الموقف[3].

أما حدائق دمشق وبساتينها ومياهها فقد كانت محط اهتمام جميع من تحدث عنها، وحتى قيل ما من شيء تحتاجه من صغير الأمور وعظيمها إلا وجد بها[4] أما هندسة البناء وتصميم مسجدها فكانت مثار دهشة وإعجاب المتحدثين عنها، فقد تحدثوا عن عجائب المسجد من قبته إلى أعمدته

---

[1] ابن جبير، **الرحلة**، ص255. وانظر، الحموي، **معجم البلدان**، ج2، ص496.

[2] القزويني، **آثار البلاد**، ص189.

[3] المنجد، **دمشق في مسالك الأبصار**، ص121.

[4] الحموي، **معجم البلدان**، ج2، ص465، ابن جبير، **الرحلة**، ص248.

ومقصوراته وأروقته ومشاهده المباركة، التي لا يمكن الحديث عنها بشكل مفصل، نظراً لأن موضوع الدراسة يتعلق بدمشق عامة[1]. ويشير بعض الباحثين إلى أن معالم مخطط دمشق بدأت بالزوال في العصرين العباسي (132هـ/750م) (358هـ/968م) والفاطمي (358هـ/968م) (468هـ/1075م)، وأفل نجم دمشق مؤقتاً بانتقال عاصمة الخلافة إلى بغداد.

وكان لعنف الجيوش العباسية، وإهمال العباسيين للمدينة، واندلاع الثورات أيام الإخشيديين والفاطميين آثاراً سيئة، أهمها تقلص عدد سكان المدينة من نصف مليون إلى ثلاثة آلاف عام (468هـ/1075م)، بعد أن أفناهم الفقر والغلاء والهجرة، ويكفي للدلالة على ذلك، وباللغة الأقرب إلى الفهم اليوم، أن الدار التي تقدر بثلاثة آلاف دينار أصبحت تباع بعشرة دنانير، وقد لا يشتريها أحد[2].

وفي هذا العصر ازداد تعرج الشوارع والأزقة، نتيجة لانتشار الفوضى وعدم الطمأنينة، وانقسام المدينة إلى أحياء ذات مظهر انعزالي.

وعندما وصل نورالدين زنكي إلى دمشق عام 549هـ/1154م، وخلال عهد السلاجقة والأتابكة الممتد ما بين عام 468هـ/1075م إلى عام 570هـ/1174م، عادت الحركة المعمارية إلى الانتعاش، وإلى هذا العصر يعود بناء قلعة دمشق، والكثير من المدارس ودور العلم، وأعيد بناء السور ورممت الأبواب، وبني البيمارستان النوري دار العدل وحمام البزورية.

---

[1] حول الحديث عن مسجد دمشق انظر رحلة ابن جبير، وانظر رحلة ابن بطوطة، وانظر الحموي، معجم البلدان، والكثير من المصادر الجغرافية لتلك الفترة حيث افردت ابواب خاصة للحديث عن المسجد.

[2] زكار، **الموسوعة الشامية**، ج1، ص152..

وفي هذا العصر نشأت بلدة الصالحية إثر هجرة اللاجئين المقدسيين، وعلى رأسهم أحمد بن محمد بن قدامه إلى دمشق، وفي هذا العصر أيضاً نشأ حي العقيبة أيضاً.

ويصعب تعداد ما قدمته النهضة العمرانية والمعمارية في عهد الأيوبيين (1174- 1259م) (570- 658هـ)، وبخاصة أيام صلاح الدين الأيوبي، فقد اتسعت الصالحية، وظهرت أحياء الميدان والقبيبات والسويقة، ومحلة البتروزي.

وفي عصر المماليك (1259- 1516م) (658- 922هـ) شهدت دمشق تزايداً جديداً في عدد سكانها، ونشأت أحياء جديدة منها حي سوق ساروجة، وغيره من الأحياء التي يدل على توسعها خارج السور تشييد العديد من الجوامع في باب توما وباب السلام والعقيبة والسنجقدار وباب السريجة والميدان[1].

شهدت دمشق خلال المرحلة التي يتم البحث بها ازدهاراً وتقدماً فاق مثيلاتها من المدن في العالم الإسلامي والأوروبي أيضاً، وشمل هذا ازدهار المدينة داخل السور وخارجه وضواحيها أيضاً.

وقد أشار الرحالة الذين زاروا دمشق في تلك الفترة لذلك وأسهبوا في وصف المدينة والحياة فيها، حيث تركوا روايات كثيرة عن مشاهداتهم، تعطينا صورة جلية وحية لدمشق وأسواقها وشوارعها ومدارسها ومتاجرها ومزاراتها ومقابرها.

---

[1] أحمد الغفري، **التنظيم العمراني في دمشق عبر العصور**، في دمشق أقدم مدينة في التاريخ، تحرير نجاة قصاب، ندوة آذار الفكرية في مكتبة الأسد، دمشق، سورية، 1991. ص ص 77- 85. سيشار له لاحقا: الغفري: التنظيم العمراني.

يقول الإدريسي: في وصف دمشق أنها من أجلّ بلاد الشام وأحسنها مكاناً وافرة العتاد والعدة كثيرة الجند وبها ضياع كالمدن يكون في واحدة من هذه الضياع من ألفي إلى ألف رجل قد يزيدوا أو ينقصوا قليلاً[1].

أما ابن جبير فصنف دمشق على أنها جنة الشرق ومطلع حسنة المشرق وعروس المدن التي زارها ويصل به الإعجاب بدمشق إلى القول إن كانت الجنة بالأرض فدمشق لا شك فيها وإن كانت بالسماء فهي بحيث تساميها وتحاذيها ويصف ازدحام السكان بدمشق بقوله إن دمشق يسكنها من البشر ما يعادل سكان ثلاث مدن[2].

ونجد ياقوت الحموي يصف دمشق بقوله: إن المساكن بها عزيزة لكثرة أهلها والساكنين بها[3].

وقد أشار الرحالة الأوروبيين الذين زاروا دمشق إلى ذلك فيقول Nicola of poggibonsi أن مدينة دمشق على درجة كبيرة من العظم ولا يمكن مقارنتها بالمدن الأخرى، وأن عدد سكانها يفوق عدد سكان باريس[4].

أما frescabaldi وآخرون فيذكر أن مدينة دمشق ضخمة، وأن لها ضواحي عدد سكان ضواحيها يفوق عدد سكان المدينة نفسها، ويقدر عدد الحجيج الذين يغادرون دمشق لأداء فريضة الحج حوالي عشرين ألفاً ومع ذلك فلا يظهر أي اثر في نقص سكان المدينة، لا يتغير على كثافة الشوارع

---

[1] الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ص366.

[2] ابن جبير، **الرحلة**، ص234.

[3] الحموي، **معجم البلدان**، ج2، ص465.

[4]- **A voyage beyond the seas**, Jerusalem, 1945, Nicola of poggibonsim سيشار له A voyage beyond the seas : لاحقا

شيء، وبها من البشر ما يبلغ ثلاثة أضعاف سكان فلورنسا[1].

أما Luodelf Deskome فيذكر أن مدينة دمشق فائقة الجمال وغنية بجميع أنواع البضائع وبهيجة في كل مكان وهي مكتظة السكان فوق التصور[2] إن تتبع مسار الرحالة وما قدموه من وصف دقيق ومشاهدة تنبض بالحياة لدمشق، يرسم لنا صورة واضحة عن معالم المدينة البارزة والتي توقف عندها معظم الرحالة، ابتداء من أبوابها وأسوارها وقلعتها ومساجدها ومدارسها وضواحيها ومقابرها ومزاراتها وسيتم التطرق لهذه المعالم بشيء من التفصيل كما وردت لديهم.

الأبواب:

اختلفت روايات الرحالة حول أبواب دمشق وأعدادها إلا أننا سنذكر ما أوردوه ونلاحظ ما تم الإجماع عليه من قبلهم.

فيذكر الإدريسي من أبواب دمشق باب الجابية وباب توما وباب السلامة وباب الفراديس والباب الصغير[3].

أما أبو حامد الغرناطي فيذكر أثناء حديثه عن دمشق باب الفراديس فقط وربما ذكره ليذكر حكاية قابيل وهابيل[4] ويذكر السائح الهروي في

---

[1] Frescobal Gucci and sigole, **visit to the Holly places of Egypt Senal, Palestine and Syria in 1384 by** ,p.143,Jerasalem,1949, : وسيشار له لاحقا "Visit to the Holy Places" ☐

[2] زكار، سهيل، **الموسوعة الشاملة، تاريخ الحروب الصليبية**، ج37، رحلات غريبة، ط1، دمشق 1420هـ/1999م، ص382. وسيشار له لاحقا زكار، موسوعة الحروب الصليبية.

[3] الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، ص368.

[4] الايبش، **دمشق الشام في نصوص الرحالين والجغرافيين والبلدانيين العرب=**

معرض حديثه عن مزارات دمشق باب الصغير وما حوله من قبور وكذلك يذكر باب الفراديس وأن به مشهد الحسين[1].

أما ابن جبير فيذكر أن لدمشق ثمانية أبواب هي باب شرقي وباب توما وباب السلامة وباب الفراديس وباب الفرج وباب النصر وباب الجابية وباب الصغير وإن كان قد ذكر باب الفراديس والجابية بشيء من التفصيل في إشارة لما حولها من مزارات[2].

وهناك قول في أبوابها أن كل باب منها يختص بكوكب معين فالباب الشرقي للشمس وباب توما للزهرة والباب الصغير للمشتري وباب كيسان لزحل وباب السلامة للقمر وباب الفراديس لعطارد وباب الجابية للمريخ[3] إلا أن هناك رواية أخرى ترى أن الباب الصغير سمي بذلك لأنه اصغر أبوابها وباب كيسان منسوب لكيسان مولى معاوية وباب توما ينسب إلى عظيم من الروم اسمه توما وباب الفراديس منسوب إلى محلة كانت ظاهرة يقال لها الفراديس وباب الفرج فتحه نورالدين محمود زنكي تفاؤلاً بما فتح الله عليه وباب الجابية منسوب إلى قرية الجابية[4].

ويذكر ابن بطوطة أن للمدينة ثمانية أبواب يتحدث عن قسم منها باب الفراديس والجابية والباب الصغير وباب شرقي[5].

=**والمسلمين**، ج1، ص265.

[1] الهروي، **الإشارات إلى معرفة الزيارات**، ص22.

[2] ابن جبير، **الرحلة**، ص254.

[3] ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ج1، ص15.

[4] ابن الجوزي، **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، السفر الأول**، ص72.

[5] ابن بطوطة، **الرحلة**، ص115. انظر جدول ابواب دمشق المذكورة في كتب الرحلات=

وربما كان السبب في التفاوت عند ذكر الابواب مرده الفارق الزمني بين الرحالة وربما كان لازدياد السكان والتوسع خارج السور دور في ازدياد عدد أبواب دمشق أو فتح ما كان مغلق منها.

سور دمشق:

تشير معظم كتب الرحلات والجغرافيا الإسلامية إلى سور دمشق إشارة يقصد منها ربما معرفة أن المدينة محاطة بسور للدفاع عنها لكن لا نجد تفاصيل كافية عن السور كما نجدها عند الرحالة الأوروبيين الذين زاروا دمشق، فالحموي يذكر أن هناك أرباض واسعة تحيط بسور المدينة[1] وابن فضل الله العمري يذكر أن السور يحيط بالمدينة والقلعة ويحيط بالسور أيضاً خندق يملأ بالماء أذا دعت الحاجة للدفاع عن المدينة[2].

يذكر القزويني أن دمشق مدينة عظيمة وحصينة ذات سور وخندق[3] أما الحميري فيذكر أن سور دمشق مكون من التراب[4] إلا أن الرحالة الأوروبيون أسهموا في وصف السور فقد ذكروا أن لدمشق سورين يحيطان بالمدينة تفرق بينهما مسافة من 15- 16 ذراع يرتفع السور الأول حوالي 30 ذراع فيما يزيد عنه السور الداخلي بالارتفاع مقدار عشرة أذرع فيصبح ارتفاعه 40

=ص146.

[1] الحموي، **معجم البلدان**، ج2، ص465.

[2] المنجد، صلاح الدين، **وصف دمشق في مسالك الأبصار**، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الثالث، ج1، شوال1367 مايو1957، ص113، وسيشار له لاحقا، المنجد، وصف دمشق في مسالك الأبصار.

[3] القزويني، **أثار البلاد وأخبار العباد**، ص189.

[4] الحميري، **الروض المعطار**، ص237. انظر مخطط السور والابواب ص178.

ذراع وبينهما خندق كبير والسور محصن بشكل قوي حيث بني عليه الأبراج المرتفعة لمراقبة مداخل المدينة[1] والمسافة بين البرج والآخر تقدر بخمسة وعشرون ذراع ويقوم بحراستها والدفاع عنها رجال معينين لهذا الواجب تحديداً ويكون تواجدهم على الأبراج وحول سور المدينة[2].

قلعة دمشق:

وصف الرحالة قلعة دمشق بشيء من التفصيل نظراً لأهميتها العسكرية والسياسية، فهي مقر السلطان ومركز دفاعي منيع.

يقول ابن جبير :لهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان منحازة في الجهة الغربية من البلد وهي بإزاء باب الفرج من أبواب البلد وبها جامع السلطان[3].

ويصف ابن فضل الله العمري القلعة بقوله أما قلعتها مرجله على الأرض يحيط بها وبالمدينة أسوار عالية وخندق يطوف الماء منه بالقلعة وإن دعت الحاجة أطلق على جميع الخنادق المحيطة بالمدينة فيعمهما[4].

أما الرحالة الأوروبيين فقد تركت قلعة دمشق أثراً كبيراً في نفوسهم حيث يذكر الرحالة Nicola of poggibons والذي زار دمشق في منتصف القرن الثامن الهجري/الرابع عشر للميلاد القلعة بقوله يوجد في نهاية المدينة قلعة قوية وبها جسر يدخل في النهر ومكلف بحراستها أعوان السلطان[5].

أما الرحالة Frescobalioi والذي زار دمشق في عام 786هـ/1384م،

---

(1) **Visit to the holy places** ,p181

(2) **Visit to the holy places** ,p142

(3) ابن جبير، **الرحلة**، ص261.

(4) المنجد، **دمشق في مسالك الأبصار**، ص121

(5) **A voyage beyond the seas** , p77

فيقول واصفاً القلعة داخل دمشق توجد قلعة جميلة مبنية من الحجارة وعليها الكثير من الأبراج وجدرانها شديدة الارتفاع ويجري بالقرب منها جداول مياه ويوجد بها حوالي خمسين منزلاً وشكلها دائري[1].

ووصف البدري القلعة بقوله أن من محاسن الشام قلعتها وحسن بنائها واتساعها ويوجد حمام وطاحونة وبعض الحوانيت لبيع البضائع وبها دار الضرب التي تضرب بها النقود وبها الدور وبها الحواصل وبها الطارمة التي ليس على وجه الأرض أحسن منها جدد بناء القلعة زمن الظاهر بيبرس 658هـ/1260م حيث رمم ما هدم منها على يد التتار ثم جاء بعده نائب السلطنة علم الدين سنجر عام 690هـ/1291م أيام السلطان الأشرف خليل بن قلاوون 689هـ/1290م فجدد القلعة وجددت أيضاً أيام الملك الناصر بن قلاوون 709هـ/1309م[2].

الميادين:

تشير معظم المصادر إلى وجود ميدانين عامين في دمشق، أحدهما في الجنوب من المدينة وهو ميدان الحصى والآخر في غرب المدينة ويعرف بالميدان الأخضر أو المرج الأخضر.

ومن خلال التسمية نستطيع أن نحدد طبيعة هذين الميدانين فنجد أن ميدان الحصى أرضيته مفروشة بالحصى أما الميدان الأخضر دليل على خضرة الأرض وكثرة الأشجار الموجودة في هذا المكان.

ويتضح من خلال أرضية تلك الميادين والإشارات المتوفرة في كتب الرحلات أن لكل من هذه الميادين استخدام خاص به.

---

(1) **Visit to the holy places**, p182

(2) البدري، **نزهة الأنام في محاسن الشام**، ص35.

فقد أشار الوهراني في مناماته إلى الميدان الأخضر وأن الناس كانوا يتواجدون في هذا المكان في أيام السبوتات ويوم السبت كان يوم عطلة للدمشقيين وهذا يشير إلى أنه مكان تنزه لهم[1].

ويشير ابن جبير إلى ذلك بقوله: إن في الجهة الغربية من البلد ميدانان وهما شديدا الخضرة وعليهما خلق والنهر بينهما وهناك غيظه عظيمة من الحور متصلة بهما وهما من أبدع مناظر الدنيا حيث يخرج السلطان ويلعب فيها الصوالجة ويشهد سباق الخيل وكذلك يخرج أبناء السلطان للرماية والمسابقة واللعب أيضاً[2].

من الإشارة عند ابن جبير يتضح أنها تعني الميدان الأخضر وربما قصد بقوله: "ميدانان" أن الميدان كان يقسم إلى قسمين، ميدان للعامة وميدان للسلطان وأبنائه حيث نجد عند القزويني إشارة واضحة إلى ذلك حيث يقول: إن عامة الناس كانوا يخرجون إلى الميدان الأخضر ويخرج المتعيشون والمساخرة والمغنيين والمصارعين حيث يبقوا في لهو ولعب حتى نهاية يومهم[3]. وأن هذا الخروج من قبل ارباب تلك الحرف ربما كان مؤشراً ودليلاً على أن هناك نسبة عالية من سكان دمشق تخرج للتنزه فيجداولئك الحرفيين بذلك سوقاً لبضائعهم.

---

[1] الوهراني، ركن الدين محمد بن محمد بن محرز، (ت **575 هـ/** 1175**م**)، **منامات الوهراني ومقاماته ورسائله**، تحقيق: إبراهيم شعلان ومحمد نغش، ط1، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، 1988 م، ص199، وسيشار له لاحقا، الوهراني، منامات.

[2] ابن جبير، **الرحلة**، ص261.

[3] القزويني، **آثار البلاد وأخبار العباد**، ص191، وانظر، المنجد، **دمشق في مسالك الأبصار**، ج124.

أما ميدان الحصى فقد كانت الدلائل تشير إلى استخدامه من قبل الحجيج فهو مكان لوداع واستقبال الحجيج الخارج من الشام[1] وكذلك وجد فيه العديد من القبور والمزارات التي كان يرتادها العامة[2] ربما كان الناس يجتمعون في هذا المكان لمناقشة امور تخص مدينتهم وكذلك يجتمع به عسكر المماليك[3].

الأحياء:

برزت ظاهرة تقسيم دمشق إلى حارات أو محلات في العهد الفاطمي وكانت هذه أحياء سكنية قامت فيها أسواق محلية وورش مهنية انعزلت عن نشاط المدينة الرئيسي، وقد وجد في دمشق ما يقارب 70 حياً و30 حياً لناحية الصالحية[4] وقد توسعت هذه الأحياء باتجاه الجنوب والشمال والغرب إلا أن وجود الحي المسيحي والحي اليهودي في جهة المدينة الشرقية حد من توسعها بذاك الاتجاه[5].

ويعزى السبب في نشوء الأحياء أو الحارات في دمشق إلى الاضطراب

---

[1] الفهري، محمد بن عمر بن محمد، (ت721هـ/ 1321 م) **ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة**، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1408هـ- 1988م، ج5، ص1، وسيشار له لاحقا: الفهري، ملء العيبة.

[2] الهروي، **الإشارات إلى معرفة الزيارات**، ص 21، وانظر، الحموي، معجم البلدان، ج2، ص468.

[3] خير، مدينة دمشق، ص267.

[4] لابيدس، **مدن الشام في العصر المملوكي**، ص122.وانظر:سوفاجية، دمشق الشام، ص64.

[5] ريمون، اندريه، **المدن العربية الكبرى**، ترجمة لطيف فراح، ط1، دار الفكر، 1991، ص158. وسيشار له لاحقا، اندريه، المدن العربية.

الأمني الذي شهدته دمشق أثناء العهد الفاطمي، حيث أخذت العامة بمقاومة الفاطميين ووجدوا أن أفضل طريقة للدفاع عن مدينتهم هي التعاون، فبدأ نوع من الإجماع في طبقات المجتمع الدمشقي وفقاً لنزعته الدينية أو العرقية أو الصناعية وهذا يتيح لأفراد كل مجموعة الدفاع عن أنفسهم وممتلكاتهم بالقوة عند الضرورة.

وقد أدى ذلك إلى تخلل الوسط الحضاري للمدينة فبدأت تظهر على شكل حارات مستقلة داخل المدينة كل حارة منفصلة عن جارتها وكل حارة عبارة عن مدينة مصغرة لها مسجدها وقنوات مياهها وفيها سوقها وحمامها ولها شيخ مسئول عنها ورجال مكلفون بحمايتها وهم الأحداث[1] وقد قسمت الحارة بشكل يسهل الدفاع عنها من خلال نظام الأبواب الخاص بها ودروبها المتعرجة التي كانت تؤدي هدفاً دفاعياً عن الحارة، يتمثل في عدم إمكانية مشاهدة الشارع إلى آخره من قبل المهاجم مما يتيح لأبناء الحي إعاقته والسيطرة عليه، وهدف اجتماعي يتمثل في عدم مشاهدة النساء أثناء خروجهن في دروب الحارة المتعرجة، وكان لا يظهر من البيت على الشارع إلا مؤخرته الخالية من النوافذ فلا يمكن الوصول إليه إلا بعد أن يقطع باب الحارة فباب الزقاق فباب المنزل وهذا يوجد شيء من الأمان والطمأنينة للفرد نتيجة لوجود كثير من العقبات والحواجز قبل دخول بيته[2].

---

[1] تم التعريف بالاحداث ص 45

[2] حول أحياء دمشق وحاراتها انظر: خير، **مدينة دمشق**، ص157- 159. وانظر: لاييدوس، **مدن الشام**، ص144 - 156. وانظر:حبيب الزيات، حارات دمشق القديمة، مجلد35، ج1، 1937، ص- ص33- 35. سيشار له لاحقا : الزيات، حارات دمشق.

الضواحي:

اهتم الرحالة بضواحي دمشق وأسهموا في إعطاء صورة واضحة عن المدينة وما حولها من ضياع وضواحي منتشرة خارج السور وأن بعض هذه الضواحي فاقت المدينة المركز في الوصف من حيث الجمال والترتيب ومن أهم ضواحي دمشق.

1- الربوة:

توقف الكثير من الرحالة عند الربوة وأطالوا الحديث عن المكان وقداسته إلا أن هنالك منهم من أنكر ما ينسب للربوة من تلك القداسة حيث يبرز السائح الهروي نافياً للادعاء القائل أنها الربوة التي ذكرت في القران الكريم فيقول: الربوة موقع مبارك نزه مليح المنظر في لحف الجبل وليست الربوة المذكورة في القران العزيز التي سكنها عيسى وأمه قال تعالى: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾[1] وينكر أن يكون عيسى عليه السلام قد دخل دمشق أو وطئ أرض الشام[2].

أما ابن جبير فهو يرى في الربوة ذلك المكان المعني في قوله تعالى وأنها هي الربوة ذات القرار المعين وهي مأوى المسيح وأمه وهي من أبدع المناظر حسناً وجمالاً وإتقان بناء وأن لها شوارع دائرة وفيها سقاية لم يرى أحسن منها وأن الماء يجري في كل بيوتها وهي رأس بساتين البلد ومقسم مائه ومنها تشرف على جميع بساتين البلد الغربية وتحتها أنهار دمشق السبعة[3].

أما ابن بطوطة فيذهب إلى ما ذهب إليه ابن جبير من وصف الربوة

---

[1] سورة المؤمنون، آية50.

[2] الهروي، **الإشارات إلى معرفة الزيارات**، ص20.

[3] ابن جبير، **الرحلة**، ص248.

ويؤكد على ذلك بقوله: في آخر جبل قاسيون الربوة المباركة المذكورة في كتاب الله ذات القرار المعين ومأوى المسيح وأمه عليهما السلام، وهي من أجمل مناظر الدنيا ومتنزهاتها وبها القصور المثيرة والمباني الشريفة والبساتين البديعة[1].

ويصف القزويني الربوة بقوله: وفي مدينة دمشق جبل الربوة على بعد فرسخ من دمشق وهو جبل عال عليه مسجد حسن وسط البساتين ويرى أن لأهل دمشق أقاويل كثيرة حول هذا المكان[2].

2- الغوطة:

أشارت المصادر القديمة إلى أن غوطة دمشق تعد من جنان الدنيا الثلاث وهن غوطة دمشق ونهر بلخ ونهر الابلة[3] وأن بها مائة وتسعة وثلاثين ألف بستان[4].

وقد لفتت أنهار وأشجار مياه الغوطة نظر كل من زارها حيث يعجز الوصف عنها نظراً لما تحويه من أنواع الفواكه وخصوبتها[5].

فقد ذكر الإدريسي في معرض حديثه عن دمشق الغوطة وقال: إن بها ضياع كالمدن مثل المزة وداريا وبرزة وحرستا وكوكبة وبلاس وكفر سوسة بيت لاهية وبها جامع قريب الشبه بجامع دمشق وتحتوي الغوطة على أنهار وأشجار ومياهها تشق البساتين والبيوت وبها من أنواع الفواكه ما لا يحيط به

---

[1] ابن بطوطة، **الرحلة**، ص120.

[2] القزويني، **آثار البلاد**، 191.

[3] الهمذاني، **مختصر كتاب البلدان**، ص101.

[4] ابن الجوزي، **مرآة الزمان، السفر الأول**، ص74.

[5] الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ص366.

تحصيل ولا يليق بمثله تمثل كثرة وخصباً وطيباً وأن بهذه الضياع من الرجال ما بين الألف إلى الألفين تقريبا[1].

ويوجد في الغوطة ونواحيها 121000 بستان تسقى بماء واحد يأتي إليها من أرض الزبداني[2] وتمتد الغوطة شرق دمشق امتداد البصر[3].

أما القزويني فيذكر الغوطة بقوله أنها الكورة التي قصبتها دمشق وهي كثيرة المياه نضرة الأشجار متجاوبة الأطيار موثقة الأزهار ملتفة الأغصان خضرة الجنان استدارتها ثمانية عشر ميلاً كلها بساتين وقصور يحيط بها جبال عالية من جميع جهاتها ومياهها خارجه من تلك الجبال وتمتد في الغوطة عدة أنهر وينصب فائضها في أجمة هناك والغوطة كلها أنهار وأشجار متصلة قلما يوجد بها مزارع وهي أنزه بلاد الله وأحسنها.

قال أبو بكر الخوارزمي جنان الدنيا أربع غوطة دمشق وصغد سمر قند وشعب بوران وجزيرة الابلة وقد رايتها كلها وأحسنها غوطة دمشق[4].

ويذكر أبي الفداء الغوطة أنها أحد الجنان الأربع المفضلة في متنزهات الأرض وهي غوطة دمشق وشعب بوران ونهر الابلة وصغد سمرقند وقد فضلت غوطة دمشق عليها[5].

وقد بلغ الحد بوصف الغوطة القول أن غوطة دمشق شرك العقول وقيد

---

(1) المصدر نفسه، ص366.

(2) شيخ الربوة، شمس الدين محمد بن أبي طالب، (ت727هـ/1325م) **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر.** د ط، د ت، ص196، سيشار له لاحقا: شيخ الربوة، نخبة الدهر،

(3) ابن جبير، **الرحلة**، ص 234.

(4) القزويني، **آثار البلاد**، ص232.

(5) أبوالفداء، **تقويم البلاد**، ص2523.

الخواطر وعقال النفوس ونزهة النواظر خلخلت الأنهار أسواق أشجارها وجاءت المياه خلال ديارها وصافحت أيدي النسيم أكف غدرانها ومثلت في بواطنها موائس أغصانها يخال سكانها أن الشمس قد نثرت على أثوابها دنانير لا يستطيع أن يقبضها ببنان ويتوهم المتأمل لثمراتها أنها أشربة قد وقفت بغير أوان وفي كل أوان فيا لها من رياض فقد قصر عمر من لم يطف بزهرها وفات عمر من لم يشاهد مبانيها[1].

3- النيرب:

يصفها الهروي بقوله قرية بجامعها قبر أم مريم ولكنه ينفي أن تكون المقصودة هنا مريم بنت عمران[2].

ويذكر ابن جبير النيرب بقوله: ويتصل بالربوة أسفل منها بقليل قرية كبيرة تعرف بالنيرب وقد غطتها البساتين فلا يظهر منها إلا ما سما بناؤه وأن بها جامع مفروش سطحه بفصوص الرخام الملون فيخيل لناظره انه ديباج مبسوط وفيه سقاية ماء رائعة الحسن ومطهرة ولها حمام[3].

ويضيف ابن بطوطة على وصف ابن جبير لهذه القرية جملة واحدة يذكر أن بهذه القرية بيوت عدة يجري بها الماء[4].

4- المزة:

وفوق قرية النيرب قرية كبيرة تعرف بالمزة وبها جامع كبير وسقايا

---

[1] النويري، **نهاية الأرب**، ج11، ص261.

[2] الهروي، **الإشارات**، ص20.

[3] ابن جبير، **الرحلة**، ص249.

[4] ابن بطوطة، **الرحلة**، ص121.

وهي أحسن القرى[1] وبها قبر دحية الكلبي[2].

وتعرف هذه القرية بمزة كلب نسبة إلى قبيلة كلب بن وبره بن تعيب بن هلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة حيث كانت إقطاع لهم وإليها ينسب الإمام حافظ الدين جمال الدين يوسف الكلبي المزي وكثير سواه من العلماء وهي من أعظم قرى دمشق[3].

5- بيت لاهية:

وهي قرية من أعمال دمشق تورد كثير من الروايات أن آزر والد إبراهيم عليه السلام كان ينحت الأصنام بها ويدفعها إلى إبراهيم ليبيعها فيأتي بها إلى حجر وسط البلد فيكسرها عليه والحجر لا يزال موجود في مسجد يقال له درب الحجر.

ألا أن الهروي ينفي هذه الرواية مع انه يوردها ويذكر أن آزر لم يدخل الشام[4].

أما ابن جبير فيذكر بيت لاهية بقوله في الجهة الشرقية من البلد عن يمين الطريق إلى مولد إبراهيم عليه السلام قرية تعرف ببيت لاهية ويذكر قصة آزر وسيدنا إبراهيم وبهما مسجد مفروش بفصوص الرخام الملونة منظم

---

(1) ابن جبير، **الرحلة**، ص249.

(2) دحية بن خليفة بن فروة الكلبي صحابي جليل أول مشاهده الخندق وقيل أحد ولم يشهد بدرًا وكان يضرب به المثل في حسن الصورة وكان جبرائيل عليه السلام ينزل على صورته. للمزيد انظر: ابن حجر، الحافظ، (ت852هـ 1448م)**الاصابة في تمييز الصحابة**، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط1، دار الجليل، بيروت، 1412 هـ 1992م، ج2 ص384، سيشار له لاحقا: ابن حجر، الاصابة.

(3) الهروي، **الإشارات**، ص20.

(4) ابن بطوطة، **الرحلة**، ص121.

كله خواتيم وأشكال بديعة يخيل لمبصرها أنها فرش متقنة مزخرفة[1].

6- داريا:

وهي قرية بها قبر الشيخ أبي سليمان الداراني وهو من كبار الأولياء[2] وهي تبعد عن البلد مقدار أربعة أميال وتقع بالجهة الغربية من البلد[3].

7- برزة:

قرية من أعمال دمشق يقال إن إبراهيم عليه السلام ولد بها إلا أن الهروي ينفي ذلك[4].

8- المنيحة:

قرية من أعمال دمشق يقال أن بها قبر سعد بن عبادة الأنصاري لكن الهروي ينفي ذلك[5] وتقع شرقي البلد على مقدار أربعة أميال منه وبها مسجد صغير حسن البناء مبني على قبر سعد بن عبادة رأس الخزرج وصاحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم[6].

9- راوية:

من أهم أعمال دمشق بها قبور مجموعة من الصحابة لكن الهروي كعادته يشكك بذلك[7] وهي قرية تقع قبل البلد بها قبر أم كلثوم ابنة علي

---

(1) الهروي، **الإشارات**، ص21.

(2) ابن جبير، **الرحلة**، ص241.

(3) الهروي، **الإشارات**، ص21.

(4) ابن جبير، **الرحلة**، ص253.

(5) الهروي، **الإشارات**، ص20.

(6) نفس المصدر، ص20.

(7) ابن جبير، **الرحلة**، ص253.

بن أبي طالب وعليه مسجد كبير وخارجه مساكن وله أوقاف وأهل تلك الجهات يعرفونه بقبر الست أم كلثوم[1].

10- الصالحية:

تقع على سفح جبل قاسيون وهي مدينة ممتدة في سفح الجبل على طول المدى ذات بيوت وجنائن ومدارس وربط وترب جليلة وعمائر ضخمة ومارستان وأسواق حافلة بالبز وغيره وبأعاليها من ذيل الجبل المقابر العامة وجميع الصالحية تشرف على دمشق وغوطتها وكل بساتينها وشرفيها وميادينها ومجرى واديها وبجانبها الغربي كان دير مروان المشهور ومكانه الآن المدرسة المعظمية قرب عقبة دمر[2] وتدور بدمشق من جهاتها ما عدا الشرقية أرباض فسيحة الساحات وبالجهة الشمالية منها ربض الصالحية وهي مدينة عظيمة لها سوق لا نظير له لحسنه وفيها مسجد وجامع ومارستان وبها مدرسة تعرف بمدرسة ابن عمر موقوفة على من أراد أن يتعلم القران الكريم من الشيوخ والكهول وتجري لهم ولمن يعلمهم كفايتهم من المأكل والملبس، وأهل الصالحية كلهم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي اللّه عنه[3].

وقد كان بالصالحية مع نهاية العهد المملوكي قرابة سبع دور للحديث وستة عشر رباطاً وثمان وثلاثون حارة وواحد وسبعون مسجد[4].

هذه أهم أحياء دمشق التي ذكرها الرحالة إلا أن دمشق تضم العديد من الأحياء. ومن أهم أحياء دمشق هي: دمشق القديمة وتضم العديد من

---

(1) الهروي، **الإشارات**، ص21.

(2) المنجد، **دمشق من مسالك الأبصار**، ص124.

(3) ابن بطوطة، **الرحلة**، 119.

(4) زيادة، **دمشق في عهد المماليك**، ص117.

الأحياء القديمة داخل أسوار المدينة القديمة. ومن أحياء دمشق الأخرى: حي الميدان، الشاغور، الصالحية، الجسر الأبيض، المزرعة، المهاجرين، المالكي، ركن الدين، المزة.

الشوارع:

لم يتوقف الرحالة المسلمون كثيراً عند شوارع دمشق بل أعطوا إشارات عابرة ولكنها ذات دلالة كبيرة، إلا أن الرحالة الأوروبيين الذين زاروا دمشق توسعوا في الحديث عن الشوارع بشكل كبير، لقد وجدت إشارة للشوارع عند ابن العربي حيث يذكر أن شوارع دمشق كانت ترش بالماء للمحافظة على نظافتها ولعدم إثارة الأتربة وهذه الإشارة وردت في نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وهي تسبق كل من تحدث عن شوارع دمشق من الرحالة الأجانب حيث أن ابن العربي كان بدمشق سنة 489هـ/11م[1] إلا أن شوارعها ضيقة ومظلمة[2] وقد كان خارج دمشق أملح من داخلها نظراً لضيق سككها[3] وقد كان للطرق أوقاف خاصة للعمل على تعديلها ورصفها نظراً لوجود رصيفان لكل طريق يمر عليها المترجلون أما الراكبون فيسيرون بين الرصيفين[4].

وقد بهرت شوارع دمشق الرحالة الأجانب بترتيبها وحسنها وأعطوا صورة مغايرة لما أعطاه الرحالة المسلمون، فمن ذلك قولهم أن شوارع دمشق تكسى بالحجارة المزركشة الأنيقة والبراقة لذا لا تحتاج إلى إضاءة عالية في

---

[1] أعراب، **مع القاضي ابن بكر العربي**، ص31.

[2] ابن جبير، **الرحلة**، ص255.

[3] ابن بطوطة، **الرحلة**، ص119.

[4] المصدر نفسه، ص122.

الشوارع وهو ما يشبه العواكس على الطرقات في أيامنا هذه، فالمصابيح البسيطة تكفي لإنارة الشوارع والمسافة بين كل مصباح وآخر لا تتجاوز 12 ذراع ومن شدة الإنارة في الليل لا يفرق السائر بين الليل والنهار.

وقد أحصوا ما وجد فيه من مصابيح فيذكر أن بها أكثر من 130 ألف مصباح تضاء كل مساء في شوارع دمشق وقد وضع لهذه الشوارع حراس ومراقبين لحراسة المتاجر ومرافق المدينة، ووضعت شروط صارمة على من يخرج ليلاً، فيجب على كل من أراد الخروج ليلاً أن يحمل مصباحاً يدوياً معه، ومن يخرج سائراً بدون مصباح يعرض نفسه للعقوبة وهي غرامة مالية، وقد كانت شوارع دمشق تمتلئ وتكتظ بالناس في أوقات معينة من النهار[1] وتمتاز شوارع دمشق بالحركة الكثيفة للدواب التي كانت وسيلة النقل المثبى، فيركب المماليك الخيول ويتجولون بها وسط الدروب والأسواق المزدحمة وقد يضربوا الناس ليفتحوا لهم الطريق غير مبالين إن سقط أحد المارة تحت حوافر خيولهم، وكذلك كانت الجمال تتجول محملة بالبضائع التي تجلب لدمشق وخاصة في شهر نيسان وحزيران[2] وقد شهدت شوارع دمشق ترتيبات خاصة تضمن السلامة للعامة والتجار، وكان يشرف على هذه الترتيبات المحتسب وأعوانه فقد كان أعوان المحتسب يتبعون الناس في الطرقات ويلزمون المماليك عدم تحميل الدواب أكثر من طاقتها وما تسمح به حدود السلامة للعامة[3] كذلك ألزم المحتسب أصحاب الدواب أن يشدوا في

---

(1) **Visit to the Holy places**, p183.

(2) **A voyage beyond the seas**, p78.

(3) ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبدالرحمن، (ت **807 هـ**/1404م) **تاريخ ابن الفرات**، تحقيق قسطنطين زريق، نجلاء عزالدين، ط1، بيروت، منشورات كلية=

أعناقها الأجراس وصفاقات الحديد والنحاس ليكون للدابة صوت عالٍ حال مرورها في السوق فيحذر منها الضرير والغافل والصبي، ويلزم كذلك المكارية والتراسين وحمالين الحطب ومزابل الطين وغيرهم ممن تتطلب مهنتهم التجول في السوق إيجاد تنبيه للناس بمرورهم[1].

وقد منع بعض أصحاب المهن من دخول السوق نظراً لما يحدث منهم من مضايقة للناس أمثال الحطابين وأعذال التبن[2] كذلك كانت تتم مراقبة نظافة الشوارع بشكل دوري فلا يسمح للمزاريب ومجاري الأوساخ الخارجة من الدور أن تتسرب إلى الطرق بل اوجب المحتسب إيجاد مسارب خاصة لها حتى لا تحدث أذى وضرر على الساكنين والمارة[3].

وقد بلغ حد الاهتمام بالشوارع إلزام الباعة بكنس الشوارع ورشها بالماء[4] وكذلك أمر أرباب الحوانيت بأن تكون عند أبواب حوانيتهم أزيار

=الأدب والعلوم، 1936- 1944 م ج7، ص76. وسيشار له لاحقا: ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات.

(1) ابن الإخوة، محمد بن محمد بن احمد (ت729هـ/1329م) **معالم القربة في أحكام الحسبة**، تصحيح: لوى، كمبردج، دار الفنون، 1937 م، ص 240، وسيشار له لا حقا: ابن الإخوة، معالم القربة.

(2) الشيزري، عبدالرحمن بن نصر، (ت 589هـ 1193م) **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**، تحقيق: السيد الباز العريني، ط1، دار الثقافة بيروت، ص13 وسيشار له لاحقا : الشيزري، نهاية الرتبة. وانظر ابن الإخوة، معالم القربة، ص241.

(3) الشيزري، **نهاية الرتبة**، ص14.

(4) عاشور، سعيد عبدالفتاح، **المجتمع المصري في عهد سلاطين المماليك**، ، طبعة جديدة، دار النهضة العربية 1992، ص96، وسيشار له لاحقا عاشور، المجتمع المصري، وانظر: إعراب، مع القاضي ابن العربي، ص31.

مملوءة بالماء ليسهل إطفاء الحريق إن شب في ناحيتهم[1] تمثل هذه الاحتياطات من الأمان ناحية متقدمة جداً للمحافظة على المدينة ونظافتها بشكل مستمر.

الأسواق:

أثارت أسواق دمشق دهشة واستحسان العديد من الرحالة الذين زاروها، فكانت مدعاة لدخول السرور إلى أنفسهم، وكان تنظيم الأسواق وترتيبها محل عناية وتركيز من قبل من كتبوا عنها في تلك الفترة فيذكر بنيامين التطيلي في رحلته والتي زار خلالها دمشق سنة 558هـ/1163م أن دمشق كانت نقطة إلتقاء لغالبية تجار الشام وأن البضائع ترد لها في مختلف المناطق المجاورة فكانت مركز التجارة في تلك الفترة[2].

أما ابن جبير فقد توقف عند أسواق دمشق التي أثارت إعجابه بشكل كبير فيقول: وأسواق هذه البلدة أفضل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً وأبدعها وضعاً ولا سيما قيسارياتها[3] وهي مرتفعة كأنها الفنادق مثقفة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب القصور وكل قيسرية منفردة بضبيتها وأغلاقها الجديدة، ولها أيضاً سوق يعرف بالسوق الكبير يتصل من باب

---

[1] عاشور، المجتمع المصري، ص96

[2] سمير خضر، **في اسواق دمشق القديمة**، مجلة الاهرام العربي، العدد572 تاريخ 2008/3/8، سيشار له لاحقا، خضر، اسواق دمشق

[3] القيسارية: هي منشات شيدت لأغراض تجارية فبعضها كان يقوم مقام السوق التجارية والفندق في آن واحد فكان الطابق الأرضي مخصص لنزول القوافل إذ يتسع للبضائع والدواب أما الطابق العلوي فمزود بغرف صغيرة يبيت فيها التجار والغرباء والمسافرون. للمزيد انظر: لينا سعد، **نماذج لفنون العمارة**، صحيفة الحياة، لندن، العدد15353، تاريخ 2005/4/14، 5/ربيع الأول/1426. سيشار له لاحقا: لينا سعد، فنون العمارة.

الجابية إلى باب شرقي[1].

ويذكر ابن بطوطة أن الأسواق منتشرة في دمشق وضواحيها[2] وقد كان لتوافد القوات العسكرية من مركز الدولة المملوكية في القاهرة إلى دمشق وقدوم طلبة العلم أثره الكبير والواضح في ازدهار أسواق دمشق وتوسعها لتلبية احتياجاتهم من مختلف المواد[3].

اعتمد تخطيط الشوارع على الشوارع المتوازية للمدينة، تفصل بأبواب في مداخلها، ويختص كل منها بأرباب مهنة واحدة ومن هذه الشوارع تتفرع أسواق مغطاة ومسقوفة وهي القيساريات كقيسرية الحرير وقيسرية الصيارفة وخانات وفنادق أهم عملها أنها تقوم بتجارة الاستيراد والتصدير متصلة اتصالاً مباشراً بتجارة السوق[4] وقد توسعت الأسواق في المدينة فتجاوزت منطقة الشارع القديم متجهة جهة الجامع الكبير وهنا النقطة المركزية حيث يتجمع فيها أكثر السكان فيسهلون المعاملات التجارية[5]، شهدت أسواق دمشق زيادة كبيرة في عددها نظراً لزيادة النشاط التجاري حيث تجاوزت في مجملها ما يقارب 139 سوقاً موزعة في مختلف أحياء دمشق وشوارعها[6] أما الحوانيت وهي جزء أساسي من الأسواق فقد وصفت وصفاً

---

(1) ابن جبير، **الرحلة**، ص261.

(2) ابن بطوطة، **الرحلة**، ص121.

(3) لابيدس، **مدن الشام**، ص45.

(4) خير، **مدينة دمشق**، ص160.

(5) خير، **مدينة دمشق**، ص167.

(6) ابن عبدالهادي، جمال الدين يوسف بن حسن، (ت909هـ/ 1504م)، **نزهة الرفاق في شرح حالة الأسواق**، تحقيق، صلاح محمد الخيمي، ط1، دار ابن كثير، دمشق، 1408هـ/1988م، ص73. وسيشار لها لاحقا، ابن عبدالهادي، نزهة الرفاق.

دقيقاً وتحدث الرحالة عن محتوياتها من مواد وعن ترتيبها وعن دورها الاجتماعي في حياة المجتمع الدمشقي حيث كانت تنتشر بالقرب من أبواب المسجد الأموي[1] وقد نظمت بشكل يسهل الوصول إليها ولكل حرفة سوقها وحوانيتها الخاصة بها[2] وقد كانت الحوانيت صغيرة الحجم تحتوي ما ينتجه الحرفي في بيئته ليعرضه على الماره للبيع وقد كانت الحوانيت والأسواق مكاناً لاجتماع الناس وتناقل الأخبار فيما بينهم وما يرد من أخبار يكون مصدره جلوس الناس في الحوانيت[3].

وصف الرحلة الأجانب دمشق بقولهم أن هذه المدينة تشتهر بصياغة الذهب والفضة وأن هناك أعداداً كبيرة من الحرفيين والصاغة يعملون بهذه المهنة، كذلك انتشرت صناعة طهي الطعام في دمشق فنجد أن الكثير من أهالي دمشق لا يطهون الطعام بمنازلهم، وأن باعة الطعام الجاهز يجوبون شوارع دمشق فالمدينة تحوي أنواعاً مختلفة من الطعام بإمكان الغني والفقير شراء طعامه جاهز بدون عناء فكل ما يشتهون موجود ليلاً ونهاراً[4].

معظم البضائع المعروضة في أسواق دمشق كانت تصنع في المدينة وتتميز بالدقة والإتقان، وأن ما يصنع بدمشق من مختلف أنواع الصناعات

---

(1) ابن جبير، **الرحلة**، ص242.

(2) **A voyage beyond the seas** , p.77

(3) السخاوي، الحافظ شمس الدين محمد بن عبدالرحمن، (ت 902هـ 1497م) **التبر المسبوك في ذيل السلوك**، ط1، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، د ن، ص174، حيث نجد عبارة كنت جالسا في بعض الحوانيت. وسيشار له لاحقا: السخاوي، التبر المسبوك.

(4) **A voyage beyond the seas**, p.77

كبيرها وصغيرها أكثر ما يصنع في أي مكان آخر من العالم، سواء كان من الأقمشة الحريرية أو القطنية والكتان[1] وأن بها من القطن كميات كبيرة من أجمل أنواع القطن بالعالم بحيث لو اطلع عليها شخص لا يعرف بالقطن لظن انه حريراً نظراً لنعومته ولمعانه ودقته وجماله[2].

برعت دمشق في العصر المملوكي في شتى صنوف الصناعات والتي كان من أبرزها صناعة الزجاج فقد شهدت تطوراً كبيراً في دمشق نظراً لما أحدثه الغزو المغولي لبلاد الشام من هجرة للحرفيين من حلب إلى دمشق[3] حيث لفتت هذه الصناعة نظر ابن بطوطة الذي أبدى إعجابه الشديد بصناعة الزجاج الدمشقي[4].

ونظراً لما شهدت صناعة الزجاج من تطور في العصر المملوكي فقد كان لها شارع خاص أطلق عليه اسم شارع طلي الزجاج[5].

أما صناعة ماء الورد فقد كانت رائجة وأن لهذه الصناعة أشخاص محددون يقومون بها ما بين 5- 8 أشخاص حيث يملئون خمسة عشر ألفا من البراميل التي تحتوي ماء الورد ولكل برميل 23 وحدة قياسية وكان يباع جميع ما بحوزتهم من ماء الورد[6].

---

(1) Visit to the Holy places, p.142.

(2) Visit to the Holy places , p.182

(3) أبو الفرج العشي، تطور صناعة الزجاج السوري، **مجلة الحوليات الأثرية السورية**، ج16، 1966ن، ص46- 47. سيشار له لاحقا: العشي، صناعة الزجاج.

(4) ابن بطوطة، **الرحلة**، ص110.

(5) A voyage beyond the seas ,p.77

(6) A voyage beyond the seas , p.78

لقد كانت أسواق دمشق وحوانيتها مكان إعجاب الرحالة الذين زاروها في تلك الفترة نظراً لكثرة ما يعرض بها من مصنوعات محلية فائقة الدقة تجبر الزائر على الشراء منها نظراً لجودتها ودقتها العالية[1].

وقد ضمت الأسواق الضخمة تحت سقوفها مناطق وخانات تجارية متعددة، وأصبح لكل مهنة من المهن منطقة خاصة بها، ثم أسست في هذه المناطق النقابات والجمعيات الحرفية. ومن ثم تحولت الأسواق إلى مدارس تعليمية وحرفية، وتحلّت بثقافة غنية وساهمت في التطور الاجتماعي والثقافي. ثم إن الحرفيين وجدوا بذلك إمكانيات متوفرة لممارسة مهنهم ونشاطهم، إمكانيات أدت إلى الحيوية والإبداع في المدينة وإلى إنشاء الأبنية المختصة كل منها بمهنة مختلفة، وسمي كل سوق من هذه الأسواق باسم المهنة التي تمارَس فيه، كسوق النحاسين وسوق الصاغة وسوق العطارين[2].

ومن خلال ما تقدم يبدو بأن أسواق دمشق شهدت نوعاً من التخصص، فمعظم أسواقها كانت مخصصة لحرفة معينة، أو تختص ببيع سلعة معينة، وقد كان لهذا الترتيب حسنات وسيئات في نفس الوقت فقد سهل هذا التخصص في الأسواق وصول التجار والعامة وموظفي الدولة للسوق بكل سهولة ويسر[3]، وقلل كثافة المرور في الشوارع، إذ أن المستهلك يصل

---

[1] سيتم التطرق إلى مختلف الصناعات في الفصل الخاص بالحياة الاقتصادية.

[2] دوغان دمير، **المدينة الإسلامية مرآة للحضارة الإنسانية**، مجلة حراء، تركيا، السنة الرابعة، العدد 14، مارس 2009، ترجمة: نور الدين صواش. ص 45. سيشار له لاحقا: دوغان، المدينة الإسلامية.

[3] حسن عثمان، المدينة الإسلامية، **عالم المعرفة**، ع 228 ا ب 1988، ص331. سيشار له لاحقا: عثمان، المدينة الإسلامية.

مباشرة إلى السوق الذي يرغب في الوصول إليه دون تجول في الأسواق المختلفة[1].

كما أن ذلك ساهم في الحد من غلاء الأسعار والاحتكار، فلا يستطيع التاجر أن يحتكر مادة أو يرفع سعرها خوفاً من جيرانه المنافسين له في نفس السلعة[2]، ومع ذلك فقد وجد بعض الأسواق الكبيرة والجامعة لبعض صنوف البضائع في آن وافر.

فابن جبير يذكر أن في مدينة دمشق سوقاً كبيراً يمتد من باب الجابية إلى باب شرقي المدينة وقد اشتهر هذا السوق في العصر المملوكي وأطلق عليه فيما بعد[3] سوق باب الجابية[4] وكذلك وجد سوق آخر في دمشق وعرف بسوق البزوريين وموقعه كان جنوب الجامع الأموي قرب سوق السلاح حيث اهتم ببيع العطور والأباريز وغيرها[5].

ومن الملاحظ أن الكثير من أسماء الأسواق كانت تتغير مع مرور الوقت إما بسبب تغير نشاطاتها أو بسبب سكن بعض أصحاب الحرف الأخرى في السوق.

ومن الأمثلة على ذلك فقد أصبح سوق السراجين قبيل العصر

---

[1] الشيزري، **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**، تحقيق الباز الويني، ط1، دار الثقافة بيروت، 1981، ص11، سيشار له لاحقا: الشيزري، الحسبة.

[2] عاشور، **المجتمع المصري**، ص86.

[3] ابن جبير، **الرحلة**، ص262.

[4] ابن المبرد، **نزهة الرفاق**، ص77.

[5] نفس المصدر، ص75.

المملوكي سوقاً يباع فيه القماش بدلاً من لوازم الخيل فعرف بسوق البز[1] أقيم سوق مكان سوق القمح[2] ونقل سوق الشماعين سنة 668هـ/1269م ليحل مكان سوق الأكفان في مدينة دمشق[3].

وكذلك نلاحظ أن أسواق دمشق لم تكن دائماً تحمل اسماً مشتقاً من نوع النشاط الذي كان يمارسه السوق، إذ وجد كثير منها قد اتخذ اسمه من اسم المكان الذي أقيم فيه مثل سوق باب الصغير وسوق باب ساروجا وسوق باب الجابية وسوق العمارة وسوق جسر الصالحية وسوق بالصالحية وغيرها من الأسواق[4].

كانت بعض الأسواق تمثل مراكز إخبارية واجتماعية تنافس فيها أوضاع الناس سياسياً وعلمياً فيكثر في بعض المصادر ذكر أخبار كان مصدرها الأسواق ويكون ناقلها قد انتقاها عند جلوسه في الأسواق فنجد عبارة وحدثني إمام حانونة ترد في المصادر التاريخية[5] وقد نوقشت في أسواق دمشق بعض القضايا الفكرية الهامة.

فقد ناقش ياقوت الحموي أثناء زيارته لدمشق سنة 613هـ/1216م موضوع الفتنة بين علي ومعاوية مما أثار غضب أصحاب الأسواق فاضطر إلى الفرار من دمشق خوفاً على نفسه من القتل[6] وقد شاركت أسواق دمشق

---

[1] ابن عسكر، **تاريخ دمشق**، ج2، ص228.

[2] ابن كثير، **البداية**، مج7، ج14، ص138.

[3] ابن شداد، **الأعلاف**، دمشق، ص80.

[4] ابن المبرد، **نزهة الرفاق**، ص23- 27.

[5] السخاوي، **المسبوك في ذيل السلوك**، ص174.

[6] ابن خلكان، ج5، ص128.

الدولة في أفراحها وأحزانها فأغلقت في الحزن وزينت عند الفرح[1].

المقابر والمزارات:

انتشرت ظاهرة الاهتمام بالمقابر والمزارات في فترة الدراسة وربما كان للنفوذ الشيعي الذي تغلغل سابقاً في دمشق أثره في تلك الفترة الزمنية، فقد ظهر بشكل واضح من خلال كتابات الرحالة إشارات إلى مثل هذه الأماكن، فلا يكاد يخلو كتاب من الإشارة إلى مقبرة أو مزار، ولقد ذكر الكثير من هذه المشاهد، وسيتم التطرق لبعضها والتي ذكرت عند معظم الرحالة، لأن إدراج جميع ما ورد بهذا الخصوص يحتاج لدراسة خاصة.

من هذه المشاهد والمزارات مثلاً مشهد برزة، والذي له حكاية طريفة مع الوهراني في مناماته، حيث يصور هذا المشهد يقدم شكوى بحال المشاهد والمزارات وما تعرضت له من ضياع وإهمال إلى سيدهم جميعاً فيقف بين يدي الجامع الأموي والذي أطلق عليه الوهراني (ملك الجوامع) ومن جملة ما يقول الوهراني على لسان مشهد برزة في شكواه: (أما بعد أيها الملك السعيد أدام الله جمالك وبلغك في عدوك أمالك، فإن مقام إبراهيم أصبح في كل واد يهيم، ومغارة الدم لا تستفيق من الذم، ومشهد الكهف لا يفتر من اللهف، ومشهد هابيل قد رمي بطير أبابيل، ومشهد شيث قد استأصله الخبيث، ومشهد نوح تبكي عليه وتنوح، وقبر جيله مالنا فيه حيلة، وقبر إلياس قد وقع منه الياس، فلحقت المشاهد بأربابها، وأمست رميماً كأصحابها، وقد محتها العوادي وحدا بها الحادي[2] تبين لنا هذه المقالة مظهراً من مظاهر عدم

---

[1] ابن كثير، **البداية والنهاية**، مج7، ج14، ص99 - ص126. انظر جدول با اسواق دمشق المذكورة في كتب الرحلات ص 147- 148.

[2] الوهراني، **منامات الوهراني**، ص63.

الاهتمام بالمقامات والمشاهدات، وربما يعود ذلك لجهود الزنكيين الذين حاربوا التشيع.

وهناك مشهد أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب وله أوقاف ويسميه أهل دمشق (قبر الست أم كلثوم)، وهناك مشهد آخر يقال انه قبر الست سكينة بنت الحسين عليه السلام، ومن المشاهد الشهيرة البركة: مسجد الإقدام، وهو في قلب دمشق على ميلين منها على قارعة الطريق الأعظم الأخذ إلى الحجاز الشريف، والبيت المقدس، وديار مصر، وهو مسجد عظيم كثير البركة يعظمه أهل دمشق تعظيماً شديداً[1].

أما السائح الهروي فيذكر هذا المشهد لكنه ينفي كل ما يدور حوله من روايات[2].

ومن المشاهد الأخرى مغارة الدم، ومغارة الجوع، في جبل قاسيون[3]، كذلك ما ذكر حول وجود العديد من المشاهد والمزارات في المسجد الأموي[4].

أما المقابر فقد تم الإشارة إليها من قبل مَنْ زار دمشق.

ويذكر ابن جبير أن غرب البلد جبانة كبيرة تعرف بقبور الشهداء

---

[1] ابن بطوطة، **الرحلة**، ص118. وانظر ابن جبير، **الرحلة**، ص 254.

[2] السائح الهروي، **الإشارات**، ص 21.

[3] المصدر نفسه، ص 20- 24. وانظر. ابن جبير، **الرحلة**، ص 246- 256. وانظر ابن بطوطة ص118- 120.

[4] ابن جبير، **الرحلة**، ص 246، الهروي، **الإشارات**، ص23. وانظر: ابن بطوطة، الرحلة، ص108.

فيها كثير من الصحابة والتابعين والأئمة الصالحين[1]. أما ابن بطوطة فيذكر أن بين باب الفراديس وجامع قاسيون مدفن سبعمائة نبي في مدينة دمشق، كما يوجد فيها مقبرة لعدد كبير من الصحابة والشهداء ومن بعدهم كذلك يذكر العديد من المزارات والقبور والمشاهد ويحدد معالمها[2]، وخارج المدينة المقبرة العتيقة وهي مدفن الأنبياء والصالحين. وهناك المقبرة التي بين البابين باب الجابية وباب الصغير وكذلك يلي باب شرقي جبانة فيها قبر أبي بن كعب وفي غرب دمشق توجد جبانة تعرف بقبور الشهداء[3].

الجامع الأموي:

بناء الجامع:

بدأ الخليفة الوليد بن عبدالملك الاستعداد لعملية البناء في عام 86هـ/705م، وقد أمر بهدم كل مداخل المعبد (وليس الكنيسة) من منشآت رومانية وبيزنطية، وأبقى على الجدران فقط، كما أعيد استخدام حجارة المعبد اليونانية في أجزاء من البناء، وقد أنفق على بناء الجامع خراج الشام سنتين، وقيل إنه أخذ ربع أعطيات من أهل دمشق تسع سنين وكانت خمسة وأربعين ألفاً يستعين بها على عمارة الجامع. وفي رواية أخرى أن ما أنفق على الجامع كان أربعمائة صندوق في كل صندوق أربع عشر ألف دينار أي خمسة ملايين وستمائة ألف دينار ذهبي[4].

لم يحافظ الجامع على الشكل الذي بني عليه فقد تعرض لكثير من

---

[1] ابن جبير، **الرحلة**، ص251.

[2] ابن بطوطة، ص 120.

[3] ابن بطوطة، **الرحلة**، ص 116

[4] ابن جبير، **الرحلة**، ص235. وانظر: ابن بطوطة، **تحفة النظار**، ص107.

الحرائق والزلازل التي غيرت معالمه كثيراً. كما تعرض للإهمال فترات طويلة من الزمن[1] وفكر الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز في إزالة مظاهر الترف منه والتي رأى فيها خروجاً عن التعاليم الإسلامية، لكن أهل الشام دافعوا عن زينة الجامع لأنها بنيت من أموالهم وجهدهم. لا من بيت مال المسلمين فعدل عمر عن نيته.

وقيل أيضاً إن رجلاً رومياً وقع مغشياً عليه لما رأى عظمة الجامع. فلما سئل عن السبب قال:

((إننا معشر أهل رومية نتحدث أن بقاء العرب قليل، فلما رأيت ما بنوا علمت أن لهم مدة سيبقونها. فلذلك أصابني ما أصابني)) فلما أخبر عمر بالقصة قال: (لا أرى مسجد دمشق إلا غيظاً على الكفار) وإن كان عمر بن عبدالعزيز قد اقتنع بضرورة الحفاظ على جمال الجامع وزينته[3] فإن الكوارث لم ترحم جمال البناء ولا الجهد المبذول فيه.

أقسام ومحتويات الجامع الأموي[2]:

قسم المختصون الجامع الأموي بدمشق إلى عدة أقسام هي:

1- أبواب الجامع الخارجية:

باب البريد/الباب الغربي: يقع على الحائط الغربي للجامع مقابل ساحة المسكية، وهو مؤلف من ثلاث فتحات، في الوسط باب كبير وإلى جانبيه بابين صغيرين، سُمي بهذا الاسم نسبة إلى باب معبد جوبيتر الغربي المقابل له والذي كان يعرف باسم باب البريد، ويطلق على هذا الباب الآن أسم باب المسكية نسبةً لسوق المسكية المقابل له.

---

[1] الوهراني، **منامات الوهراني**، ص66.

[3] العمري، مصدر سابق، ص193.

باب جيرون/الباب الشرقي: يقع على الحائط الشرقي للجامع مقابل حي النوفرة، وهو مؤلف من ثلاث فتحات، في الوسط باب كبير وإلى جانبيه بابين صغيرين، سُمي بهذا الاسم نسبة إلى باب معبد جوبيتر الشرقي الواقع في نهاية حي النوفرة والذي كان يعرف باسم باب جيرون، ويطلق على هذا الباب الآن أسم باب النوفرة نسبةً لحي النوفرة المقابل له.

باب الكلاسة/الباب الشمالي: يقع على الحائط الشمالي للجامع، وهو مؤلف من بوابة واحدة، سُمي بهذا الاسم نسبةً لحي الكلاسة المقابل له، ويعرف أيضاً بباب العمارة نسبةً لحي العمارة القريب منه.

باب الزيادة/الباب الجنوبي: يقع في الجهة الغربية من الحائط الجنوبي مقابل سوق الصاغة، وهو الباب الوحيد المؤدي مباشرة لحرم المسجد، سُمي بهذا الاسم لكونه أُحدث زيادةً في جدار المعبد عند بناء الجامع، ويسمى أيضاً بباب الصاغة نسبةً لسوق الصاغة المقابل له[1].

2- صحن الجامع والأروقة:

يقع صحن المسجد في الجزء الشمالي منه ويشكل مستطيلاً يحيط به ثلاثة أروقة مسقوفة (ممرّات)، ويوجد داخل الصحن ثلاث منشآت صغيرة هي:

قبة المال: أنشئت في العهد العباسي واستعملت كخزنة لأموال الجامع، ومن ثم مكتبة لكتب ومخطوطات الجامع النفيسة.

قبة البحرة: أنشئت بداية في العهد العباسي وجددت في العهد العثماني، وهي عبارة عن بركة ماء وفوقها قبة (شادروان) (أزيلت في ستينات القرن العشرين وأعيد إنشائها خلال الترميم الأخير للجامع (1992 -1994 م).

---

(1) ابن جبير، **الرحلة**، ص242. وانظر: ابن بطوطة، **تحفة النظار**، ص 109- 110.

قبة الساعات: يعتقد أنها تعود للعهد الفاطمي وكانت تسمى قبة زين العابدين، وضع فيها سابقاً عدة أنواع من الساعات فسميت بقبة الساعات، وداخل صحن الجامع عمودين ذي رأس نحاسي مزخرف كانا يستعملان للإضاءة[1].

3- حرم المسجد:

هو الجزء الداخلي من المسجد، يقع في الجهة الجنوبية منه ويتكون من ثلاثة ممرات متوازية ذات أعمدة وأقواس، في الجهة الشرقية من الحرم يقع ضريح النبي يحيى عليه السلام، ويوجد أيضاً بئر ماء قديم محاط بعمودين نفيسين وهو غير مستعمل الآن، كما يوجد داخل الحرم أربعة محاريب للدلالة على المذاهب الإسلامية الأربعة وكان لكل محراب إمامه ومُدرسيه وهذه المحاريب هي:

محراب الصحابة: هو المحراب الأول الذي يقع في الجهة الشرقية من الحرم، وهو الأقدم، حيث كان يصلي المسلمين قبل إنشاء المسجد، ويسمى أيضاً محراب المالكية.

محراب الخطيب: هو المحراب الرئيسي للمسجد ويسمى أيضاً محراب الشافعية، وقد أنشئ عند بناء الجامع أيام الخليفة الوليد بن عبدالملك، وإلى جانبه منبر الخطيب.

محراب الحنفية: أنشئ في العهد المملوكي.

محراب الحنابلة: أنشئ في العهد المملوكي. في أزمنة سابقة شبه الناس حرم المسجد بالنسر الممدود الجناحين وقبة المسجد تشكل رأس هذا

---

[1] ابن جبير، **الرحلة**، ص240 و243❖244. وانظر: ابن بطوطة، **تحفة النظار**، ص108.

النسر فأصبحت تعرف بقبة النسر وهي ترتفع عن أرض الحرم 36م تقريباً[1].

4- المشاهد:

المشاهد عبارة عن صالات واسعة ضمن جسم المسجد اختلفت وظيفتها باختلاف الزمن، وللجامع الأموي بدمشق أربعة مشاهد تقع على يمين ويسار البابين الشرقي والغربي سُميت بداية بأسماء الخلفاء الراشدين الأربع وهي تتوزع كالتالي:

مشهد أبي بكر: يقع في الجهة الجنوبية الشرقية من المسجد، ويستعمل الآن كمتحف للجامع.

مشهد عمر: يقع في الجهة الجنوبية الغربية من المسجد، ويستعمل الآن كمقر لإدارة المسجد.

مشهد عثمان: يقع في الجهة الشمالية الغربية من المسجد، ويستعمل الآن كقاعة شرف لاستقبال كبار الضيوف.

مشهد علي/الحسين: يقع في الجهة الشمالية الشرقية من المسجد، وفيه مزار ومقام رأس الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما، وقد غلبت عليه تسمية مشهد الحسين[2].

الكنائس:

يوجد في مدينة دمشق كنيسة لها عند النصارى شأن عظيم وتأتي بالمرتبة الثانية بعد كنيسة بيت المقدس، وقد اعتني ببنائها وزخرفت بأحسن

---

[1] ابن بطوطة، **تحفة النظار**، ص107- 108.

[2] ابن جبير، **الرحلة**، ص246- 248، ابن بطوطة، **تحفة النظار**، ص111، للمزيد حول الجامع الاموي تم اضافة مخطط ومعلومات حديثة عنه من شبكة الانترنت، موقع اكتشف سوريا انظر ص 181.

التصاوير التي تلفت الأنظار وتسر جميع الناظرين إليها نظراً لجمالها ودقتها[1]، وهذه الكنيسة تعرف بكنيسة "مريم" أو الكنيسة "المريمية" وهي قديمة العهد وتعد أكبر ما بقي من كنائس دمشق[2]. وقد أعاد النصارى بناءها عدة مرات، وحافظوا على جمالها ورونقها وهي مبنية من حجارة كبيرة في غاية المتانة تحت الأرض، وكانت تنقسم إلى كنيستين الأولى على اسم السيدة مريم وفيها إيقونة جميلة يسمونها المسكوبية، والثانية كنيسة مار نقولا[3] ويقال أن المنارة التي ينزل عندها عيسى عليه السلام هي التي تكون عند كنيسة مريم بدمشق[4].

ونستطيع أن نوجز وصف دمشق بهذه الخلاصة المختصرة من خلال ما أورده الرحالة مسلمين وأجانب زاروا دمشق في فترة الدراسة بما يلي:

تتميز شوارع وحارات دمشق القديمة بأنها ضيقة ذات بيوت متقاربة، وأهم شوارعها هو الشارع الرئيسي المسمى "الشارع المستقيم"، وقد لاحظ الرحالة المسلمين، سعة طرق الضواحي وضيق طرق أحياء المدينة داخل السور، فكتبوا أنها "كانت محفوفة من الجانبين برصيفين للمشاة" وربما كان ذلك ناتج عن ضيق المكان داخل السور وسعة منطقة الضواحي..

يذكر الرحالة الأجانب الذين زاروا دمشق أن فيها مباني جميلة وكبيرة مصفوفة جيداً، وساحات جميلة وشوارع عريضة وأن شوارع المدينة المسورة كانت مغطاة ومزودة بكُوَّات لإضاءتها نهاراً وبقناديل للإنارة ليلاً.

---

[1] ابن جبير، **الرحلة**، ص225.

[2] ابن شداد، **الأعلاق**، ج1، ق1، ص273.

[3] القسطالي، **الروضة الغناء**، ص101.

[4] الهروي، **الإشارت**، ص24، وانظر، الحموي، **معجم البلدان**، ج2، ص469.

وان الجزء الأكبر من شوارع دمشق مغطى بسقف أو بقبوات، والسقوف تسمح بمرور ما يكفي من النور، وعندما يحل الليل تضاء العديد من المصابيح الزجاجية في كل الشوارع وبين كل مصباحين 12 ذراعاً فتبدو وكأنها في وضح النهار، يقال أن هناك أكثر من ثلاثين ألف مصباح تضيء الشوارع كل مساء".

تبدو المساكن الدمشقية بأفنيتها ومياهها الجارية المنعشة والملطفة للجو، من المواضيع التي أثارت الفضول لدى الرحالة الأجانب أيضاً، إنها مساكن عالية جداً بنيت من خشب غير ظاهر للعيان، وقد غطيت أرضيتها بالفسيفساء.

ومن النادر أن تجد مسكناً بلا حوض ونافورة ماء، إنها حقاً رائعة وتوجد في كل منزل تقريباً نافورة ماء في وسط فنائه، ويجري الماء من بيت إلى آخر عن طريق مجارٍ تحت الأرض قد صممت تصميماً رائعاً، وعند هذه النوافير كانت تغسل كل الأشياء الموجودة في المنزل ويتجمع الماء المستخدم في مجارٍ أخرى.

وهكذا كان يعبر المدينة مجاري للماء النظيف وأخرى للماء المستخدم، ثم يُجمع الماء الكثير المستخدم لتشغيل الطواحين قبل أن يجري خارج دمشق ليسقي العديد من الأراضي، ومما لفت انتباه الرحالة الأجانب أيضاً عدم اهتمام الدمشقيين بالمظهر الخارجي للبيوت فظهر التباين بين الداخل والخارج، وهي خاصية تميز دمشق، فوصفت المنازل بالبشاعة جداً من الخارج، ولكنها من الداخل جميلة جداً، ومزينة بأعمال فنية جميلة من الرخام وحجر والزخارف والفسيفساء والساحات الداخلية الواسعة المليئة بالخضرة والطيور.

الفصل الخامس

الحياة الاقتصادية

الزراعة

الصناعة

التجارة

الزراعة

أحكام الأراضي في الإسلام:

أرض الخراج: وقد انطلقت هذه التسمية وهذا الحكم على الأراضي التي فرضت عليها ضريبة خراجيه وتجلى هذا الحكم على الأراضي بشكل واضح عندما رفض الخليفة عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه تقسيم الأراضي (كالفيء) على المقاتلين وترك ملكيتها للمسلمين عامة (المعاصرين وما يأتي بعدهم)[1] وأصبح هذا الحكم سائداً على الأراضي التي يستولي عليها المسلمين بمختلف الطرق[2] ويحدد مقدار الخراج والذي يوضع على بقية الأرض حسب نوعية إنتاجها وطريقة ريها والعمل بها[3] ولذلك وجد موظف مختص للإشراف على الأرض الخراجية ويسمى (مباشر الخراج) من مهامه إلزام رؤساء البلاد بتغليق أرضها والكرب[4] وبلغ مقدار خراج دمشق في عهد

---

[1] أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم (ت182هـ/798م) **الخراج**، د.ط، د.ت، ص35. وانظر: كاتبي، غيداء خزنة، **الخراج**، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، د.ت، ص124. وسيشار له لاحقا: كاتب، الخراج.

[2] الماوردي، **الأحكام السلطانية**، ص175. وانظر: الحنبلي، أبي الفرج عبدالرحمن ابن احمد بن رجب (ت795هـ/ 1392م) **الاستخراج لأحكام الخراج**، تحقيق، السيد عبداللّه الصديق، د.ط، دار المعرفة/ بيروت، د.ت، ص4. وسيشار الحنبلي، الحنبلي، الاستخراج.

[3] الحنبلي، **الاستخراج**، ص71، وانظر:كاتبي، **الخراج**، ص 126.

[4] النويري، شهاب الدين احمد بن عبدالوهاب، (ت732هـ/1331م) **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق: مفيد قهية، د.ط، دار الكتب العلمية، بيروت، 1323هـ/2504م) ج8، =

الناصر محمد بن قلاوون[1] ثلاثون إلف درهم[2] وبعد أن جرى مسح الأراضي في عهد الناصر قلاوون وهو ما يعرف (بالروك الناصري)[3] سنة 713هـ/1313م قام ناظر الجيش[4] بتوزيع الاقطاعات وبقي خراج ضياع الغوطة والمرج من دمشق بالإضافة للضياع من دمشق للعرش خاصا للسلطان لا يقطع[5].

أرض العشر: وهي الأرض التي دخل أهلها الإسلام من العرب أو العجم أو التي فتحت عنوة وقسمت بين المقاتلين[6] وقد أضيف إليها الأراضي المسحة من أرض القوات وبعض أراضي الصوافي والخراج التي انتقلت ملكيتها إلى الأفراد بالإقطاع أو الشراء[7] ويحق لأهل هذه الأرض التصرف بها من بيع أو

=ص187. وكان يطلق المباشر مصطلح احمر واخضر ويعني بالاحمر الكرب وهو الحراثة وبالاخضر الزرع شتويا أم صيفيا. وسيشار له لاحقا النويري، نهاية الأرب.

[1] السلطان الناصر محمد بن قلاوون تولى السلطنة في دولة المماليك البحرية ثلاث مرات متتالية فكان يعزل ويعود للمزيد. انظر:ابن بغدادي، **النجوم الزاهرة**، ج9، ص240.

[2] مكاحلة، نهى، **الزراعة في بلاد الشام في العصر المملوكي**، ط1، المركز القومي للنشر، اربد، 1429/2008م، ص71 وسيشار له لاحقا: مكاحلة، الزراعة في بلاد الشام.

[3] الروك: معناه مسح الأراضي الزراعية لتقدير الخراج المستحق عليها لبيت مال المسلمين وهي مأخوذة من كلمة روش ومعناها قياس الأرض بالحبل. للمزيد انظر. المقريزي، **السلوك**، ج2، ق1، ص146.

[4] ناظر الجيش: من حقه النظر في حالهم وتجديد من يرى فيه المصلحة والكفاية والقدرة وحرام عليه أن يتجهز عاجز الفقراء وعليه الدفاع عنه بما يمكنه وكذلك يلزم القلاصين في الاقتطاعات بالفلاحة. للمزيد انظر: السبكي، **معيد النعم**، ص34.

[5] مكاحلة، **الزراعة في بلاد الشام، ص73.**

[6] الماوردي، **الأحكام السلطانية**، ص187.

[7] أبو يوسف، الخراج، ص58.

رهن أو توريث مقابل عشر غلتها الذي يؤخذ كزكاة عنها[1] ومن الأراضي العشرية بعض أراضي دمشق حيث بلغ محصل العشر منها في عهد الناصر بن محمد بن قلاوون ستمائة ألف دينار[2].

ارض الموات: وهي الأرض الخراب الدارسة[3] والتي لم يملكها أحد وليست بيد أحد ولا أثر لبناء أو زرع بها وليست مراعي دواب ولا حظيرة ولا محتطب لأهل قرية[4] وقد اعتبرت أيام الأيوبيين والمماليك كنوع من إقطاع التمليك[5] وكان السلاطين وأمراؤهم هم الذين يقومون باستصلاح هذه الأراضي لان غالبيتها كانت في حوزة الأمراء الإقطاعيين[6].

أنواع ملكية الأرض:

سادت في تلك المرحلة عدة أنواع من ملكية الأرض وهي:

الإقطاع: حيث ينقسم إلى عدة أقسام منها إقطاع الاستغلال وهو كان سائداً بشكل كبير في العهد الأيوبي والمملوكي ويتمثل في إقطاع الخراج وإقطاع العشر حيث أصبحت أرض الخراج والعشر تقطع للأجناد كالأرزاق بدل الرواتب وقد كانت معظم أراضي الشام وخراجها مقاسمة في مزارعة

---

(1) القرشي، يحيى بن ادم، (ت202هـ/ 817م) **الخراج**، تصحيح: أحمد محمد شاكر، ط.2، دار التراث، القاهرة، ص27، ص27، وسيشار له لاحقا: القرشي، الخراج.

(2) مكاحلة، **الزراعة في بلاد الشام**، ص73.

(3) أبو يوسف، **الخراج**، ص65.

(4) الماوردي، **الأحكام السلطانية**، ص231.

(5) مكاحلة، **الزراعة في بلاد الشام**، ص74.

(6) طرخان، إبراهيم علي، **النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط**، ط1، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1338هـ/1968م، ص75. وسيشار له لاحقا: طرخان، النظم الإقطاعية.

تقطع للأجناد فيستغلونها ويؤدون خراجها[1] وأقطعت في تلك الفترة أراضي العشر مع عدم جواز إقطاعها[2].

إقطاع التمليك: وفيه ملكية الأرض ملكية وراثية مقابل دفع العشر عن الإقطاع[3].

إقطاع الإرفاق: ويشمل إقطاع المعادن التي في باطن الاراض بالإضافة للتوابع والطرق ومقاعد الأسواق[4].

الوقف:

الوقف لغة حبس المال وتبيين المنفعة ويقصد به الأراضي والمنشآت التي يخصصها المسلمون وغيرهم للإنفاق على الأعمال الخيرية ودور العبادة والزوايا والفقراء[5] ويقسم الوقف إلى نوعين[6] وقف خيري وهو ما يتم إيقافه

---

[1] الماوردي، **الأحكام السلطانية**، ص253.

[2] يقول القلقشندي، هذا حكم الإقطاع في الشريعة وعليه كل عمل الخلفاء والملوك في الزمن السالف أما في زماننا فقد فسد الحال وتغيرت القوانين وخرجت الأمور عن القواعد الشرعية وصارت الاقتطاعات ترد من جهة الملوك على سائر الأموال من خراج الأرضين والجزية وزكاة المواشي والمعادن والعشر وغير ذلك. للمزيد انظر: القلقشندي، صبح الاعشى، ج13، ص117.

[3] الماوردي، **الأحكام السلطانية**، ص258.

[4] نفس المصدر، ص256. وانظر: **مكاملة، الزراعة في بلاد الشام**، ص78.

[5] عطوي، فوزي، **الاقتصاد والمال في التشريع الإسلامي**، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1408هـ/1988م، ص73. وسيشار له لاحقا: عطوي، الاقتصاد. وانظر: كرد، محمد كرد علي، خطط الشام، مطبعة الترقي، دمشق، 1345هـ/1926م ص153. وسيشار له لاحقا :كرد، خطط الشام.

[6] شلبي، محمد مصطفى، **أحكام الوصايا والأوقاف**، ط1، الدار الجامعية، بيروت، =

إيقافه من قبل الخلفاء والسلاطين والأتقياء والتجار والأمراء والأميرات للإنفاق على المنشآت الدينية والاجتماعية من مدارس واعتاق أسرى ومساعدة غير القادرين على الزواج وقد كانت هذه الأوقاف منتشرة بشكل كبير في دمشق. والوقف الذري وهذا الوقف يقوم بالإشراف عليه أبناء الواقف وذريتهم من بعدهم. وقد أشار الرحالة إلى كثرة الأوقاف في دمشق والتي انتشرت بشكل كبير في الفترة الأيوبية والمملوكية[1].

الملكية الخاصة:

بالإضافة إلى ما تقدم من أنواع الملكية فقد وجد في دمشق أراضي ملك خاص حصل عليها أهلها عن طريق الشراء أو التوريث أو إقطاعات التمليك ولا علاقة للدولة بهذه الأرض إلا فيما يتعلق بالضرائب المفروضة عليها[2].

ولقد حاول الظاهر بيبرس مصادرة جميع الأراضي والممتلكات الخاصة التي لا يوجد ما يثبت ملكيتها إلا أن علماء دمشق تصدوا له في هذه المسألة[3].

بيروت، = =ص4، 1402هـ/1982م.

[1] للمزيد حول ما يذكره الرحالة عن انتشار الوقف في دمشق انظر: ابن جبير، **الرحلة**، ص 245 و248 و250. وانظر ابن بطوطة، **تحفة النظار**، ص125. حيث يذكر أنواع الوقف المتعددة في دمشق.

[2] القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج13، ص 132. وانظر: طرخان، **النظم الاقتصادية**، ص 73.

[3] الشربيني، البيومي إسماعيل، **مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية** (عصر سلاطين المماليك)، ط1 الهيئة العامة للكتاب، تاريخ المصريين، 1997، ج1، ص85. وسيشار له لاحقا: الشربيني، مصادرة الأملاك. وانظر: أبو زهره، محمد، **محاضرات في**=

وقد قام الناصر حسن[1] بشراء العديد من أراضي قرى الغوطة الخصبة سنة 761هـ/1359م[2].

العوامل التي أدت إلى ازدهار الزراعة في دمشق:

ساهم اعتدال المناخ في دمشق على ازدهار الزراعة بها[3] بالإضافة إلى الأمطار الغزيرة التي عمت دمشق في معظم السنين وإن شحت في سنين أخرى[4] كذلك ساهمت نوعية التربة وخصوبتها على إنتاج مختلف أصناف الحبوب والفواكه والمنتجات الزراعية بشكل عام[5].

ومع ذلك ساهمت عوامل مضادة أخرى في التأثير على زراعة دمشق ومن هذه العوامل الكوارث الطبيعية[6] والقحط الذي يصيب البلاد في حال

=**الوقف**، معهد الدراسات العربية، مطبعة احمد مخمير، ط1، 1959، ص20، وسيشار له لاحقا: أبو زهره، الوقف.

[1] الناصر حسن تولى السلطنة مرتين وهو الناصر حسن بن الناصر محمد سنة 748هـ/1348م إلى 752هـ/1351م والثانية من 755هـ/1354م إلى 762هـ/1361م. للمزيد انظر: ابن تغري بردي **النجوم الزاهرة**، ج10، ص14، وص 235.

[2] مكاحلة، **الزراعة في بلاد الشام**، ص100.

[3] يذكر الإدريسي أن دمشق من اعدل بلاد الشام هواء. انظر. **نزهة المشتاق**. ص 366. ويذكر ابن جبير أن نسيم دمشق العليل يحيي النفوس. **الرحلة**، ص 234. وانظر، خير، **مدينة دمشق**، ص136. وانظر: كرد علي، **خطط الشام**، ج4، ص155.

[4] أبو كثير، **البداية والنهاية**، م7، ج14، ص77.

[5] كرد علي، **خطط الشام**، ج4، ص155. حيث يذكر الرحالة الفرنسيين أن دمشق تفاخر بان فيها كل الثمار التي تزرع في فرنسا وأن البن الذي يزرع باليمن ملائم لزراعته في دمشق.

[6] البغدادي، عبداللطيف بن يوسف بن محمد بن موفق (ت629هـ/1231م)، **الإفادة**=

شح الأمطار مما يؤثر سلباً على منسوب مياه الأمطار[1].

ناهيك عن العوامل البشرية وما أحدثته الحروب وحالات الحصار الذي عاشته دمشق والذي أدى بدوره إلى هجر أهالي دمشق لمدينتهم وتركهم لبساتينهم ومنازلهم[2] هذه العوامل بإيجابياتها وسلبياتها رسمت لنا وقع دمشق الزراعي في فترة الأيوبيين والمماليك.

الحاصلات الزراعية:

تشير كتب الرحلات إلى حاصلات دمشق بشكل عام فيقول الإدريسي إن دمشق وغوطتها من أهم الأراضي الزراعية وقد وصفت بالنضارة والجمال وهوائها العليل وأنها تنتج أطيب الفواكه والثمار[3] ولقد تجاوز عدد بساتين دمشق الخمسة آلاف وثلاثمائة وخمسة وأربعون بستان وخمسمائة وخمسين كرماً[4].

=**والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة في ارض مصر**، تحقيق: عبدالرحمن عبدالله الشيخ، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتب، القاهرة، 1998، ص148. وسيشار له لاحقا: البغدادي، الإفادة والاعتبار. وانظر: كرد علي، خطط الشام، ج4، ص150.

[1] كرد علي، مرجع سابق، ص 152. ويتسبب ذلك أيضا بحدوث افات زراعية وأمراض.

[2] الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان (ت748هـ/1348م) **تاريخ الإسلام**، تحقيق عمر عبدالسلام التدمري، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1418هـ1997، ج45 ص 32و33، وسيشار له لاحقا: الذهبي، تاريخ الإسلام. وانظر: **ابن كثير، البداية والنهاية**، م7، ج14، ص84.

[3] الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ص 362. وانظر. التطيلي، بنيامين، **رحلة بنايمن التطيلي**، ترجمة: عزرا حداد، ط1، بغداد، 1365هـ/2945م، ص157. وسيشار له لاحقا التطيلي، الرحلة.

[4] ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة**، ج2 ق1، ص13.

ويذكر ابن جبير أن البساتين تحيط بدمشق من كل جانب وأن خضرة الغوطة تمتد على امتداد البصر وأن بها الفواكه والرياحين الكثيرة حتى شبهها بالجنة على الأرض[1].

وقد ضرب ببساتين دمشق المثل لكثرتها وكثافتها[2] وأن البساتين بلغت من الكثافة حد لا يمكن معه مشاهدة المباني[3].

أما أهم المحاصيل التي أنتجتها دمشق سنمر عليها مروراً سريعاً كما وردت في المصادر الأخرى.

ومن هذه المحاصيل والتي ساعدت تربة دمشق ومناخها على انتشارها بكميات كبيرة، البقوليات والخضار[4] والأشجار المثمرة من زيتون ومشمش وكرمة وتين وأجاص وخوخ ولوز وتوت[5] بالإضافة إلى الأنواع المتعددة من الأزهار والرياحين[6] كما وتحوي دمشق الحدائق الجميلة المملوءة المملوءة بأشجار الفاكهة وتحيط الحدائق بالمدينة من جميع جوانبها[7].

---

(1) ابن جبير، **الرحلة**، ص234.

(2) الوهراني، **منامات الوهراني**، ص

(3) ابن بطوطة، **الرحلة**، ص121.

(4) قساطلي، نعمان بن عبده، (ت 1338هـ 1920م) **الروض الغناء في دمشق الفيحاء**، ط2، دار الانــد العربـي، بـيروت، 1102هـ/1982م ص116، وسيشار لـه لاحقا، قساطلي، الروض الغناء.

(5) البدري، أبي البقاء عبدالله (ت894هـ/1489م) **نزهة الأنام في محاسن الشام**، ط1، دار الانـد العربـي، بيروت، 1400هـ/1980م. ص 120 و127. سيشار له لاحقا: البدري نزهة الأنام. حيث يذكر بشكل مفصل غالب زراعات الشام.

(6) نفس المصدر، ص505.

(7) **Visit to the Holy places**.p109

إلا أن الزراعة في هذه المرحلة لم تشهد ذلك التطور وأن ما وجد من منتوجات زراعية مرده الأول إلى طبيعة الأرض وخصوبتها وتوفر المياه وبروز نوع من الاهتمام بالحدائق المنزلية ربما مرده لسد حاجة البيت المحلية.

وقد أدت ظروف عدة لتدهور الإنتاج الزراعي.

فالزراعة في المشرق العربي والإسلامي خضعت منذ القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر للميلاد) إلى نمط جديد في الإنتاج، وهو ما عُرف بالنظام الإقطاعي – العسكري، ويقضي هذا النظام، بأن يقطع السلطان كل قائد في جيشه إقطاعاً من الأرض بدلاً من المرتبات التي كان يتقاضاها من الدولة، وفي المقابل يتعهد هذا القائد، أي المُقطع، بأن يخضع للسلطان مباشرة، ويؤدي ما عليه من التزامات مادية واجتماعية وعسكرية.

وهذا النظام أطلق أيدي القادة والأجناد في الأرض والفلاحين الذين يعملون فيها، دون أن يكون هناك رقيب أو قانون يحاسبهم، اللهم إلا السلطان نفسه. وقد اكتمل تطبيق هذه النظم في مصر والشام في العصر المملوكي. وبغض النظر عن التفاصيل المتعلقة بهذا النظام، فأنه ألحق الكوارث بالأرض والفلاح. وقد تجلى ذلك في الضرائب الشرعية وغير الشرعية، النقدية والعينية، التي انتزعت من الفلاحين، فضلاً عن الطرق الوحشية التي كانت تجبى بها. وبالرغم من شكاوى الفلاحين، فإنها لم تصل في معظمها إلى السلاطين. وقد دفع هذا الاضطهاد الفلاحين إلى الفرار من الأرض إلى المدن، مما ترتب عليه خراب الأرض الزراعية من ناحية، وخلق المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والأمنية في المدن من ناحية أخرى. وبالإضافة إلى هذا، علينا أن نتذكر ما أصاب عناصر الإنتاج الزراعي من

تعاقب الأوبئة والطواعين والفيضانات والجفاف[1].

الصناعة:

نظراً لكون دمشق مركز استقطاب أقوام مختلفة ومحط رحالهم ومقر لهم، اجتمعت فيها أطياف مختلفة من البشر ساهمت في تطور الصناعة الدمشقية وترقت حسب حاجة المجتمع لها، بل تفوقت على غيرها من المدن في هذا المجال نظراً لرواج سوقها وإتقان آدابها ووضع أنظمة لها وروابط وثيقة.

وقد انحصرت المهن في أسر خاصة كتمت أسرارها واحتكرت آثارها.

ولصناعة دمشق أصول تعرف بالشد لها آداب وأنظمة وموظفون بقواعد معلومة تناقلها الخلف عن السلف[2].

وقد أثرت الحروب التي شهدتها دمشق (أثناء دخول الفاطميين) على أوضاع المجتمع المحلي وعلى تركيبته وخلقت أنماطاً سلوكية جديدة تتعامل مع هذا الدخيل الجديد عليهم والمختلف معهم عقائدياً فانخرط أصحاب المهن والحرف في تنظيمات خاصة بهم للدفاع عن أنفسهم ومدينتهم الأمر الذي اوجد نوع من التآلف والانسجام بين أرباب الحرفة الواحدة والعمل بروح الجماعة الواحدة للحفاظ على مكتسباتهم[3].

---

[1] عادل زيتون، **الحضارة العربية قراءة في قصة التدهور**، مجلة العربي، الكويت، العدد 605، 1/ ابريل 1430/4/6/2009 هـ، سيشار له لاحقا : زيتون، الحضارة العربية.

[2] صفوح، **مدينة دمشق**، ص158.

[3] سعد عبدالفتاح عاشور، **الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية**، عالم الفكر، الكويت، المجلد الأول، العدد الأول، ابريل، مايو، يونيو، 1980، ص95. سيشار له لاحقا: عاشور، الحياة الاجتماعية.

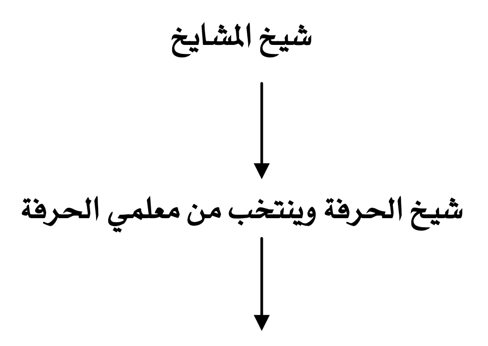
ورغبة في عدم دخول منافسين جدد لهم في حرفهم نظموا أنفسهم تنظيماً دقيقاً فلا يتم تدريب أو تمرين أي شخص على حرفة معينة إلى أن يكون قد أتى ليحل محل أحدهم على أن يقبل بالشروط التي يضعونها عليه[1].

ولكل حرفة تقاليدها الخاصة بها فلكل حرفة تنظيم يتكون من معلمين وصناع ومبتدئين على رأسهم شيخ الحرفة الذي يتم انتخابه من قبل معلمي الصنعة ضمن شروط خاصة، منها أن يكون من ذوي الأخلاق الحميدة والسمعة الطيبة ويمتاز بمعرفة أصول حرفته، وبعد اختياره لا بد من موافقة شيخ المشايخ شيخ الحرف كلها والذي بدوره يقوم بإعطائه العديد من النصائح عن كيفية متابعة أبناء حرفته والسهر على مصالحهم، وكانت مشيخة الحرف تنتقل بالتوارث من الآباء إلى الأبناء بعد موافقة معلمي الحرفة ولا تخضع مشيخة الحرفة لفترة زمنية محددة[2] وتالياً تصور بالرسم يوضح التنظيم المهني لحرفي دمشق حسب ما أورده معلوف.

---

[1] المعلوف، عيسى اسكندر، **صناعات دمشق القديمة**، محاضرات المجمع العلمي العربي، ط1، المطبعة الحديثة، دمشق، 1343هـ/1925م، ص284. وسيشار له لاحقا: معلوف، الصناعات الدمشقية.

[2] لابيدس، **مدن الشام**، ص265- 268. وانظر معلوف، **صناعات دمشق**، ص285.



معلم لا يعمل بيده وإنما لديه مجموعة من العمال يعملون لحسابه

معلم يعمل بيده مع مجموعة من العمال والإجراء والصناع في مكان واحد

معلم ترك العمل وأصبح تاجر يبيع إنتاج أبناء حرفته

المعلم

الصانع

الأجير

مطلق

(أجير مبتدئ يعمل في أي صنعة لاكتساب قوت يومه لم يتخصص بعد)

(يبقون في مرتبة الأجير وليس لديهم مهارات)

فاعل

(يبيع قوة عمله في مهنة البناء)

أجير مطلق

(يبيع قوة عمله يومياً لمن هو بحاجة إليها)

صناعة المنسوجات:

شاهد الرحالة دمشق وأعجبوا بفنونها وصناعتها ولكل منها رؤيته الخاصة في هذا المجال، إن الحديث عن الصناعة في دمشق خلال مرحلة الدراسة يحتاج لدراسة متكاملة لكن هنا نأخذ ما دوّنه الرحالة عن صناعات دمشق وانطباعاتهم عن المنتج الدمشقي في تلك الفترة دون الخوض في طرق الإنتاج والأيدي العاملة والمواد الأولية.

يشير الإدريسي إلى صناعة دمشق وأن بها الصناعات المختلفة التي لا تحصى ولا تعد، فجميع أنواع الملابس الفاخرة تصنع بها مثل الفرو والديباج النفيس الذي لا يوجد له مثيل في أقطار المعمورة، وقد عقد مقارنة بين المنتجات الدمشقية ومنتجات المدن الأخرى في العالم، فخلص إلى نتيجة أن إنتاج دمشق من الديباج الدمشقي مثلاً يفوق ما ينتج في بيزنطة وتستر وأصفهان وأن ما بها من طرز أفضل من طرز نيسابور وتنيس وهذه المدن التي يذكرها الإدريسي بخبرتها ومعرفتها بإنتاجها تعطي الدليل الواضح على جودة الصناعة الدمشقية في تلك الفترة، فقد قارنها مع أمهات المدن في المجال الصناعي، إن الازدهار الذي حققته دمشق جاء من شاهد عيان طاف العديد من بقاع العالم المعمور في ذلك العصر وشملت رحلته إفريقيا وآسيا وأوروبا فهي شهادة فريدة من نوعها تعكس التفوق العالمي للصناعة الدمشقية في ذلك العصر[1].

ويوجد في دمشق صناع مهرة برعوا في عدة فنون مثل: صناعة السلاح والمصاغ والزركش وغير ذلك وتعمل بها لطائف الأعمال من كل نوع

---

[1] الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ص367. وانظر. عوض، **الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام**، ص26.

وصناعتها تفخر على بقية صناع هذه المملكة إلا فيما قل مما في مصر والشام والعراق والروم فتستمد من لطائفها خصوصاً في الفضة والنحاس المطعم والزجاج المذهب وجلود الخراف المدبوغة بالقرظ المضروب به المثل[1] فلا يمكن تصور شيء في الدنيا إلا ويكون موجوداً بدمشق وأن جمال منتجاتها ودقتها تجعلك تنفق نقودك بلا إرادة حتى لو كنت تخفي نقودك في قصبة قدمك لما ترددت في كسرها وإخراج النقود لشراء ما يصنع بدمشق[2].

ولقد فاقت كميات ما يصنع بدمشق من الصناعات كبيرها وصغيرها كميات ما يصنع في أي مكان آخر في العالم في مختلف مجالات الإنتاج وبالذات الأقمشة الحريرية والقطنية والكتانية[3] وأن القطن متوفر في دمشق بكميات كبيرة جداً وهو من أجمل وأجود أنواع القطن بالعالم، بحيث عندما يشاهده الناس الذين لا يعرفون بالقطن ونوعيته لظنوا أن ما يشاهدوه حريراً ناعماً نظراً لنعومته ولمعانه ودقته وجماله[4] يوجد في متحف الفن والصناعة في فينا مجموعة من السجاجيد الدمشقية تعتبر من أجمل ما بقي من هذا النوع.

وسجاد دمشق.يمتاز برسومه الهندسية المترابطة كبلاطات منسقة عدا عن العروق والأشجار والعناقيد ذات الألوان الحمراء والزرقاء والخضراء والصفراء. والسجاجيد المعروفة حتى الآن ذات أرضية حمراء خمرية وإطارها ذو لون أزرق أو أخضر مصفر ولكل لون درجات وأطياف، مما يجعل الرسوم

---

[1] المنجد، **دمشق في مسالك الأبصار**، ص122.

[2] Visit to the holy places.p182

[3] **Visit to the holy places**.p142

[4] **Visit to the holy places**.p182

ذات أبعاد وأعماق. وسجاد دمشق مصنوع من خيوط الصوف والسداة من الصوف أيضاً. وفي فينا سجادة واحدة مصنوعة من خيوط الحرير.

وبعض نماذج هذا النوع من السجاد موجود في متحف المترو بوليتان وثمة سجادة كبيرة بقياس 9×6م موجودة في متحف فيكتوريا وألبرت في لندن. وكانت وبدون شك مخصصة لمكان رحب قد يكون مسجداً أو قصر وهي بلون أحمر خمري وفيها أشكال هندسية زرقاء مع بعض الأشكال المعينية المخططة شطرنجياً وفي مركز السجادة جامة كبيرة وتبدو في السجادة إشارات مميزة[1]. أما السجاد المصري فإنه لا يختلف كثيراً عن سجاد دمشق بل كثير ما يقع المختصون والمتحفيون في خطأ تحديد هوية السجاد العربي، إذ أن أسلوب دمشق والقاهرة والمغرب والأندلس أسلوب مستمد من مفاهيم الفن العربي الذي يجنح نحو الأشكال الهندسية أو الرمزية أو النباتية المحورة أو الكتابات مبتعداً ما أمكن عن الرموز والأشكال الحيوانية على عكس السجاد الفارسي الذي اهتم بالأشكال البشرية والحيوانية[2].

مما تقدم نلاحظ تشابه الفن العربي ما بين بلاد المشرق العربي والمغربي وهذا يعطينا التصور الواضح عن الصلات المشتركة بين الشعوب العربية وكذلك تأثير الرحالة في نقل ثقافات المشرق للمغرب وان هناك نشاط ملحوظ في هذه المرحلة لحركة الناس وحرية الحركة والتنقل والاستقرار ما بين بلد وأخر فعندما يستقر المغربي في دمشق ينقل ثقافة المغرب لها وعندما

---

(1) بهنسي، عفيف، **جمالية الفن العربي**، عالم المعرفة، الكويت، فبراير 1979، ص169.
سيشار له لاحقا : بهنسي، جمالية الفن.

(2) المرجع نفسه، ص170.

يعود يحمل ثقافة دمشق لتلك المناطق.

صناعة الزجاج:

اشتهرت في دمشق صناعة أخرى وهي صناعة الزجاج الذي أثار دهشة واستحسان ابن بطوطة الذي وصف صناعة الزجاج الدمشقي بقوله: (إن في دمشق صناعة الزجاج العجيبة)[1].

وانتشرت صناعة الزجاج المموه بالمينا المذهب وصناعة الزجاج العادي[2].

وقد زاد من تألق هذه الصنعة وازدهار هجرة العديد من الصناعيين الحلبيين إلى دمشق بعد الغزو المغولي لها واتخاذهم دمشق مقراً لصناعتهم[3] وقد صنعت مختلف الأواني الزجاجية في دمشق كالقوارير والزهريات والأكواب وتصنع مزخرفة أو خالية حسب الرغبة حيث كانت تزخرف بخيوط بارزة وتزين بالأقراص والكتابات والوريدات والطيور والحيوانات كما صنعت أدوات للوزن من الزجاج كان يطبع بها على الأواني لبيان أصحابها وتحمل أسماء الولاة والخلفاء وكانت القوالب التي يصنع بها الزجاج تتكون في أغلبها من الفخار بالإضافة للمعدن والخشب[4].

وأبدع الدمشقيون بصناعة المشكاوات الزجاجية المموهة بالمينا واعتبرت من أجود ما صنع في دمشق حيث اقتناها الأمراء والسلاطين وزينت

---

[1] ابن بطوطة، **تحفة النضار**، ص110. وانظر :زكار الموسوعة الشامية، ج38، ص 1216.

[2] العشي، **تطور صناعة الزجاج**، ص46.

[3] **السلوك**، ج1، ص551- 552.

[4] محمد، حسن زكي، **فنون الإسلام**، القاهرة، 1948، ص582. ويسار له لاحقا: محمد، فنون الإسلام.

بها المساجد وقد وضع أسماء بعض السلاطين على المشكاة وزخرفت بأشكال نباتات رقيقة وأحياناً ترسم هذه الزخارف الثانية على أرضية مذهبة[1].

ونظراً لازدياد الطلب على صناعة الزجاج الدمشقي فقد خصص شارعاً كاملاً لصناعة الزجاج وعرضه فمن أراد أن يقتني شيئاً من المنتجات الزجاجية الدمشقية لا يجد معضلة في التوجه إلى شارع الزجاج في دمشق والذي يحتوي على معرض متخصص في ذلك الوقت لا يحمل لوحات زجاجية معروضة حيث أطلق على ذلك الشارع اسم شارع طلي الزجاج[2].

وقد ذكر أحد الرحالة الأوروبيين الذين زاروا دمشق أنه يصنع في دمشق وما جوارها من الديار مرايا من المعدن التي تضخم الأشياء كما في الزجاج العاكس للنور.

وقد شوهدت إحدى هذه المرايا التي وجهت نحو الشمس فانعكس من الحرارة ما كان كافياً لحرق لوح من الخشب على بعد 15 أو 16 قدماً[3].

ويذكر (القزويني 682هـ/1283م) تقدم صناعة هذا الزجاج في دمشق ويصف ما في أسواقها من أكواب وأوان بديعة.

ولقد انتقلت مصنوعات دمشق إلى أسواق القاهرة، ومنها إلى العالم، وهكذا حملت صناعة الزجاج اسم دمشق غالباً، ومن أبهى المصنوعات الزجاجية (المشكاة) التي كانت تحمل دائماً اسم دمشق مع أن

---

[1] الألفي، أبو صالح، **الفن الإسلامي، أصوله وفلسفته**، ط1، دار المعارف، بيروت، ص278. سيشار له لاحقا: الألفي، الفن الاجتماعي.

[2] **A voyage beyond the seas**. p78

[3] زيادة، **دمشق في عصر المماليك**، ص111.

بعضها كان يصنع في القاهرة في عهد الظاهر بيبرس والناصر قلاوون[1].

إن استعمال خامات غالية كالذهب والفضة في طلاء الخزف الذي عرف بالبريق المعدني يمثل صفة خاصة انفرد بها الخزف الإسلامي، أو استعمال التذهيب فوق الطلاء أو الحفر والتخريم والميناء، مثّل دقة ومهارة فائقة عند الفنان المسلم حيث تمكّن من تحويل قطع الخزف إلى لوحات فنية أبدع فيها الفنانون بالدرجة الإبداعية نفسها في المخطوطات واللوحات المنفصلة، وكان كل ما يستعمله الإنسان المسلم في حياته اليومية من فناجين وأقداح وكؤوس وصحون وسلاطين وأكواب وأباريق وسُرج وسائل لإثارة إعجابه ودهشته وإبهاره. وترجع أقدم النماذج العربية المعروفة من الزجاج المذَّهب والملون إلى نهاية القرن الثاني عشر، وهي مصنوعة في سورية التي كانت مدنها – كما مر بنا – من أشهر مراكز فنون الزجاج في العالم.

من هذه النماذج كأس موجودة حالياً في متحف مدينة (شارت) الفرنسية، ويتميز بزينته المستندة إلى أشكال هندسية صافية ملونة بالأزرق تتوجها عبارات ذهبية مكتوبة بخط النسخ، وهي تغطي الكأس من كل الجهات.·خلال القرن الثالث عشر الميلادي أنتج فنانو الزجاج السوريون نماذج جميلة موزعة على أشهر متاحف العالم منها قنينة صغيرة مصنوعة في مدينة حلب عام 1250م وهي من مجموعة المتحف البريطاني، وترجع أهميتها إلى اعتمادها أكثر من ثمانية ألوان من الميناء مما يجعلها تحفة فنية في تاريخ فن الزجاج في العالم[2].

---

[1] بهنسي، **عفيف، جمالية الفن العربي**، ص165.

[2] بركات محمد مراد، **جماليات الفن الإسلامي تظهر في الخزف والزجاج والقاشاني**، مجلة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف، الكويت، العدد476، تاريخ 2005/5/15.=

لقد تقدمت صناعة الزجاج في دمشق تقدماً كبيراً وفاقت مثيلاتها من المدن نظراً لاهتمام الدماشقة في هذا الفن ونظراً لانحصار هذا الفن في عائلات محددة مما خلق جو من الإبداع والتميز في هذه الصناعة بهدف المحافظة على أسرارها أولاً وبهدف الكسب المادي ثانياً نظراً للاستعمالات الكثيرة للزجاج في تلك الفترة.

ومن أهم الأعمال التي قام بإنتاجها صناع الزجاج في سورية، تلك الأواني المزخرفة برسوم البريق المعدني وألوان الميناء الزجاجية، الأمر الذي عدّه الباحثون، عنواناً لمرحلة أطلق عليها: العصر الذهبي للزجاج السوري.

ويعتبر العصر الذهبي للزجاج السوري في الفترة الممتدة بين القرن العاشر والقرن الثاني عشر للميلاد، وأبرز ما يميز هذه الصناعة، إنتاج الأواني والأكواب الزجاجية ذات الزخارف البارزة، المضافة إلى القطعة أو المضغوطة منها أثناء الصنع بشكل يحيّر العقول بدقتها وإتقانها[1].

الصناعات المعدنية:

اعتنت دمشق بالصناعات المعدنية وتقدمت في هذا المجال حيث حوت مساجدها ومدارسها العديد من التحف الفنية النادرة والمصنوعة من أجود أنواع المعادن والأخشاب، ومن هذه النماذج نجد الأبواب والشمعدانات وكراسي العشاء والأواني وصناديق المصاحف والمحارب والأسلحة والثريات والحلي وقد اعتمدت زخرفة التحف بخاصة الأبواب على عنصر الإطباق

=سيشار له لاحقا : بركات محمد جماليات الفن الإسلامي.

[1] السبيني، عزيزة، **الزجاج الدمشقي فن وذوق وابداع**، صحيفة تشرين، دمشق، تاريخ 2008/2/16، سيشار لهه لاحقا: السبيني، الزجاج الدمشقي. انظر نماذج من الزجاج ص184.

النجمية التي امتازت بها في هذا العصر[1] وقد أثارت هذه التحف وجماليتها نظر الرحالة الذين دونوا انطباعاتهم عن جمالها وذوق صانعيها[2] أما النحاس فكان لها حوانيته الخاصة وبلغ من الإتقان والجودة درجة متقدمة جداً وصنع منه الطشوت والأباريق التي يخيل لمن يشاهدها أنها من الذهب لدقة صنعها وزخرفت بنقوش وأشكال مختلفة وصنع من الفضة الحلي الجميلة التي تسر لرؤيتها العين[3].

ونظراً لرواج هذه الصنعة فقد اشتغل بها ما يزيد عن أربع وعشرون ألفاً يعملون في صناعة النحاس بلغت دمشق من الشهرة في مجال الصناعة حداً فاق مثيلاتها ، فانطلق العدد الكبير من سكانها للاشتغال بالصناعة وقد صنعت الأطباق الذهبية المنزلية والزخارف الفضية ذات الأشكال الهندسية والرسوم النباتية والكثير من الزخارف الدمشقية حيث شاهد أحد الرحالة أعداداً كبيرة من الحرفيين في دمشق وربما كان العدد يحتاج إلى تدقيق أكثر إلا أننا نورده للدلالة على تقدم تلك الصناعة فيذكر أن في دمشق ما مجموعه خمسون ألفاً من الحدادين والحرفيين الذين يعملون بالذهب والفضة[4].

ولكون دمشق مركزاً علمياً متقدماً فقد برزت بها صناعة الأوراق والأقلام وكانت مركزاً مهماً لهذه السلعة وانتشرت حوانيتها في شوارع

---

[1] **الالفي، الفن الإسلامي**، ص288.

[2] ابن جبير، **الرحلة**، ص1.

[3] Visit to the holy places.p82

[4] **A voyage beyond the seas**.p77,p78

دمشق[1].

صناعة السيوف:

اشتهرت دمشق بعمل القواطع كالشفار والنصال والسهام والمحارب والمدي وكانت هذه تخرج من بين أيدي الصياقلة شديدة الصلابة مرهفة الغرار كثيفة مرنة ذات جوهر بديع التلوين والرسوم تغطي سطوحها الصقيلة خطوط دقيقة كأنها عروق سواد أو بياض فضية اللون متحاذية أو متقاطعة ذات أشكال مختلفة فمنها ما هو كالألياف المتعارضة في زوايا كثيرة أو كالعقود المنظمة ولقد أتقن الدمشقيون أسرار هذه الصناعة متفوقين فيها حتى أغلقت عن سواهم فلم يهتدوا إليها مع كثرة تفننهم ونجاريهم ومهارتهم.

ومن مميزات السيف الدمشقي عدم تطرق الصدأ إليه ولينه وتموجاته فلا يقبل الكسر عند الضرب وكأن النصل عبارة عن كتلة واحدة مما يثبت النصل الدمشقي بثبات جوهره عند تحضيره وقد مزج فولاذ بمعدن آخر وهو يسمى النيتان يستخرج من ناحية روما.

اشتهرت السيوف الدمشقية بجودة صقلها ومرونتها ومتانة فولاذها ونظراً لما تتمتع به السيوف الدمشقية من شهرة عالية كانت تقدم هدايا للملوك والسلاطين.

فقد أهدى السلطان بيبرس البندقداري سلطان المغول البارق في تركستان السيوف الدمشقية وبقيت هذه الصناعة رائجة في دمشق بالإضافة لغيرها من الصناعات إلى أن غزى تيمورلنك دمشق فساق الكثير من صناعها والماهرين بها إلى خراسان حيث أقام المصانع والمباني هناك ودمر دمشق[2].

---

[1] ابن بطوطة، **تحفة الأنظار**، ص114

[2] معلوف، **الصناعات الدمشقية**، ص286.

الصناعات الغذائية:

أنتجت دمشق مختلف أنواع الفواكه التي كانت متوفرة فيها على مدار السنة ونظراً لكثرتها فقد أتقن الدمشقيون فن الاحتفاظ بهذه الفواكه على مدار السنة ومن سنة لأخرى[1] وقد حملت فواكه دمشق إلى مختلف البلدان[2].

وقد استغل أهل دمشق تواجد الثلوج على الشجر والتي تستمر إلى شهر حزيران، في المحافظة على منتجاتهم من الفواكه حيث كانوا يحملون الثلوج من الجبال ويأتون بها لدمشق ليحفظوا المواد الغذائية بها[3].

وقد احتفظوا بها في إناء الثلج في الكهوف لمدة طويلة[4] وقد امتلكت دمشق أفضل أنواع الأسواق وأجودها ببيع الخبز واللحوم على مختلف أنواعها باستثناء الخمور لأن العرب المسلمون لا يشربونها والخمر من الأشياء النادرة في دمشق[5].

وقد انتشر باعة الطعام في دمشق الذين يقطعون الشوارع ذهاباً وإياباً ومعهم الطعام المطهو وتحته المواقد مشتعلة يبيعوه ساخناً للمشترين[6].

ونظراً لانتشار أماكن طهي الطعام في شوارع دمشق فإن أهالي دمشق لم يطهوا طعامهم في المنازل، بل اعتادت غالبيتهم العظمى مهما بلغ

---

(1) **Visit to the holy places**.p143

(2) الحموي، **معجم البلدان**، ج2. ص465.

(3) البدري، **نزهة الأنام**، ص206. **Visit to the Holy places**.143

(4) **A voyage beyond the seas**. p78

(5) **Visit to the Holy places**.p183

(6) **Visit to the Holy places**.p 143

ثرائهم أو فقرهم شراء ما يحتاجونه من طعام من الأطعمة التي تختص بها شوارع دمشق[1] حيث يذكر أحد الرحالة الأوروبيين الذين زاروا دمشق أن جميع المأكولات تباع في الشوارع من خبز وماء ولحم على اختلاف أنواعه، وأن الفواكه منتشرة فالناس لا يطبخون في بيوتهم بل يحضرون كل ما يرغبون به من الطهاة في الشوارع حيث يقوم في كل البلاد طهاة أمامهم اللحوم المنوعة يطهون كل ما يرغب به الإنسان والكمية التي يريدها من لحم أو غيره من الطعام، يدخلون في أنحاء المدينة يبيعون ما عندهم حاملين متاعهم من مواقد ومقالي يغلى فيها الماء واللحم وكبشة صغيرة وملح وكل ما هو لازم على موائد لكل منها أربع أرجل يركزها الواحد على رأسه أمام الزبائن فيجلسون على أرصفة الشوارع ليأكلوا على مهلهم والبائع ينتظر ويشربون الماء القراح وأن الأسعار بدمشق رخيصة حيث لا ينفقوا شيء كثير على مأكلهم ومشربهم وثيابهم[2] ونظراً لانتشار مهنة طهي الطعام في دمشق فمهما وصلها من أعداد البشر سيجدون طعاماً جاهزاً حتى لو أتى مئة ألف رجل دفعة واحدة سوف يجدون طعاماً يكفيهم جميعاً[3].

لقد اعتنى أهل دمشق بملبسهم فأنتجوا أجود أنواع الثياب والملبوسات واهتموا بمأكلهم فا أنتجوا أطيب المأكولات والحلويات[4] واهتموا كذلك بصناعة العطور وبالذات تقطير ماء الورد حيث يصف أحد الرحالة صناعة ماء الورد أنها صناعة تقوم على خبرة عالية محددة بأشخاص

---

(1) **A voyage beyond the seas**. p77

(2) **Visit to the holy places**. p143

(3) **A voyage beyond the seas**. p77

(4) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ص363.

من 5- 8 حيث يملؤن خمسة عشر ألف برميل بماء الورد ولكل برميل ثلاثة وعشرون وحدة قياس وكانوا يبيعون جميع ما ينتجوا من ماء الورد فالطلب على هذه المادة شديد[1].

اختصر البدري في كتابه "نزهة الإنام" دقة ورونق صناعة دمشق بعدة سطور نقتبسها للفائدة فهو يقول:

ومن محاسن دمشق ما يصنع فيها من القماش والنسيج على تعداد نقوشه وضروبه ورسومه ومنها عمل القماش الأطلس بكل أجناسه وأنواعه ومنها عمل القماش الهرمزي على اختلاف أشكاله وتباين أوصاله ومنها عمل القماش الأبيض القطني المصور لأحياء الصور وأموات القبور وبها أيضاً عمل القماش السابوري بجميع ألوانه وحسن لمعانه وفيها تعمل صناعة الذهب المسبوك والمضروب والمجرور والمرفوع والممدود والمرصوع وفيها تعمل صناعة القرطاس بحسن صقله ونقاؤه، وفيها تعمل صناعة القرضية ودباغتها المرضية وفيها تعمل صناعة الزموط والاقباع وتحمل لسائر البلاد والضياع وفيها صناعة الحرير بالفتل والدواليب والسرير وفيها تعمل صناعة السلاح بما فيها من الأعاجيب والاقتراح وفيها تعمل صناعة الموشى والمدهون بما تحتار فيه النواظر والعيون وفيها تعمل صناعة النحاس من الضرب والتفصيل والنقوش التي تشرح صدر الناس وفيها صناعة ألواح الصقال ودهن ألواح صغار الكتب وجفان القصع وتفصيل القبقاب.

وأذكر هنا قول أبي هانيء الأندلسي على لسان القبقاب وأجاد ثم أفاد:

كنت هنا غصناً بين الأنام رطيبا   مائس العطف من غناء الحمام

---

[1] **A voyage beyond the seas**. p78

وغالب ما ذكرناه من هذه الصنائع تتبدل عليه أيادي الصناع من الواحد بعد الواحد أن ينيف على عشرة صناع حتى تتم[1].

إن كلمة "الفن" المتداولة اليوم تحمل معنى الصناعة نفسه في كتب المؤلفين العرب والمسلمين، ومع ذلك لم تكن الصناعة عند المسلمين نوعين، رفيعة وصغرى، بل إن جميع الصنائع هي آثار فنية. فلم يكن ثمة تمييز في قيمتها على أساس المنفعة، لأنها كانت نافعة وممتعة بطرافتها ودقتها وجمالها؛ وعلى العكس مما يبدو في آثار الفن التشكيلي الغربي (اللوحات والتماثيل) التي لا يُقصد من ورائها الاستعمال النفعي، بل التمتع فقط. وينحرف العمل الفني عن الفن إذا اقتصر الهدف منه على المنفعة. ولكن الفن الإسلامي – وكما أدرك ذلك بحق الباحثُ الكبير عفيف البهنسي – يوّحد بينهما فتبدو السجادة والمُنمنة والفسقية والإناء، ليست مجرد أشياء استعمالية يتحكم في صنعها الغرض النفعي والاستعمال، ولكن أكثرها آيات يتحكم في تنميقها ورقشها أو نقشها وتلوينها حس جمالي، أي إن الأثر الإسلامي كان فناً ومتاعاً في وقت واحد، ولم يتعارض في يوم من الأيام مع القيم الدينية والأخلاقية[2].

التجارة:

أولى حكام دمشق التجارة اهتمام خاصاً وعناية فائقة فشجعوا

---

[1] البدري، **نزهة الأنام**، ص 214.

[2] بركات محمد مراد، **الفنّان المسلم بين النافع والجميل والأخلاقي**، مجلة حراء، تركيا، السنة الأولى، العدد4، يوليو- سبتمبر 2006، ص43. وسيشار له لاحقا: بركات، الفنان المسلم.

التجارة الداخلية والخارجية البرية والبحرية وعملوا على تأمين طرق التجارة الداخلية والخارجية أيضاً سيما وأن النشاط التجاري مد خزينة الدولة بالأموال الطائلة التي مكنتها من مواصلة سياستها الخارجية المبنية على فكرة القضاء على الوجود الصليبي في العالم الإسلامي[1] وقد أدرك صلاح الدين الأيوبي أهمية التجارة فعمل على إلغاء المكوس التي كانت تفرض على التجار وأمن لهم الطرق والسكن وحافظ على حقوقهم ومكتسباتهم أياً كانت جنسيتهم، وظهر ذلك جلياً بالمنشور الذي أصدره وورد فيه "خرج أمرنا بكتابة هذا المنشور أهل القاهرة ومصر وجميع التجار المترددين إليها وإلى الساحل المقسم والبنية بأبواب المكوس صادرها وواردها خيره التاجر ويسفر ويغيب عن ماله ويحضر ويقارض وينجز مركباً وظهراً سراً وجهراً لا يحل ما شده ولا يحاول ما عنده ولا يكشف ما ستره ولا سئل عما أورده وأصدره ولا يستوقف في طريق ولا يشرق بيريقه ولا يؤخذ منه طعمه ولا يباح حرقه والذي اشتملت عليه المسامحة في السنة من العين مائة ألف دينار مسامحة لا يتوبها تأويل ولا ينحونها تحويل ولا يعثر لها زوال انتقال فآثمة ما قام دين القيمة" هذا المنشور انعكس على أرض الواقع فقد شهدت تلك المرحلة تبادلاً تجارياً نشطاً بين المسلمين والنصارى دون أن يتعرض أحد الطرفين للآخر معززين ذلك بالاتفاقيات التجارية التي وقعت بينهم[2].

وقد ذكر لودولف دي سخوم أن لانتشار الأمان في دمشق دوره البارز

---

[1] محمد مؤنس عوض، الأسواق التجارية في عهد الدولة النورية، **مجلة الدارة**، العدد الثالث، السنة السادسة عشرة، ربيع الآخر، جمادى الأول، جمادى الآخرة، 1421هـ. ص72. وسيشار له لاحقا، محمد مؤنس، الأسواق.

[2] أبو شامة، **الروضتين**، ج1، ص205.

في تعزيز الحركة التجارية نظراً لما زرعه ذلك الأمان من طمأنينة في نفوس التجار على بضاعتهم والتي وإن تركت لفترة طويلة في شوارع دمشق فلن تتعرض للأذى والسرقة[1].

ولعب موقع دمشق دوراً هاماً في التجارة العالمية بين الشرق الأقصى وأوروبا وبين الجزيرة العربية وآسيا الصغرى وكان لها علاقتها التجارية مع مختلف بلدان العالم وقد كانت دمشق نقطة تجمع لجميع ما يمر من مصر والعراق والحجاز واليمن والهند والصين وأوروبا فتجد بها كل منتجات تلك الدول وتجارها[2].

وقد كانت دمشق مركزاً لقوافل الحجيج القادم من بلاد فارس والعراق وآسيا الصغرى وإفريقيا حيث كانوا يتجمعون في دمشق حاملين منتجات بلادهم المختلفة لنجد سوقاً رائجة في دمشق[3].

كما أن دمشق كانت بمثابة الميناء البري لمنتجات بادية الشام وما حولها إذ يحمل إنتاج تلك المناطق إلى دمشق ومنها للسواحل ليصل إلى تصدريها[4].

وقد ساهمت جودة الصناعة الدمشقية كصناعة الزجاج والمنتجات

---

[1] زكار، الموسوعة الشامية، ج37 ص383.

[2] على منصور نصر شهاد، **العلاقات التجارية بين الخليج العربي والشام في العصر السلجوقي**، المؤتمر الدولي السادس لتاريخ بلاد الشام، دمشق، 12/10 تشرين الثاني في نوفمبر 2001، ص464.وسيشار له لاحقا :على منصور العلاقات التجارية.

[3] نفس المرجع، ص470

[4] خير، **مدينة دمشق**، 165

الحريرية والعطور في تفعيل حركة التجارة[1].

وقد استورد التجار الإيطاليين البضائع الدمشقية وصدروها إلى أوروبا[2]، حيث كان للتجار الإيطاليون في دمشق مكانة خاصة فحصلوا على سوق وأرض للبناء ومخازن وحمام ومخبز وكنيسة وفندق للتجار البنادقة وآخر للجنوبيين وخفضت الضرائب عليهم ووجد قنصل خاص بالبنادقة في دمشق[3] على الرغم من أن دول هؤلاء التجار كانت في حالة عداء مع المسلمين وحرب إلا أن المصلحة المشتركة لدى الطرفين لعبت دوراً أساسياً في توثيق التعاون التجاري بينهما[4].

التجارة الخارجية:

وصفت دمشق بأنها مستودع كبير لمنتجات الشرق والغرب بمعنى أنها كانت مركز تخزين وتوزيع العالم الشرقي والغربي والمحطة الأولى للبضائع القادمة من تلك البلاد[5]، وتمتعت مصر بالمركز الأول في التعامل التجاري مع دمشق إذ استوردت ما تنتجه دمشق من الزيتون والعطور وماء الورد الذي كان يعرف في مصر بماء الورد الشرقي أو الشامي لجودة

---

(1) Visit to the holy places p.181

(2) زكار، **الموسوعة الشامية**، ج37، ص382

(3) هايد، ف، **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى** في العصور الوسطى، ترجمة: احمد رضا محمد، ط1، الهيئة المثرية للكتاب، القاهرة، 1985، ج1، ص323. سيشار له لاحقا: هايد، تاريخ التجارة. وانظر :أ، أشتور، **التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الوسط في العصور الوسطى**، ترجمة: عبدالهادي عبلة، ط1، دار قتيبة، دمشق، 1985، ص305، سيشار له لاحقا: اشتور، التاريخ الاقتصادي.

(4) ابن جبير، **الرحلة**، ص341

(5) هايد، **تاريخ التجارة**، ص186.

صناعته[1] واستوردت كذلك المنتجات القطنية والحريرية والورق من دمشق التي اشتهرت بها مثل هذه الصناعات بشكل فاق المدن الأخرى كمية وجودة[2].

وقد استوردت دمشق من مصر أيضاً بعض الحاصلات المصرية من السكر والمصنوعات الجلدية والقمح في بعض سنين الجفاف[3].

أما العراق والحجاز واليمن فقد استوردت من دمشق الزيت والزيتون والصابون والحبوب والفاكهة لا سيما التفاح والروائح العطرية والمنتجات الحريرية والقطنية والديباج وماء الورد والسيوف الدمشقية[4].

واستوردت دمشق من العراق النحاس الذي كان يستخدم في صناعة دمشق بكثرة وبعض التحف والأرز والتمور[5].

ومن اليمن وعمان والحجاز استورد العنبر واللبان والتمور[6] أما أوروبا أوروبا فقد استوردت من دمشق السكر بأنواعه الناعم والمقطع أو المشكل

---

[1] لايبدوس، **مدن الشام**، ص51.

[2] البدري، **نزهة الأنام**،

[3] المقريزي، **المواعظ والاغيار**، ج1، ص162، 166. وانظر اشتور، **التاريخ الاقتصادي**، ص303، 307.

[4] الدوري، **تاريخ العراق الاقتصادي**، ص126. وانظر: كرد علي، **خطط الشام**، ج4، ص 157.

[5] الدوري، **تاريخ العراق الاقتصادي**، ص133.

[6] علي منصور شهاب، **العلاقات الاقتصادية بين الخليج العربي والشام في العصر السلجوقي**، المؤتمرالدولي السادس لتاريخ بلاد الشام، دمشق، 2001، ص 470.سيشار له لاحقا: شهاب، العلاقات الاقتصادية بين الخليج العربي والشام.

حلوى[1] والزيت الشامي والفلفل والبخور والتوابل والقرنفل وبعض الحاصلات الزراعية كالبطيخ والمشمش والفستق[2].

ازدحمت دمشق بالتجار البنادقة وكانت مستقراً لقناصل المدن الإيطالية وقد ظهرت البنوك والمصارف التجارية في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي في البندقية لتسهيل معاملات التجار واستخدمت الشيكات بدلاً من دفع النقود وكان لكل تاجر وكيل يمثل التاجر في أعماله كل هذه الأمور ظهرت في فترة الحروب الصليبية لتأمين حركة البضائع ما بين أوروبا ممثلة بالتجار البنادقة ودمشق عاصمة الدولة الأيوبية[3].

استوردت دمشق من أوروبا الحديد والنحاس والخشب والمنتجات الكتانية والصوفية وبخاصة البندقي الذائع الصيت[4] وقد أولت الدولة الأيوبية أهمية خاصة لاستيراد الحديد والنحاس والخشب نظراً لحاجة الدولة الأيوبية لها في عملياتها الحربية علماً بأنه قداتخذ قرار من قبل البابا يحرم التعامل مع الأيوبيين وتصدير تلك المواد لهم[5].

واستوردت بيزنطة وأرمينا وقبرص من دمشق الورق الشامي والزجاج والصابون والفراء[6] واستوردت دمشق من تلك المناطق الذهب والمجوهرات

---

[1] اشتور، **التاريخ الاقتصادي والاجتماعي**، ص307- 308.

[2] شارل ديل، **البندقية**، ص35. وانظر: زكار، **الموسوعة الشامية**، ج37، ص382.

[3] عاشور، **العلاقات بين البندقية والشرق الإسلامي**، ص211.

[4] شارل ديل، **البندقية**، 36

[5] عاشور، فايد حماد، **العلاقة بين البندقية والشرق الأدنى الإسلامي في العصر الأيوبي**، دار المعارف، ط1، 1980، ص283. سيشار له لاحقا: عاشور، العلاقات بين البندقية والشرق الإسلامي.

[6] المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ص181.

واللآلئ والحرير الطبيعي والأحجار الكريمة والحديد والفولاذ وبعض المنتوجات[1].

كما أن البضائع الهندية قد وجدت في دمشق فاستوردت دمشق من الهند والصين السكر والتوابل والفلفل والبخور والياقوت والصندل والعود وجوز الهند والكافور والقرنفل والعاج[2].

أما الصين فقد استوردت دمشق منها البهار والحرير الخام والصندل والكاغذ (الورق) واللباد والذهب والفضة والأسماك[3]، وصدرت دمشق إلى أسواق الهند والصين القطن والأقمشة والزجاج وماء الورد الذي أطلق عليه الزهر ودهن البيلسان[4].

لقد أكد الرحالة ابن جبير نشاط الحركة التجارية بدمشق بين العرب والفرنج عندما كان يرافق احد القوافل التجارية التي غادرت دمشق متجهة إلى مدينة عكا التي كانت تخضع للحكم الصليبي بقوله: "ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشعل بين الفئتين مسلمين ونصارى وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم شاهدنا في هذا الوقت الذي هو شهر جمادى الأولى من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك وهو من أعظم حصون النصارى وهو المعترض في طريق الحجاز والمانع لسبيل

---

(1) نفس المصدر، ص146- 148.

(2) شيخ الربوة، **نخبة الدهر**، ص153، حتي تاريخ سوريا ولبنان، ج2، ص278.

(3) شيخ الربوة، ص123، اشتور، **التاريخ الاقتصادي**، ص120- 129.

(4) شيخ الربوة، ص198، ابن طولون، **تاريخ المزه**، ص35، شار ديل، البندقية، 25، اشتور، ص128- 129، 3023

المسلمين على البر بينه وبين القدس مسيرة يوم أشف قليلاً وهو سرارة أرض فلسطين وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة يذكر أنه ينتهي إلى أربع مئة قرية فنازله هذا السلطان وضيق عليه وضاق حصاره واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم وهي الآمنة على غاية وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال وأهل الحرب مشتغلون بحربهم والناس في عافية والدنيا لمن غلب"[1].

نلاحظ أن الحياة الاقتصادية في دمشق اعتمدت على التجارة والصناعة والزراعة، واستأثرت التجارة والصناعة بالنصيب الأكبر في الاقتصاد؛ حيث كانت طرق التجارة العالمية تمر من خلالها، وقصد التجار الأوروبيون موانئ بلاد الشام للشراء والبيع، الأمر الذي عاد على دمشق بالخير الوفير. واتخذ السلاطين عدة إجراءات لتنشيط حركة التجارة وترغيب التجار بشتى الطرق للنزول في الموانئ التابعة لدولته، فخفض الرسوم المفروضة على التجار في بعض الموانئ وأسبغ حمايته على التجار، وأمّن بضاعتهم من السلب والنهب، ودعّموا علاقاتهم مع دول أوروبا ومدنها، فعقد معهم الاتفاقيات التجارية التي أسهمت في انتعاش حركة التجارة معهم.

---

[1] ابن جبير، **الرحلة**، ص341- 342. للمزيد حول النصارى واوضاعهم في بلاد الشام وما يتلقوة من حسن المعاملة، انظر: ابن تيمية، احمد بن عبدالحليم(ت 728هـ 1328م) الرسالة القبرصية، تحقيق:علاء الدين دمج، ط 2، دار ابن حزم، بيروت، 1410هـ1990م، ص53. سيشارله لاحقا: ابن تيمية، الرسالة القبرصية.

وضرب السلاطين الدنانير الخاصة بهم لتكون أساس التعامل التجاري، ومنهم من أبطل التعامل بالنقد البندقي والفلورنسي، وشجع الناس على استعمال نقوده التي سكّها بأن رفع سعرها ليكون لها قوة شرائية كبيرة تدفع إلى التعامل بها. غير أنهم احتكروا تجارة بعض السلع لمصلحتهم الشخصية: كالسكر، والفلفل، والأقمشة الواردة من الخارج، وهو ما أدى إلى ارتفاع سعرها ومعاناة الناس في شرائها. وامتدت إصلاحات بعضهم إلى الزراعة فعمد إلى العناية بالزراعة فقام ببناء الجسور، والقناطر، وإصلاح ما تهدم حتى لا تتعرض المحاصيل للهلاك بسبب نقصان المياه[1].

---

[1] علي، السيد علي، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ط.1، 1417هـ/1996م، ص 14. وسيشار له لاحقا : علي، العلاقات الاقتصادية.

الفصل السادس

الحياة الاجتماعية في دمشق

1- الفئات الاجتماعية من خلال نظرة الرحالة.

2- المؤسسات الاجتماعية.

3- المؤسسات التعليمية.

4- نقاط استرعت انتباه الرحالة في حياة المجتمع الدمشقي.

أ- إسهام المرأة في المجتمع.

ب- الوقف.

ج- العادات والتقاليد.

د- السلبيات والمآخذ.

الفئات الاجتماعية من خلال نظرة الرحالة:

يتكون المجتمع الدمشقي من مختلف الفئات الاجتماعية، فقد اختلطت عناصر بشرية جديدة هاجرت إلى دمشق نتيجة الظروف السياسية والاقتصادية التي سادت في تلك المنطقة، وقد بين عدد من الدارسين فئات المجتمع الدمشقي المختلفة في تلك الفترة، حيث تكون من فئة الخاصة وهم السلطان وأعوانه، وفئة العامة من صناع وفلاحين وتجار، وفئة رجال الدين والعلماء[1].

إلا أن هذه الدراسة والتي تتناول أوضاع دمشق الاجتماعية من خلال مصدر معين وهو كتب الرحلات سوف تعرض لفئات المجتمع التي ذكرها الرحالة.

من الملفت للنظر أن الرحالة المسلمين الذين زاروا دمشق قد اهتموا بأبرز فئة من المجتمع الدمشقي، أما باقي فئات المجتمع فمروا عليها مرور الكرام، وكان النصيب الأكبر من حديثهم يركز على إبراز دور العلماء والفقهاء ودور العلم في دمشق، وربما كان السبب في ذلك كون رحلاتهم إلى دمشق يغلب عليها الطابع البحثي والمعرفي فهم يسعون للتعرف على العلماء للتفقه على يديهم وليذكر أثناء عودته أسماء شيوخه ومدرسيه الذين التقاهم وسمع منهم[2]. أما الرحالة الأجانب الذين زاروا دمشق فقد اهتموا بفئة اجتماعية أخرى، وهي فئة الصناع الحرفيين حيث ركزوا على دور هذه الفئة

---

[1] شهدت هذه الفترة الحروب الصليبية والغزو المغولي الذي أدى إلى هجرة شبة جماعية باتجاه دمشق كما كان لدخول الأتراك والمماليك أثره بدخول عناصر جديدة للمجتمع الدمشقي.

[2] ابن جبير، **الرحلة**، ص 245، وانظر ابن بطوطة، **تحفة النظار**، ص126.

في المجتمع الدمشقي، وما تقدمه من إنجازات مختلفة على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي لمدينة دمشق[1].

فئات المجتمع الدمشقي التي ذكرها الرحالة:

1- العلماء ورجال الدين:

ركزت كتب الرحلات على فئات معينة من المجتمع الدمشقي ربما كان الدافع وراء ذلك انصراف الرحالة نحو مجال معين من مجالات الحياة وهو المجال التعليمي والديني حيث تظهر بشكل واضح فئة كبيرة ومؤثرة في المجتمع الدمشقي من خلال تلك الكتابات وهي فئة العلماء الذين شغلوا المناصب الهامة في تلك الفترة فمنهم القاضي والمدرس والفقيه والإمام إن أبرز ما يميز حديث الرحالة هو حديثهم عن علماء دمشق ودور العلم فيها[2].

فقد بلغ العلماء والفقهاء منزلة عالية في المجتمع الدمشقي وذلك بفضل الرعاية التي تلقوها من الحكام والسلاطين فولوهم المناصب الرفيعة فكان منهم القاضي والمحتسب والطبيب والمفتي والمدرس والإمام والخطيب والقارئ وكاتب الإنشاء وغيرها من الوظائف الهامة[3] وأضيفت لهم الألقاب للتشريف والتفخيم مثل "الشيخ البليغ فقيه زمانه وعالم عصره" أو "أنهيت إليه رئاسة العلم"[4] وجنوا الثروات الطائلة التي كان مصدرها من الأوقاف

---

(1) **A voyage beyond the seas**. p77 ، **Visit to the holy places**. p182

(2) ابن جبير، **الرحلة**، ص244- 245. وانظر: ابن بطوطة، **تحفة النظار**، ص125.

(3) سهيل زكار، "**ملامح الحياة الاجتماعية في دمشق**"، ندوة دمشق أقدم مدينة في التاريخ، نجاة قصاب وآخرون، ط1، دمشق، 1991، ص128. وسيشار له لاحقا: سهيل زكار، **الحياة الاجتماعية**.

(4) عاشور، **الحياة الاجتماعية** في المدينة الإسلامية، ص93- 94.

والأساس على المؤسسات العلمية والدينية أو على الأشخاص أنفسهم فيتوارثون المرتبات الأبناء عن الآباء ناهيك عما يتقاضوه من هبات ومرتبات سخية كانوا يتقاضونها من الحكام[1]. ولقد حظي العلماء باحترام العامة والخاصة من أبناء المجتمع الدمشقي وكانوا موضع تقدير واحترام لدى السلطة والمجتمع[2].

2- التجار والحرفيون:

أبرز الرحالة الأجانب الذين زاروا دمشق دور هذه الفئة ومدى تأثيرها الواضح في مجتمع دمشق فقد وصفوا أسواق دمشق وما بها من منتجات ينتجها حرفيون وتجار مهرة أبدى دهشتهم من دقة إتقان الصناع الدماشقة لمهنهم وعن كيفية ترتيبهم لبضائعهم في حوانيتهم وأنهم يعملون بشكل منظم ودقيق وذكر أن عدد من يعمل بحرفة معينة يفوق الألف شخص مثلاً كذلك وضحوا أنواع الحرف والمهن المنتشرة في دمشق في ذلك الوقت فذكروا أن هناك حرفيو النحاس وحرفيو الزجاج وصانعي الأطعمة والمجوهرات وصانع المنتجات وغيرها من المهن المنتشرة في دمشق[3].

وقد ذكر الرحالة في معرض حديثهم عن دمشق المهاجرين إليها وركزوا على المغاربة الذين حلوا بدمشق وبينوا أن أهل دمشق يعاملون المغاربة معاملة خاصة فهم يثقون بهم جداً أكثر من أهل البلد[4] وقد أوقفوا لهم

---

[1] سهيل زكار، **الحياة الاجتماعية**، ص129. وانظر:حسين خصاونة:طبقات المجتمع في بلاد الشام، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك.

[2] ابن بطوطة، **تحفة النظار**، ص114.

[3] **Avoyage beyond the seas** p.77, **Visit to the holy places** p.143

[4] ابن جبير، **الرحلة**، ص250، ابن بطوطة، **تحفة النظار**، ص124.

الأوقاف من أجل قضاء مصالحهم كما أن سبل العيش متوفرة لهم من خلال الوظائف المتوفرة في دمشق في تلك الفترة مثل توصيل الفتيان إلى أماكن دراستهم وإعادتهم أو حراسة طاحونة أو ناطور بستان[1].

ومن أراد منهم أن يتفرغ للعلم فكل شيء متوفر له فما عليه إلا أن يقدم إلى دمشق ليجد أن كل شيء أمامه ميسر لهذه الغاية[2].

لقد تمت الإشارة إلى انتشار المذهب الشيعي بدمشق بشكل كبير حتى أن ابن جبير يذكر ان عدد الشيعة يفوق عدد السنة هذا مع تشجيع الدولة للمذهب السني ووجود فئة خاصة من فتوة دمشق عملت على مقاومة هذا النفوذ بالقوة[3].

3- المؤسسات الاجتماعية:

أ- مؤسسات الصوفية: وهي الخوانق والربط والزوايا، هذه المؤسسات مؤسسات دينية تطورت مع تطور الفكر الصوفي وأخذت طابع اجتماعي ثقافي ويغلب عليها طابع الانقطاع للعبادة وطلب العلم[4] وقد ساهم

---

(1) ابن جبير، **الرحلة**، ص257.

(2) نفس المصدر، ص258- 259

(3) ابن جبير، **الرحلة**، ص 251

(4) الخانقاه والربط والزوايا.مسميات أطلقت على المسجد الصغير أو على المصلى وتطورت الزاوية حيث ارتبطت بالصوفية والخوانق والربط والزوايا مؤسسات دينية ارتبط نشوؤها بالزهد والإعراض عن الدنيا إلا أن هذه المؤسسات تطورت مع تطور الفكر الصوفي وطبعت بصيغة اجتماعية وثقافية والصوفية هم المعرضون عن الدنيا والمنشغلون بأغلب الأوقات بالعبادة وهم أهل الله وخاصته الذين ترى لهم الرحمة بذكرهم.السبكي، **معيد النعم**، ص119- 120.وانظر:ابن طولون، محمد(ت 953هـ/1546م) **القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية**، القسم الاول، تحقيق: محمد=

حكام دمشق بانتشار التصوف من خلال اهتمامهم بالصوفية وحبهم لرجال الصوفية والتواضع لهم والحرص على تأمين كل متطلباتهم وإغنائهم عن حاجة الناس فبنيت لهم الربط والخانقاوات في دمشق في أحسن المواقع وأفضل الأبنية حيث اشترى لهم نور الدين قصراً خاصاً بهم يحوي كل متطلباتهم وقد وصفهم ابن جبير بالملوك في هذه البلاد ويقصد دمشق فقد حصلوا على نعيم الدنيا والآخرة[1].

وقد انتشرت الربط وتمسى الخوانق بشكل كبير جداً ومن بعضها خانقاه على يمين الخارج من باب النطافين تعرف باسم بالشميعانية والخانقاه الخاتونية وخانقاه بالشرق الأعلى[2].

شهد عدد الصوفية تزايداً ملموساً لا سيما بعد ازدياد عدد الخوانق والربط والزوايا ونظراً لما أوقف عليها من أحباس ووقف وتنافس الأمراء والأميرات والأثرياء في تقديم الهبات إلى تلك المؤسسات الصوفية[3].

وقد لعبت تلك المؤسسات دوراً هاماً في دمشق وأثرت بشكل كبير سواء كان تأثيراً سلبياً أو إيجابياً على مجتمع دمشق حيث كان يتردد إلى تلك المؤسسات مختلف فئات المجتمع وربما كان الفقر والبطالة والحروب

=دهمان، ط1، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1401هـ/1980م، ص 283. سيشار له لاحقا: ابن طولون، القلائد الجوهرية

(1) ابن جبير، **الرحلة**، ص256.

(2) ابن بطوطة، **تحفة النظار**، ص11. تم ذكر الخوانقاه الموجودة في كتب الرحلات فقط أما عدد خوانق دمشق فهو كثير جدا.

(3) معن المقابلة، **المؤسسات الاجتماعية والثقافية في بلاد الشام في العصر المملوكي**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، 1992 م، ص86، سيشار له لاحقا: معن مقابلة، **المؤسسات الاجتماعية**.

الداخلية السبب الرئيسي الذي دفع الكثير منهم للإقبال على تلك المؤسسات الاجتماعية حيث يجدون ما يدفع عنهم الفقر ويهيئ لهم نوع من الأمان وقد كان من إيجابياتها الظاهرة اعتنائها بالفقراء والغرباء والأيتام وكانت بمثابة ملجأ لبعض العجزة وكبار السن والعميان[1] لم تقتصر خدمات المؤسسات الصوفية على الرجال بل قدمت خدماتها للنساء والمطلقات والأرامل والكفيفات والمنقطعات والعجائز[2] وأن بعض الواقفين اشترطوا أن تكون وقفياتهم التي يوقفونها على الخانقاوات موجهه للإنفاق على النساء الفقيرات المقيمات بالخانقاوات ومن يرد عليهن[3].

ب- **البيمارستانات:** وجد بدمشق ثلاثة بيمارستانات واحد قديم منسوب إلى دقاق بن تتش السلجوقي (ت 495هـ/1101م) وأخر حديث وهو الذي بناه نورالدين محمود والبيمارستان الثالث هو البيمارستان القيمري في الصالحية منسوب إلى الأمير سيف الدين القيمري (ت 654هـ/1256م)[4].

---

[1] ابوزيد، سهام مصطفى، قراءة في وثيقة وقف مجير الدين يعقوب ين السلطان الملك العادل سيف الدين ابوبكر محمد بن ايوي، الندوة الدولية دمشق في التاريخ، 1427هـ/2006، وزارة التعليم العالي السورية، دمشق، ط.1، ج1، ص570. سيشار له لاحقا : الندوة الدولية دمشق في التاريخ، 2006.

[2] يذكر أبو شامة في التراجم أن شيخة الصالحة عابدة المقيمة برباط زهرة خاتون وكانت امرأة عذراء مقعدة وعمياء مشهورة بالخير والصلاح قد توفيت. لمزيد انظر: أبو شامة، **تراجم**، ص229.

[3] حددت وقفية فاطمة خاتون على الخانقاه النورية ثلث أوقافها على النساء الفقيرات المقيمات بالخانقاه ومن يردج عليهن. انظر: معن مقابلة، **المؤسسات الاجتماعية**، ص103، وانظر: عاشور، **الحياة الاجتماعية**، ص121.

[4] الظاهري، **زبدة كشف الممالك**، ص43- 45.

وأشهر هذه البيمارستانات هو البيمارستان النوري كما ذكر ابن جبير والذي أقامه نورالدين محمد زنكي (ت 549هـ/1154م) ويعد مفخرة من مفاخر الإسلام[1].

يقع البيمارستان النوري وسط دمشق القديمة غربي سوق الخياطين في حي (سيدي عامود) إلى الجنوب الغربي من الجامع الأموي. تم إنشاؤه عام 549هـ/1154م وذاعت شهرته كأول جامعة طبية في الشرق كله، واستمر بدوره حتى أواخر القرن التاسع عشر وهو يمثل نموذجاً معمارياً فريداً يرجع إلى الفترة السلجوقية ومن ناحية المخطط وطراز العمارة والزخرفة، حين زار الرحالة ابن جبير البيمارستان في القرن الثاني عشر جاء على ذكر أساليب المعالجة فيه فقال: (الأطباء يبكرون إليه كل يوم ويتفقدون المرضى ويأمرون بإعداد ما يصلح لهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل إنسان، وللمجانين نوع خاص من العلاج)[2] وقد أوجد له زنكي الأوقاف التي تضمن استمراره في تأدية عمله على أحسن حال.

وقد وصف لنا ابن جبير البيمارستان وصفاً دقيقاً موضحاً طرق التعامل مع المريض من بداية دخوله إلى خروجه سالماً معافى فأوضح أن هناك سجل للمرضى يدون فيه أسماء المرضى وما يحتاجونه من غذاء ودواء حسب طبيعة مرضهم فيصف لهم الطبيب الغذاء والدواء المناسب وبين كيفية التزام

---

[1] ابن جبير، **الرحلة**، ص256. للمزيد انظر : المزيني، ابراهيم بن محمد، دمشق حاضرة الثقافة الطبية لقرنين من الزمان"السادس والسابع الهجريين/الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين" دمشق في التاريخ، 2006، ج2 ص74.

[2] هناء الدويري، **البيمارستان النوري أول كليات الطب في الشرق**، صحيفة الثورة، دمشق، العدد13504، تاريخ 2008/1/6، سيشار له لاحقا الدويري، **البيمارستان**.

الأطباء في دوامهم حيث يذهبون من الصباح الباكر لعملهم ويتفقدون مرضاهم ويجهزون ما يحتاجونه من الأدوية والأغذية حسب حالة كل مريض[1] وكذلك هناك قسم خاص لعلاج المجانين[2].

وكان طلبة الطب يتلقون علومهم على يد أساتذتهم في البيمارستان، إذ كانت تهيأ لهم الإيوانات الخاصة المعدة والمجهزة بالآلات والكتب أحسن تجهيز، فيجلسون بين يدي معلمهم بعد أن يتفقدوا المرضى وينتهوا من علاجهم، كما كان يفعل الطبيب أبو المجد بن أبي الحكم رئيس الأطباء في البيمارستان النوري الكبير، وهو أول طبيب عينه السلطان نورالدين لإدارة البيمارستان، حيث كان يتردد على المرضى في البيمارستان، يتفقد أحوالهم ويصف الدواء والغذاء لكل منهم، وبعدها يذهب إلى قلعة دمشق فيتفقد المرضى من أعيان الدولة، ثم يعود ثانية إلى البيمارستان فيجلس في قاعة الدرس وهي الإيوان الكبير، وكان يقرأ على التلاميذ ما يخطر له من بحوث ويبقى معهم عدة ساعات يناقشهم ويرد على أسئلتهم واستفساراتهم.

إن بيمارستان نورالدين كان يماثل القصور الملكية بترفه، ووسائل الراحة المتوفرة فيه، وأنواع الطعام الفاخرة التي تقدم للمرضى والمصابين، كما أن العلاج كان مجاناً للفقراء والأغنياء على حد سواء دون أن تكلف المرضى درهماً واحداً، بل كانوا يمنحون لدى خروجهم من البيمارستان ثياباً ونقوداً تكفيهم للعيش دونما اضطرار للعمل لمدة أسبوعين (مدة فترة النقاهة)[3].

---

(1) ابن جبير، ص255.

(2) نفس المصدر، ص256. وانظر : زكار، الموسوعة الشامية، ج38، ص1222

(3) عماد ممدوح عبدالحليم، **البيمارستان النوري بدمشق**، مجلة الوعي الإسلامي، =

ج- **الحمامات:** ارتبط وجود الحمامات في المدينة الإسلامية إلى دعوة الإسلام للنظافة والتطهر وقد شاع في المدينة الإسلامية عدم وجود الحمامات في البيوت مما أوجب التوجه إلى الحمامات العامة في المدينة[1] وقد اشتهرت مدينة دمشق بحماماتها في العصر الإسلامي والتي عرفتها منذ العصر الأموي وذلك لشهرتها بصناعة الصابون والعطور الطيبة وقد أدت كثرة الحمامات في دمشق إلى إيجاد نوع من التنافس بين أصحابها فحرص كل حمامي على إبراز محاسن حمامه وتقديم أكبر قدر من الخدمات لعملائه وقد استدعت حمامات دمشق دهشة الفرنج فانتقلت هذه الظاهرة من دمشق إلى أوروبا[2] يذكر ابن جبير أن الحمامات منتشرة في دمشق ويبلغ عددها مائة حمام[3].

وتعود ملكية الحمام في دمشق إلى نوعين إما ملكية خاصة لأحد الأشخاص بقصد الاستثمار التجاري، أو النوع الثاني فيكون وقفاً على جهة معينة وأغلب هذه الفئة من الحمامات تكون لأبناء السلاطين والأمراء وبعض الموسرين حيث يقومون بوقف الحمام على مدرسة أو مسجد أو أي جهة من جهات الخير العديدة[4] إن أهمية الحمام لم تقتصر على كونه مؤسسة لنظافة البدن مع ما لهذا الغرض من دلالات إلا أن الحمام أيضاً كان مركزاً اجتماعياً فهناك بعض المؤشرات الخاصة والتقاليد تتبع لزيارة الحمام فالمريض الذي يدخل الحمام يكون ذلك إيذاناً بشفائه والعريس والعروس

=العدد 522، تاريخ، 2009/4/2، سيشار له لاحقا : عبدالحليم، البيمارستان النوري.

[1] عاشور، **الحياة الاجتماعية**، ص188.

[2] نفس المرجع، ص119.

[3] ابن جبير، **الرحلة**، ص261.

[4] معن مقابلة، **المؤسسات الاجتماعية**، ص116.

يجب عليهما أن يدخلا الحمام قبل الزفاف وهذا يعطينا تصوراً عن المناسبات العائلية الهامة، كيف كانت حيث يكون الخروج من الحمام بزفة مشهورة محفوفة بمظاهر اجتماعية. واعتادت النساء أن يجتمعن في الحمام فيتناقلن أخبار الحي ويعرضن زينتهن[1] لقد تولت الحمامت دوراً اجتماعياً مهماً، أبعد من أعمال النظافة والطهارة والاستشفاء، وكان العمل بالحمام بالمناوبة بين الرجال والنساء ليلاً ونهاراً، فيه التقى الناس بلا كلفة فتحدثوا وتسامروا، وإلى الحمام كان يدخل العريس أو العروس قبل الزفاف وبعده، وغالباً ما حملت النساء إلى الحمام الأطعمة وأدوات الطرب والغناء، فقد كانت ساحة الحمام تتحول إلى حلبة للرقص وعرض الجمال، لذلك اعتاد الرجال الذين رغبوا في الزواج على إرسال نساء تخصصن في أعمال الوصف والتعريف إلى الحمامات[2].

د- **الأسبلة:** وهي من المؤسسات الاجتماعية التي حفلت بها المدن الإسلامية لتوفير ماء الشرب لعابري السبيل وظاهرة إنشاء الأسبلة والسقايات ازدادت منذ القرن السادس الهجري/الثاني عشر ميلادي وتسابق سلاطين وملوك بني أيوب ونساؤهم على إقامتها داخل مدينة دمشق أو على الطرق العامة عند الخانات والمحطات والنزل الواقعة على طرق التجار والحجاج[3] ووجد في مدينة دمشق وخارجها أعداد كبيرة من الأسبلة والسقايات وذلك لكثرة المياه الموجودة في كل ناحية وكل مكان في مدينة دمشق كما ذكر ياقوت الحموي والعمري وغيرهما والتي تأتي من خلال نهر بردى الذي

---

[1] عاشور، مرجع سابق، ص120.

[2] زكار، **الحياة الاجتماعية في دمشق**، ص122.

[3] ابن جبير، **الرحلة**، ص245.

يتفرع إلى سبعة انهر فتخترق أحياء دمشق وتزود أريافها وبساتينها وسبلها وحماماتها[1] ولكثرة ما في دمشق من سقايات لم تخلو سكة من سككها أو سوق من أسواقها من سقاية[2] وقد كان لتسييل المياه أوقات محددة فكانت عملية تسييل المياه غالباً طوال النهار من شروق الشمس حتى غروبها وتستمر حتى تمضي حقبة من الليل أما في شهر رمضان فكان التسييل يمر من وقت الغروب إلى ما بعد صلاة التراويح وكان يرى في الأسبلة النظافة التامة ويشترط فيمن يتولى التسييل شروط جسمية وخلقية خاصة كان يكون سالماً من العاهات والأمراض[3].

4- المؤسسات التعليمية:

أ- الجامع الأموي: كان المسجدُ هو النَّوَاة الأولى للمدرسة في الإسلام، فلم يكنْ مكان عبادة فحسب؛ بل كان مدرسة يَتَعَلَّم فيها المسلمون القراءة، والكتابة، والقرآن، وعلوم الشريعة، واللغة، وفروع العُلُوم المختلفة، ثم أقيمَ بجانب المسجد الكُتَّاب، وخُصِّص لتعليم القراءة، والكتابة، والقرآن، وشيءٍ منَ عُلُوم العَرَبيَّة والرِّياضة، وكان الكُتَّاب يُشْبه المدرسة الابتدائيَّة في عصرنا الحاضر، وكان منَ الكثرة حيث عدَّ ابن حوقل ثلاثمائة كتَّاب في مدينة واحدة من مدن صقلِّية، وكان منَ الاتساع أحياناً بحيث يضم الكتَّاب الواحد مئات وآلافًا منَ الطلاب، ومما يذكر في

---

[1] ياقوت، **معجم البلدان**، ج2، ص465. وانظر المنجد، **وصف دمشق في مسالك الأبصار**، ص 116.

[2] ابن جبير، **الرحلة**، ص246.

[3] عاشور، **الحياة الاجتماعية**، ص117.

تاريخ أبي القاسم البلخي أنه كان له كتَّاب يَتَعَلَّم به ثلاثة آلاف تلميذٍ[1].

تميز الجامع الأموي[2] منذ نشأته بكثرة أوقافه ومدرسيه. وقد استمر الجامع الأموي بالقيام بمهامه المختلفة، فاستمر التدريس فيه في مشهد الإمام علي بن أبي طالب والحسين بن علي وعائشة أم المؤمنين، وفي مشهد الكلاسة وأبي بكر وعثمان وعمر بن عبدالعزيز والكاملية وغيرها. وبقيت المدارس المنفصلة عنه بأوقافها والمتصلة به ببنائها، تقوم بمهامها التدريسية، مثل دار الحديث التقوية، ودار الحديث الحمصية، ودار الحديث العروبة، والزاوية المالكية، والمدرسة الرواحية، والمدرسة الغزالية، والمدرسة التاجية، والمدرسة السيفية، والمدرسة العزية[3]. كان الجامع الأموي ملتقى علماء دمشق بالعلماء الغرباء، وكانوا يتناظرون في رحابه بالعلوم المختلفة التي كانت سائدة آنذاك.

أما إذا جاء عالم غريب فلا يقبل علماؤها إليه إلا بعد ان يستمعوا لدرسه في هذا الجامع، فيعرفون من خلال ذلك قدره حق المعرفة ويطرحون عليه الأسئلة المشكلة لمعرفة مدى علمه، ولم تكن سمعته ولا ألقابه ولا مناصبه، لتعفيه من هذا الامتحان، فإن نجح فيه احترموه وأقبلوا عليه وأكرموه، وإلا أعرضوا عنه، فلا يسعه عندئذ إلا الرحيل[4] أما طريقة

---

[1] مصطفى السباعي، **روائع من حضارتنا**، ط1، دار السلام، القاهرة، 1418 هـ - 1998م، ط1، ص100، سيشار له لاحقا، السباعي، روائع حضارتنا.

[2] انظر مخطط المسجد المرفق، ص 181.

[3] ابن بطوطة، **تحفة النظار**، ص111 - 112. وانظر: السباعي، مرجع سابق، ص 100- 101.

[4] ملكة ابيض، **تنظيم التعليم بالمسجد الجامع بدمشق قبل نشوء المدارس**، مجلة=

التدريس فيه، فكانت تتم على شكل حلقات يتحلق فيها الطلاب حول المحدثين الذين يقرءون الحديث الشريف وهم جلوس على كراسي مرتفعة. أما الوعاظ ومدرسو القرآن فيستندون إلى سواري المسجد عند أدائهم لمواعظهم. وكانت عادة المدرس الواعظ، أن يجلس على كرسي مرتفع بعد أداء فريضة الجمعة إلى صلاة العصر، ويخصص درسه لرجال الحكم والعلم، ويراعى حال المستمعين من حيث اللغة المستخدمة[1] وقد تعددت حلقات التدريس في أرجائه، وكانت تلك الحلقات تعقد في صحنه وأروقته وداخل حرمه تحت قبته. وكانت أهم حلقاته التدريسية ما كان تحت قبة النسر التي كانت موقوفة لأعلم علماء دمشق، واعتبرت الدراسة تحتها بمثابة المرحلة العليا من الدراسة في وقتنا الحاضر. وكان التدريس تحتها يشمل عدداً من المواد، كالأصول والفقه والكلام والنحو والحساب والمنطق وغيرها[2].

ب- المدارس: قامتِ المدرسة بجانب الكتَّاب والمسجد، وتشبه الدراسة فيها دراسة الثانوية والعالية في عصرنا الحاضر، كان التَّعليم فيها

=التراث العربي، العدد22، السنة السادسة، كانون الثاني 1986/جماد الاول 1406، ص ص198- 210. سيشار له لاحقا: ابيض، تنظيم التعليم. وانظر: ابن جبير، **الرحلة**، ص 244، وانظر: الطنطاوي، علي، **الجامع الأموي في دمشق**، ط1، دار المنارة، جدة، 1410هـ- 1990م، ص59، وسيشار له لاحقا: الطنطاوي، **الجامع الأموي**.

[1] ابن بطوطة، **تحفة النظار**، ص111.للمزيد انظر: محمد بهجت البيطار، **المدرسون تحت قبة النسر**، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، عدد24، ج1، 1956، ص- ص 59- 63. سيشار له لاحقا: البيطار، المدرسون تحت قبة النسر.وانظر : ابيض، **تنظيم التعليم بالمسجد الجامع** ص198.

[2] نفس المصدر. ونفس الصفحة.

مَجَّانًا ولمختلف الطَّبَقات، وكانتِ الدِّراسة فيها قسمينِ: قسمًا داخليًّا للغرباء والذين لا تساعدهم أحوالهم المادِّية على أن يعيشوا على نفقات آبائهم، وقسمًا خارجيًّا لِمَن يريد أن يرجعَ في المساء إلى بيت أهله وذويه، أمَّا القسم الداخلي فكان بالمَجَّان أيضًا، يهيَّأُ للطالب فيه الطعام والنوم والمطالَعة والعبادة، وبذلك كانت كلُّ مدرسة تحتوي على مسجد، وقاعات للدِّراسة، وغُرَف لنوم الطلاَّب، ومكتبة، ومطبخ، وحَمَّام، وكانتْ بعض المدارس تحتوي فوق ذلك على ملاعب للرِّياضة البَدَنيَّة في الهواء الطَّلْق، ولا تزال لدينا حتى الآن نماذج من هذه المدارس التي غمرتِ العالَم الإسلامي كله، ففي دِمَشق لا تزال المدرسة النُّوريَّة التي أنشأها نورالدين زنكي، وهي الواقعة الآن في سوق الخَيَّاطين، ولا تزال قائمة تعطينا نموذجًا حيًّا لهندسة المدارس في عصور الحَضَارَة الإسلاميَّة، لقد زارها الرَّحَّالة ابن جبير في أوائل القرن السادس الهجري، فأعجب بها وكتب عنها[1]. وكانت المدارس متعددة الغايات، فمنها مدارس لتدريس القرآن الكريم وتفسيره وتحفيظه وقراءاته، ومنها مدارس للحديث خاصة، ومنها – وهي أكثرها – مدارس للفقه، لكل فقه مدارس خاصة به، ومنها مدارس للطب، ومنها مدارس للأيتام وكان في دمشق وحدها للقرآن الكريم سبع مدارس، وللحديث ست عشرة مدرسة، وللقرآن والحديث معا ثلاث مدارس، وللفقه الشافعي ثلاث وستون مدرسة، وللفقه الحنفي اثنتان وخمسون مدرسة، وللفقه المالكي أربع مدارس، وللفقه الحنبلي إحدى عشرة مدرسة، هذا عدا عن مدارس الطب والرباطات والفنادق والزوايا والجوامع، وكلها كانت مدارس يتعلم فيها الناس[2]. لقد

---

[1] السباعي، **روائع حضارتنا**، ص 101.

[2] السباعي، **روائع حضارتنا**، ص 105- 106.

أثارت كثرة المدارس في دمشق الرحالة فدعوا طلبة العلم من مختلف الأقطار لتوجه لها فسيجدون كل ما يساعدهم على تحقيق مطلبهم[1]. وسنورد مدارس دمشق التي ذكرها الرحالة في رحلاتهم حيث يذكر ابن جبير أن في دمشق ما يزيد على العشرين مدرسة[2] وهناك جدول يبين المدارس الوارد ذكرها في كتب الرحلات[3].

دور المرأة في الحياة العامة:

أظهرت كتب الرحلات دوراً بارزً ومميزاً للمرأة الدمشقية في مختلف مجالات الحياة فبالإضافة لكونها أم وربة منزل فقد اشتغلت بالعلم وحصلت على أعلى المراتب وأصبحت تجيز العلماء[4] ولعل أهم ما يلفت الانتباه في هذه الفترة هو الدور الكبير والفعال الذي قامت به المرأة في حركة البناء الحضاري هذه، فنراها تساهم في بناء المؤسسات الدينية والثقافية كالمدارس والرباطات والخوانق والترب، والمؤسسات الاجتماعية كالحمامات، والاقتصادية كالفنادق والخانات، مما يعكس دورها في الحياة الثقافية الدينية والحياة الاقتصادية الاجتماعية[5] ولقد سجل التاريخ الإسلامي نبوغ المرأة المسلمة وإسهاماتها المتميزة في حقول العلم والمعرفة، في العديد من الأقطار الإسلامية، في وقت لم يكن فيه للمرأة في المجتمعات الأخرى، أي

---

[1] ابن جبير، **الرحلة**، ص 258. وانظر، ابن بطوطة، **تحفة النظار**، ص122.

[2] ابن جبير، **الرحلة**، ص255.

[3] انظر ملحق الجداول.

[4] ابن بطوطة، **الرحلة**، ص126 حيث يذكر ابن بطوطة من بين من سمع له واجازة في دمشق عالمات دمشقيات.

[5] ابن جبير، **الرحلة**، ص 248.

إسهام يذكر، في أي حقل من حقول النشاط العقلي[1] وقد تم عمل جدول يبين بعض المنشآت التي أقامتها النساء في تلك الفترة[2].

إسهام الوقف في الحياة الاجتماعية:

أسهم الوقف بدور بارز في تطوير المجتمعات الإسلامية اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً وعمرانياً· فقد امتدت تأثيراته لتشمل معظم أوجه الحياة بجوانبها المختلفة، بما في ذلك حماية البيئة وتحقيق كل صور الأمن البيئي، إضافة إلى رعاية الفئات الضعيفة، وتشجيع العلم والعلماء، وإنشاء المكتبات والمعاهد والمدارس والكتاتيب الخاصة بتحفيظ الأطفال كتاب الله الكريم، وتشييد المستشفيات ورعاية المرضى، وتمويل الخدمات العامة، مثل إنشاء الطرق والخانات والأسبلة والآبار، بل إن اهتمامات الواقفين امتدت لتشمل النواحي العسكرية، مثل: إنشاء الأربطة والحصون، وتجييش الجيوش وتجهيزها للذود عن الديار الإسلامية، وهكذا شمل الوقف الإسلامي كل مناحي الحياة، بما في ذلك جوانب التنمية والمحافظة على سلامة البيئة، أي أنه لم يقتصر على جانب معين أو اتجاه واحد، بل اتسعت مجالاته قدر اتساع حاجات المجتمع والناس، وهذا الدور المتميز، الذي يشهد به التاريخ للوقف، حفظ للمجتمعات الإسلامية حيويتها وأسهم في ازدهار الخدمات فيها، حتى في عصور الانحسار[3].

---

[1] عبدالعزيز بن عثمان التويجري، صور من الاسهام العلمي للمرأة في التاريخ الاسلامي، **صحيفة الشرق الأوسط**، عدد9262، لندن، تاريخ 17 صفر 1425هـ- 7 إبريل 2004،

[2] انظر ملحق الجداول.

[3] محمد عبدالقادر الفقي، **دور الوقف الإسلامي في التنمية وحماية البيئة**، مجلة الوعي الإسلامي، الكويت، العدد 456، تاريخ 2003/9/1، سيشار له لاحقا الفقي، **دور=**

وكانت هناك أوقاف لإمداد الأمهات المرضعات بالحليب والسكر، ويذكر المؤرخون بإعجاب شديد أن من محاسن صلاح الدين الأيوبي أنه جعل في أحد أبواب القلعة بدمشق ميزاباً يسيل منه الحليب، وميزاباً يسيل منه الماء المحلى بالسكر، حيث تأتي إليهما الأمهات في كل أسبوع ليأخذن لأطفالهن ما يحتاجون إليه من الحليب والسكر[1].

فقد أمّن الوقف سكان المدن والمسافرين بالماء من خلال بناء الأسبلة وشمل الوقف الحيوانات والدواب أيضاً، فعينت لها أحواضاً لسقياها، طلباً للمثوبة، وأنشئت هذه الأحواض كمنشآت خيرية لخدمة الدواب على طرق المدينة، وعلى الطرق التي تربط بين المدن، خدمة للقوافل التجارية والمسافرين المتنقلين بين هذه المدن[2].

واستثمرت أموال الأوقاف في توفير الرعاية الصحية للحيوانات والطيور المريضة، بما في ذلك الطيور البرية، وهي ظاهرة لم يعرفها تاريخ العالم، إلا في بلاد المسلمين[3].

تنافس المسلمون في تخصيص الأوقاف لإطعام ذوي الحاجة من البائسين وأبناء السبيل والمغتربين في طلب العلم، أسهم الوقف في التنمية الاجتماعية في الحواضر والمدن الإسلامية.

فقد استغلت أموال الأوقاف في إيواء اليتامى واللقطاء ورعايتهم، وكانت هناك أوقاف مخصصة لرعاية المقعدين والعميان والشيوخ، وأوقاف

=**الوقف**.

[1] السباعي، **روائع حضارتنا**، ص 127.

[2] عثمان، **المدينة الإسلامية**، ص 251.

[3] الفقي، **دور الوقف**. مجلة الوعي الاسلامي، الكويت، ع 456، تاريخ 2003/9/1.

لإمدادهم بمن يقودهم ويخدمهم، وأوقاف لتزويج الشباب والفتيات ممن تضيق أيديهم وأيدي أوليائهم عن نفقاتهم، وأنشئت في بعض المدن دور خاصة حبست على الفقراء لإقامة أعراسهم، كما أنشئت دور لإيواء العجزة المسنين، والقيام على خدمتهم، وإضافة إلى ذلك، أقيمت الخانات لكي ينزل بها المسافرون في حلهم وترحالهم، وفي تنقلهم من منطقة إلى أخرى، وبخاصة إذا كانوا من الفقراء أو التجار الذين لا طاقة لهم بدفع إيجار السكن، كان لنظام الوقف الإسلامي أثر كبير في دعم خدمات الرعاية الصحية للمواطنين والسكان على اختلاف مذاهبهم ونحلهم، وقد خصصت بعض الأوقاف للإنفاق من ريعها على المستشفيات، على نحو ما نراه في وقف السلطان نورالدين زنكي، فقد قام بوقف مواد كبيرة على البيمارستان الذي بناه في دمشق[1].

وقد أسهمت الأوقاف الكثيرة التي كانت في فترة ازدهار الحضارة الإسلامية في تخفيف العبء الملقى على كاهل الدولة والمتعلق بتنفيذ المشروعات العامة كالمدارس والمعاهد والمستشفيات، وهي مشروعات تستنفذ معظم دخل الدولة[2] وقد تم عمل جدول يبين أنواع الوقف المذكور في كتب

---

[1] حسن عبدلغني أبوغدة، **دور الوقف الإسلامي في تنمية المجتمع**، مجلة الوعي الإسلامي، الكويت، العدد 493، تاريخ 2006/10/14، سيشار له لاحقا، أبو غدة، **دور الوقف**.

[2] عبدالله المعتوق، **نظام الوقف الإسلامي مظهر مشرق للتعاون والتكافل الإنساني**، جريدة القبس، الكويت، العدد 12169، التاريخ 2007/4/19، ص4. سيشار له لاحقا: المعتوق، **نظام الوقف**.

الرحلات[1].

العادات والتقاليد:

سجل الرحالة انطباعات هامة حول عادات وتقاليد أهالي دمشق معتمدين على مشاهداتهم المباشرة لتلك العادات والتي سيتم تقسيمها وعرضها حسب ورودها عند من زار دمشق خلال مرحلة الدراسة حيث سيتم التطرق لمجموعة من أحسن العادات والتقاليد التي كانت سائدة ما بين القرن السادس هجري/الثاني عشر ميلادي والقرن الثامن الهجري/الرابع عشر ميلادي.

1- العادات الدينية:

ظهرت في دمشق بعض العادات الدينية التي لفتت نظر الرحالة ودونوها ربما لاستحسانها لديهم ولدهشتهم واستغرابهم منها كونهم قدموا من مجتمعات مختلفة عن مجتمع دمشق ومن هذه العادات.

أ- إفطار رمضان: ساد في دمشق ظاهرة الإفطار الجماعي فلا يمكن أن يتناول شخص دمشقي إفطاره وحده حيث يقوم كل شخص بدعوة أبناء مهنته أو عائلته لتناول الإفطار معاً، فالأمراء والأعيان يدعون أصحابهم للجلوس معهم على مائدة الإفطار والتجار وعامة الناس يدعون إلى موائد إفطارهم أقاربهم وأسرهم وعائلاتهم، وقد بلغ فيهم الحرص على هذه العادة أن يقوم احد الأشخاص بحمل ما لديه من طعام فيقصد جاره أو قريب أو مسجد لكي يتناول إفطاره مع مجموعة من الناس بحثاً عن البركة ولا يفطر لوحده[2].

---

[1] انظر ملحق الجداول.

[2] ابن بطوطة، **تحفة النظار**، ص123.

ب- الاجتماع بالمسجد الأموي: عادة أخرى ظهرت في دمشق ولفتت انتباه الرحالة وهي الاجتماع في المسجد الأموي عقب بعض الصلوات المحددة مثل صلاة الفجر حيث يقرءون سبعاً من القرآن ويجتمعون بعد صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية يقرءون فيها سورة الكوثر إلى آخر القرآن وللمجتمعين على هذه القراءة رتبات يجري لهم ويبلغ عددهم ستمائة إنسان لهم كاتب يسجل من يحضر ويغيب فمن غاب قطع عنه المرتب بقدر غيبه[1].

ج- احتفال منتصف شعبان: حيث يوقد عمودان خاصان في صحن المسجد الأموي ليلة منتصف شعبان فيلوحان كأنهما قريتان مشتعلتان يفوق احتفال أهالي دمشق بهذه الليلة احتفالهم بليلة السابع والعشرين من رمضان[2].

د- تعظيم للحجاج ويوم عرفة: جرت العادة أن يخرج أهل دمشق لوداع واستقبال الحجيج فيخرج الجمع الغفير نساءً ورجالاً لتلقي الحجيج يصافحونهم ويتمسحون بهم وإخراج الذمم لفقراء الحجيج يتلقونهم أيضاً ويقدموا لهم الأطعمة، وهناك ظاهرة مميزة وهي قيام النساء بمناولة الحجيج قطعة من الخبز ليضعه بفمه فيقوم الحاج بعظها ثم تأخذها النسوة وتأكلها تبركاً بالحجاج ويدفعن مقابل ذلك نقوداً للحاج الذي يقوم بعض قطعة الخبز[3].

وربما ظهرت هذه العادة لصعوبة أداء مناسك الحج فينظر إلى الحاج تلك النظرة المميزة ويخرج أهل دمشق بعد صلاة العصر من يوم عرفة فيقفون بالمسجد الأموي ويقف أئمتهم كاشفي رؤوسهم داعين خاضعين خاشعين

---

[1] ابن جبير، **الرحلة**، ص244، ابن بطوطة، **تحفة النظار**، ص109.

[2] ابن جبير، ص244.

[3] نفس المصدر، ص259.

متسلمين البركة ويتوخون الساعة التي يقف فيها وفد الله تعالى وحجاج بيته بعرفات حيث يبقوا في خضوع ودعاء وابتهال وتوسل إلى الله تعالى بحجاج بيته إلى مغيب الشمس فينظرون كما ينظر الحجيج باكين على ما حرموه من ذلك الموقف الشريف بعرفات داعين الله أن يحقق لهم ذلك بالعام القادم[1].

هـ- تقبيل الرأس والمصافحة: ومن العادات التي دونها الرحالة ظاهرة تقبيل الرأس عند الدمشقيين الذين يقبلون رؤوس فقهائهم حال مشاهدتهم[2].

ومن آداب المصافحة تجدد لهم الإيمان وتستوهب لهم من الله الغفران لما بشر به الحديث المأثور عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في المصافحة فهم يستعملونها إثر الصلوات ولا سيما صلاة الفجر وصلاة العصر[3].

و- الاجتماع عشية: يجتمع أهل دمشق كل مساء في صحن المسجد الأموي تراهم ذاهبين وراجعين من شرق إلى غرب من باب جيرون إلى باب البريد منهم من يتحدث مع صاحبه ومنهم من يقرأ ويبقون على هذا الحال من ذهاب ورجوع إلى انقضاء صلاة العشاء الآخرة ثم ينصرفون وأكثر احتفالهم بالعشاء فيخيل لمبصر ذلك أنها ليلة سبع وعشرون رمضان لما يرى من احتفال الناس واجتماعهم فهي عادة يومية عندهم[4].

---

(1) المصدر نفسه، ص 260. وانظر:ابن بطوطة، **تحفة النضار**، ص124.

(2) ابن بطوطة، **تحفة النضار**، ص107.

(3) ابن جبير، **الرحلة**، ص269.

(4) ابن جبير، **الرحلة**، ص239، ابن بطوطة، **تحفة النضار**، ص107.

2- الكرم والضيافة:

لاحظ الرحالة تأصيل عادة الكرم والضيافة في نفوس الدماشقة فيذكر ابن جبير لو لم يكن بهذه الجهات الشرقية كلها إلا مبادرة أهلها لإكرام الغرباء وإيثار الفقراء ولا سيما أهل باديتها ، فانك تجد من بدار إلى بر الضيف عجباً كفى بذلك شرفاً لها وربما يعرض احدهم كسرته على فقير فيتوقف عن قبولها فيبكي الرجل ويقول لو علم الله في خير لأكل الفقير طعامي، وهم يشددون على هذه الناحية في تعاملهم مع الغرباء[1].

وقد لخص لنا ابن بطوطة كرم الدمشقيين فيما لقيه من عناية واهتمام واضح من أحد علماء دمشق عندما أقام عنده الذي أكرم ابن بطوطة وقال له أن داري دارك ودار أبوك وأخوك وكذلك ملازمة ومتابعة رجال السلطان شؤون المغتربين والوقوف على جلساتهم[2].

3- الطعام واللباس:

أورد ابن العربي إشارة بسيطة في حديثه عن المائدة الدمشقية فهو لم يتطرق لمحتوياتها إنما عرض طريقة إحضارها بواسطة مجرى مائي داخل فناء البيت بحيث لا يمكن للخدم مشاهدة الحريم[3].

ومن خلال رحلة ابن جبير نلمس أن الفواكه متوفرة في دمشق فكانت في متناول أهالي دمشق[4].

---

[1] ابن جبير، ص258.

[2] ابن بطوطة، **تحفة النضار**، ص123.

[3] **اعراب**، مع القاضي ابن عربي، ص1.

[4] ابن جبير، **الرحلة**، ص234.

ومن عادات أهل دمشق شراء الطعام الجاهز الذي يعد بالأسواق[1] كذلك اشتهر أهالي دمشق بالحلويات[2] وإعداد الفطائر[3].

أما الملابس فيتضح أنها كانت من المنتجات القطنية الصوفية نظراً لوفرة المادة الأولية ولاشتهار دمشق بصناعتها[4]. واهتم أهالي دمشق بملبسهم وزينتهم فهم ينتجوا أفضل أنواع الطرز والملبوسات.

4- عادات الزواج:

ورد من خلال ذكر ابن بطوطة لأوقاف الشام الحديث عن نوع خاص من الوقف لتجهيز الفتيات المقبلات على الزواج، وهذا يعطينا إشارة على أن تجهيز الفتاة للزواج من واجبات الأسرة الدمشقية، مما اوجب وجود هذا النوع من الوقف لمساعدة المقبلات على الزواج وتحديد ومساعدة أهلهن على ذلك هذه الإشارة.

وهذا النوع من الوقف يوضح لنا بعض من عادات الزواج والتي كانت سائدة في دمشق في تلك الفترة.

وكان هذا الوقف لمساعدة الأسر الفقيرة والمحتاجة لتيسير أمور الزواج وعدم تفشي ظاهرة العنوسة، وهذا نوع من التكافل الاجتماعي المحمود[5].

---

(1) Visit to the holy places.p.143

(2) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ص362.

(3) الوهراني، **منامات الوهراني**، ص25.

(4) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ص363.

(5) ابن بطوطة، **تحفة النظار**، ص122.

5- عادات القضاء:

ظهر واضحاً أن مصحف عثمان في المسجد الأموي كان مقصد كل مدعي ومدعى عليه في دمشق، حيث يتوجه إليه أهالي دمشق لحلف أيمانهم فيما يخص القضاء يظهر أن لهذا الجانب ميزة خاصة في القضاء الدمشقي فحلف اليمين في المسجد الأموي هو ما يمنح البراءة أو الإدانة[1].

كما كانت عقوبة ركوب الحمير والطواف بالأسواق هي من العقوبات الشائعة في دمشق وربما قصد بها التشهير أيضاً بالشخص المعاقب خصوصاً أن كان من ذوي المنصب والجاه وانقلب عليه السلطان أو القاضي[2].

6- في حالة الأوبئة والكوارث:

كان أهل دمشق (من مختلف الطوائف والمذاهب)، يخرجون إلى الساحات العامة والأماكن المباركة خاشعين متضرعين للدعاء والتقرب إلى الله لرفع البلاء عن مدينتهم، فعندما حل الطاعون بدمشق خرج أهل دمشق إلى مسجد الإقدام وصاموا ثلاثة أيام ولم يطبخوا في بيوتهم بل طبخوا بالسوق وبقوا على هذه الحالة ثلاثة أيام كان آخرها يوم الخميس حيث باتوا ليلتهم في المسجد في صلاة ودعاء للفجر المسلمين بقرآنهم واليهود بتوراتهم والنصارى بإنجيلهم ومعهم النساء والولدان حيث أقاموا إلى زوال يوم الجمعة وانصرفوا إلى بيوتهم[3].

---

[1] ابن جبير، **الرحلة**، ص242، ابن بطوطة، **تحفة النظار**، ص108.

[2] انظر ابن بطوطة، **تحفة النظار**، ص114.

[3] ابن جبير، **الرحلة**، ص268، وانظر: ابن بطوطة، **تحفة النظار**، ص120.

7- عاداتهم في الجنائز:

أ- أن الدماشقة يمشون إلى جنائزهم وهم يقرءون القرآن بأصوات شجية وتلاحين باكية بأصوات مرفوعة ومسموعة.

ب- يصلى على الجنائز قبالة المقصورة بالمسجد الأموي ولا يجوز الصلاة على جنازة خارج المسجد.

ج- يتم التوقف عن القراءة حال دخول المسجد إلا أن يكون المتوفى من أئمة المسجد أو سدنته فإنهم يستمروا بالقراءة إلى موقع الصلاة.

د- من الملاحظ أنهم يصلون فرداً فرداً وبعد ذلك يجلسون لقراءة القرآن.

هـ- كان للجنائز أناس مختصون يسمون نقباء الجنائز يذكرون الناس ويعرفوهم بمن يحضر وبالذات إن كان من كبار البلد وأعيانها حيث يطلقون الألقاب الخاصة بهم فينادوا على كل شخص بلقبه قبل الاسم وهذه الألقاب والمسميات لاقت استهجان الرحالة.

و- بعد ذلك يبدأ الوعاظ حسب رتبتهم فيذكروا ويعظوا الناس ثم يتم إنشاد الأناشيد بهذا المعنى ثم يختم ذلك بتعزية صاحب المصاب والدعاء له وللمتوفى وهذا مجلس ذكر نافع.

8- التنزه والترفية:

أ- عطلة السبت: اعتاد أهالي دمشق أن يخرجوا يوم السبت إلى المتنزهات فيوم السبت يوم عطلة عند أهالي دمشق ولا يخرجون للعمل وقد أشار القزويني لذلك بقوله: وأهل دمشق أحسن الناس خلق وخلقاً وزياً أميلهم إلى اللهو واللعب ولهم في كل يوم سبت الاشتغال باللهو واللعب وفي هذا اليوم لا يبقى للسيد على الملوك مجبر ولا للوالد على الولد ولا للزوج على الزوجة ولا

للأستاذ على التلميذ فإن كان أول النهار يطيب كل من هؤلاء نفقة يومه فيجتمع المملوك بإخوانه المماليك والصبي بأترابه من الصبيان والزوجة بأخواتها من النساء والرجل بأصدقائه فأما أهل التميز فيبحثون إلى البساتين ولهم فيها قصور ومواضع طيبة وأما سائر الناس فإلى الميدان الأخضر وهو محوط وفرشه اخضر صيفاً وشتاء من نبت فيه وفيه الماء الجاري. والمتعيشون يوم السبت ينقلون إليه دكاكينهم وفيها حلق المشعوذين والمساخرة والمغنيين والفصالين المصارعين والناس مشغولين باللعب واللهو إلى أخر النهار ثم يفيضون منها إلى الجامع ويصلون به المغرب ويعودون إلى أماكنهم[1].

أما ابن بطوطة فيقول: إن أهل دمشق لا يعملون يوم السبت عملاً وإنما يخرجون إلى المتنزهات وشطوط الأنهار وظلال الأشجار بين البساتين النضرة والمياه الجارية فيكون بها يومهم إلى الليل[2].

وقد أشار الرحالة الأجانب إلى ذلك فقد ذكروا أن خارج دمشق توجد الحدائق الغناء وهي جميلة ومزروعة بشكل منظم وجميل مليئة بالفواكه المختلفة وكل ما تحلم به من أنواع الفاكهة نجده بها وعندما تورق الأشجار تكون على درجة عظيمة من الكثافة حتى أن أشعة الشمس لا تخترقها كما يوجد بهذه الحدائق أعداد ضخمة من الأزهار حيث يقوم الرجال والنساء بالتنزه والاستمتاع بالطبيعة وإن رؤية هذه الأزهار والبساتين يبعث السعادة في النفس وتستحق التنزه والاستمتاع بها[3].

ب- وسائل الترفيه: اهتم أهالي دمشق بوسائل الترفيه داخل المنزل

---

[1] القزويني، **اثار البلاد وأخبار العباد**، ص191.

[2] ابن بطوطة، **تحفة النظار**، ص106.

[3] **Visit to the holy places** p.181-182

الدمشقي فعملوا منه متنزه للعائلة حيث عملوا الحدائق الداخلية واقتنوا الطيور داخل منازلهم والتي تدخل المسرات في قلوب أهل المنزل وتتوفر وسائل الراحة وألوان التسلية فيه، أما أقفاص الطيور المعلقة في ساحات المنازل فكان فيها من أنواع الطيور المختلفة مثل العندليب والسلوى والهدهد والغربان وطيور سوداء اللون وهناك نوع آخر يمكن تعليمه محاكاة كلام الإنسان فتجده يتكلم مثل البشر بمختلف الألسن[1].

9- العادات التي انتقدها الرحالة:

انتقد الرحالة بعض العادات السائدة في مجتمع دمشق ومنها مخاطبة أهالي دمشق بعضهم بعضا بالتسويد وامتثال الخدمة الطاعة وتعظيم الحضرة والتذلل بالسلام وأن أكثر حياتهم هزلاً والجد عندهم عنقاء مغرب والإيحاء بالركوع والسجود للسلام ويرى ابن جبير أن هذه العادة تخص القينات من النساء والإماء من الرقيق ويتساءل الرحالة إن كان هذا تعاملهم بينهم فبماذا يخاطبوا سلاطينهم فالأذناب والرؤوس عندهم متساوية.

ومن العادات التي انتقدها الرحالة عادة المشي والأيدي إلى الخلف قابضين الواحدة على الأخرى ويركعون للسلام على تلك الحالة المشبهة بأحوال العتاة مهانة واستكانة حتى أنهم يجدو بهذه المشية ما يميزهم عن غيرهم[2].

وانتقد الوهراني في مناماته وعاب على المجتمع كثير من الأمور وبين أوجه الفساد المستشرية بالمجتمع من خلال نصوص أدبية قيمة وقدم رؤية مخالفة لرؤية الرحالة الآخرين ومن الأمور التي ذكرها الوهراني في منامه:

---

[1] زكار، **الموسوعة الشامية**، ج 37، ص382- 383

[2] ابن جبير، **الرحلة**، ص268.

فساد القضاء، وانتفاء القيم، والمحسوبية والفوارق الطبقية، والأمراض الاجتماعية والأخلاقية كالزنا واللواط، وأدب مخاطبة السادة والأعيان، كما عرض لبعض القضايا الخلافية والسياسية كموقفه من بني أمية ومن الشيعة ومن المتصوفة والفاطميين والأيوبيين وغير ذلك من القضايا التي يمكن أن يستنتجها كل قارئ متمعن لتلك النصوص[1].

---

[1] للمزيد، انظر: الوهراني، **منامات**، ص- ص61- 71.

الجداول

جدول رقم (1)

ابواب دمشق المذكورة في كتب الرحلات

الرحالة الذين ذكروا الابواب	الباب	ملاحظات
الإدريسي وابن جبير وابن بطوطة	الجابية	ورد عند ثلاثة رحالة
الإدريسي وابن جبير	باب توما	ورد عند اثنين من الرحالة
الإدريسي وابن جبير	باب السلامة	ورد عند اثنين من الرحالة
الادريسي والهروي وابن جبير وابن بطوطة وأبو حامد الغرناطي	باب الفراديس	ورد ذكره عند خمسة من الرحالة
الإدريسي والهروي وابن بطوطة وابن جبير	الباب الصغير	ورد ذكره عند أربعة من الرحالة
ابن جبير وابن بطوطة	باب شرقي	ورد ذكره عند اثنين من الرحالة
ابن جبير	باب الفرج	أورده رحالة واحد
ابن جبير	باب النصر	أورده رحالة واحد

نلاحظ أن باب الفراديس حظي باهتمام واسع من قبل الرحالة فقد ذكر عند أغلب الرحالة، ثم يليه بالأهمية باب الصغير، ثم باب الجابية، وحظي باب توما وباب السلامة وباب شرقي بنفس الاهتمام حيث ذكر عند اثنين من الرحالة، إما باب الفرج وباب النصر فلم يرد ذكرهما إلا عند ابن جبير، كذلك أشار الرحالة الأجانب إلى وجود أبواب للمدينة لكنهم لم يسموها.

جدول رقم (2)

الأسواق والحوانيت عند ابن جبير

السوق	المكان	ملاحظات
حوانيت العطارين	باب جيرون	
حوانيت البقالين	باب الغربي	يوجد سماط لبيع الفواكه
حوانيت العطارين	باب الغربي	
حوانيت الخرزيين	باب قبلي	يوجد سماط الصفارين
القيساريات		مرتفعة كأنها الفنادق أبوابها كأبواب السور
السوق الكبير	من باب الجابية إلى باب شرقي	

جدول رقم (3)

الأسواق والحوانيت عند ابن بطوطة

السوق	المكان	ملاحظات
سوق السقاطين باعة الملابس القديمة	الباب الجنوبي	يشتمل حوانيت السقاطين
سوق الصفارين	ممتدة مع حذاء المسجد القبلي	من أحسن أسواق دمشق
سوق الوراقين	بالقرب من الباب الشرقي	فيه يباع الكاغد والأقلام والمداد
سوق البقالين		مخصص لبيع البقوليات كالفول والحمص والعدس
ودكاكين لعاقد الانكحة		
سوق الشماعين	على يمين الخارج من باب البريد	يوجد أيضا سماط لبيع الفواكه
دكاكين لكبار الشهود	ربما وجد لكل مذهب مجموعة من الشهود للقضايا التي تخص ابناء مذهبهم	وجود قاضي لكل مذهب

نلاحظ ان ابن جبير وصف الأسواق وتصميمها بينما ابن بطوطة ذكر الأسواق ومحتويتها من مواد وإن ركز على الصناعة وتجارة الورق والأقلام الذي يبين اهتمام أهالي دمشق بالأمور العلمية.

جدول رقم (4)

نماذج للاوقاف عند ابن جبير

نوع الوقف	أوجه الصرف
1- وقف للأيتام والصبيان	يصرف في رعاية شؤون الأيتام والصبيان وتعليمهم
2- وقف إحدى سواري المسجد الأموي	يأخذه المستند على السارية للمذاكرة أوالتدريس
3- وقف على المشاهد والمزارات	لكل مشهد ومزار وقف يصرف في سبيل المحافظة عليه
4- وقف في افتكاك الأسرى	يصرف من اجل افتكاك الأسرى وبالذات المغاربة
5- وقف للمغاربة	يصرف لتيسير حالة المغاربة في دمشق
6- وقف لطلبة العلم	يصرف على طالبي العلم من مختلف الأقطار الإسلامية الذين يقصدون دمشق
7- وقف المسجد الأموي	مختص بشؤون المساجد والمحافظة عليه

جدول رقم (5)

نماذج للاوقاف في دمشق عند ابن بطوطة

الوقف	أوجه الإنفاق
1- وقف للعاجزين عن أداء فريضة الحج	يعطى لمن يحج عن الإنسان العاجز كفايته
2- وقف تجهيز البنات إلى أزواجهن	يعطى لأهل الفتاة من اجل تجهيزها للعرس
3- وقف لفكاك الأسرى	يصرف للعمل على افتكاك الأسرى
4- وقف لأبناء السبيل	يعطى ابن السبيل مأكل وملبس يزود به لحين عودته لأهله
5- وقف لتعديل الطرق	يصرف في المحافظة على طرق دمشق
6- وقف الأواني	ربما يعطى لمن يعملون في خدمة أثرياء البلد سيما وان وضع العامل المادي يكون متردي وقد يفصله صاحب المنزل أو العمل في حال كسر انيه فوجد هذا الوقف ليحل المشكلة

من الواضح أن ابن بطوطة تطرق الى أنواع جديدة من الوقف غير التي ذكرت عند ابن جبير وربما كان لتكرار قدومه لدمشق أكثر من مرة في ذلك.

جدول رقم (6)

المدارس المذكورة في كتب الرحلات في دمشق

المدرسة	المكان	المصدر	المذهب	ملاحظات
النورية	دمشق	ابن جبير	حنفية	
النجمية	دمشق	ابن بطوطة	حنفية	
ابن عمر	الصالحية	ابن بطوطة	حنفي	لتعليم كبار السن
ابن منجا	الصالحية	ابن بطوطة	حنبلي	
العادلية	دمشق	ابن بطوطة	شافعي	
الظاهرية	دمشق	ابن بطوطة	شافعي	
الصمصامية	دمشق	ابن بطوطة	مالكي	
الشرابيشية	دمشق	ابن بطوطة	مالكي	

شهد العصر الأيوبي نشاطاً ملحوظاً في بناء المدارس وقد نشطت هذه الحركة من خلال مؤسسة الوقف التي شجعت ذلك ونلحظ أن هذه المدارس أتت أكلها وأثمرت نخبة من العلماء في مختلف المجالات في العهد المملوكي أيضاً[1].

[1] زيادة، نقولا، الحياة العلمية في بلاد الشام في ايام المماليك، مجلة التراث العربي، دمشق، العددان55- 56 نيسان وتموز 1994، ص 50. سيشار له لاحقا: زيادة، الحياة العلمية.

جدول رقم (7)

المدارس التي أنشأتها النساء في دمشق

المدرسة	المنشئ	المصدر
المدرسة الخاتونية الجوانية	عصمة الدين خاتون بن الأمير معين الدين أنر	ابن شداد ، الاعلاق، قسم دمشق، ص205 النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص507[1]
المدرسة الفرخشاهية	خطلخير خاتون ابنة إبراهيم بن عبدالله والده عز الدين فرخشاه	ابن شداد ، الاعلاق، قسم دمشق، ص 219 النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص431
المدرسة العذراوية	عذراء بنت نوالدولة شاهنشاه بن أيوب أخي صلاح الدين	ابن شداد ، الاعلاق، قسم دمشق، ص 261 النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص422
المدرسة الشامية الكبرى	الخاتون ست الشام بنت أيوب أخت السلطان صلاح الدين	النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج 2، ص 112 ابن شداد ، الاعلاق، قسم دمشق، ص 249
المدرسة الخاتونية أو القصاعية	خطلبش خاتون بنت ككجا	ابن شداد ، الاعلاق، قسم دمشق، ص 212 النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص434
المدرسة الماردانية	الاميرة الارتقية عزيزة الدين أخشا خاتون بنت الملك قطب الدين ايلغازي	النعيمي الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص454 ابن شداد ، الاعلاق، قسم دمشق، ص 227

---

[1] النعيمي، عبدالقادر بن محمد ، (ت927هـ 1521م) **الدارس في تاريخ المدارس**، تحقيق :إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت، 1410هـ 1990م،

المدرسة	المنشئ	المصدر
المدرسة الشامية الجوانية	الخاتون ست الشام	النعيمي الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص227 ابن شداد ، الاعلاق، قسم دمشق، ص233
مدرسة الصاحبة	الصاحبة ربيعه خاتون بنت ايوب أخت صلاح الدين	ألنعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج2، ص55 ابن شداد ، الاعلاق، قسم دمشق، ص257
المدرسة الميطورية	الست فاطمة بنت السلار	ابن شداد ، الاعلاق، قسم دمشق، ص 223 النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص464
المدرسة الدماغية	عائشة زوجة شجاع الدين بن الدماغ العادلي الذي كان من الأصدقاء المرقبين للملك العادل أبي بكر بن أيوب	ابن شداد ، الاعلاق، قسم دمشق، ص 261 النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص397
المدرسة الاتابكية	الحجة الاتابكية تركان خاتون بنت عز الدين مسعود	ابن شداد ، الاعلاق، قسم دمشق، ص251 النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص96
المدرسة المرشدية	عصمة الدين خديجة خاتون ابنة الملك المعظم عيسى الأيوبي	ابن شداد ، الاعلاق، قسم دمشق، ص 228 النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص443
المدرسة العادلية الصغرى في	كانت المدرسة في الأصل دار للأمير عز الدين عبدان الفلكي ثم	ابن شداد ، الاعلاق، قسم دمشق، ص 243

المدرسة	المنشئ	المصدر
العصرونية	نسبت لابن موسك، ثم ملكت هذه الدار الخاتون	
المدرسة الشومانية	خاتون بنت ظهير الدين شومان	ابن شداد ، الاعلاق، قسم دمشق، ص 242
الشامية	والدة الملك الصالح	ابن شداد الاعلاق قسم دمشق ص 241
المدرسة الشامية البرانية	ست الشام أخت صلاح الدين	المنجد' خطط دمشق، مجلة المشرق، ص63

جدول رقم (8)

الترب التي أنشأتها النساء في دمشق

الترائب	المنشئ	المصدر
التربة الخاتونية	عصمة الدين خاتون ابنة معين الدين أنر	ابوشامة، الروضتين، ج2، 16 ابن كثير، ج12، ص 317 النعيمي، ج2، 190
التربة الفاطمية	فاطمة بنت السنقر الطفدسي	ابن طولون، القلائد، ص 334
التربة الستية	الحاجة ست العراق ابنة الاشجع الملكي الناصري	ابن طولون، القلائد، ص 336
التربة الكاملية	الملك الكامل محمد بن الملك العادل ابي بكر بن ايوب	ابو شامية، الروضتين، ص 166 النعيمي، الدارس في المدارس، ج2، 212
التربة الحافظية	الخاتون ارغون الحافظية عتيقة الملك العادل ابي بكر ايوب	ابوشامة، الروضتين، ج2، 217 النعيمي، الدارس في المدارس، ج2، 189
التربة الكوكبائية	الخوندة ستيتة زوجة نائب الشام تنكز	المنجد، خطط دمشق، مجلة المشرق، ص56.
تربة امة اللطيف	العالمة امة اللطيف	المنجد، خطط دمشق، ص59.

من الملاحظ ان الترب لم تكن مكان لدفن الأموات فقط بل اشتملت على ربط وزوايا ومدارس ومساجد ولها أوقافها الخاصة بذلك وتؤدي دورا اجتماعيا رائداً في ذلك العصر.

جدول رقم (9)

الحمامات التي انشأتها النساء في دمشق

الحمامات	المنشئ	المصدر
حمام عذراء	عذراء بنت شاهنشاه بن أيوب بانية	الاربلي[1]، مدارس دمشق، ص 86
حمام ست الشام	ست الشام بنت أيوب أخت صلاح الدين	ابن شداد ، ج2 قسم دمشق، ص292

لعب الحمام دوراً هاماً في الحياة الاجتماعية فكان يلتقي به رجال الحي ويتدارسوا أوضاع حيهم وتحل الكثير من المشاكل خلال الجلوس في الحمام كما كان له دوره في الأفراح والمسرات فتلتقي النساء في الفترة المخصصة لهن ويتم خلال هذه الجلسات استعراض زينة النساء والتعرف على الفتيات من أجل الخطبة.

---

(1) دهمان، محمد احمد ، في رحاب دمشق، ط1، دار الفكر، دمشق، 1982، ص86.

الخاتمة:

اختلفت المشاهدات التي أوردها الرحالة وتباينت آرائهم حسب المنطقة التي أتى منها، فتباينت آراء رحالة المغرب عن رحالة المشرق.

فقد ركز رحالة المشرق على المزارات وقللوا من دور المسجد الأموي حيث يذكر الهروي أنه شاهد مساجد تتقدم عليه من ناحية العمران ومن ناحية كونه مركز علم يقصده طلبة العلم من مختلف الأقطار الإسلامية.

أما الرحالة المغاربة فقد ركزوا على الجانب العلمي والتعليمي، وأبرزوا دور دمشق في النهضة العلمية التي يشهدها العالم وأنها مقر العلم ومنتهاه، وفيها كل ما يحتاجه طالب العلم، فما عليه إلا أن يتفرغ لعلمه.

أما الرحالة الأجانب فقد ركزوا على جانب حضاري آخر وهو الصناعة والتجارة، حيث بينوا أن صناعة دمشق تفوق غيرها من الصناعات وبها كل ما يخطر على بال البشر وان بها من السكان ما يفوق عدد سكان بعض المدن الاوروبية وبها أعداد كبيرة من الصناع المهرة.

ومن أهم النتائج التي توصل إليها الباحث وتجيب عن بعض التساؤلات المطروحة عن إمكانية اعتماد كتب الرحلات مصدراً لدراسة تاريخ دمشق في تلك الحقبة الزمنية والتعرف على الأوضاع الحضارية والاجتماعية لدمشق من خلال هذا المصدر.

نجد أنه يمكن استخلاص معلومات هامة من كتب الرحلات، ويمكن اعتمادها لدراسة أوضاع دمشق مع تعزيزها بالمصادر الأخرى لتكوين صورة واضحة عن تلك الفترة وللخروج بدراسة متكاملة وافية حول الموضوع ما لا يمكن الاعتماد على مصدر وحيد فلا بد للمصدر الأساس من مصادر ودراسات أخرى تعززه.

وتالياً أهم النتائج

أولاً: ازدياد عدد سكان دمشق بشكل كبير جداً حيث يذكر الرحالة أن الشوارع في دمشق مكتظة والبيوت فيها عزيرة لكثرة السكان فبالرغم من سفر العدد الكبير من سكان دمشق إلى الحج تبقى المدينة مزدحمة كأن لم يخرج منها أحد.

ثانياً: ازدياد عدد المباني في دمشق مما أجبر سكان المدينة على للجوء إلى للتوسع العامودي وهو بناء الطوابق نظراً لضيق المساحة الخالية للبناء وقد أجر أهالي دمشق بيوتهم للوافدين إلى دمشق وينام أهل البيت المؤجر على سطح المنزل.

ثالثاً: ازدهار الصناعة حيث يذكر الرحالة أنها فاقت صناعة بعض المدن الأوروبية وأن ما بها من مصنوعات يجبر الإنسان على الشراء لو كان يخفي نقوده في قصبة قدميه فجودة البضاعة لا تقاوم بالإضافة إلى طرق أهل دمشق في عرض بضائعهم والتي تجذب الزائر وتشده لاقتناء مصنوعات دمشق. وقد كان ذلك واضح من خلال وصف الرحالة لصناعة دمشق بقولهم إن ما يصنع في دمشق، من أي نوع كان، كبيراً كان أو صغيراً، هو أكثر مما يصنع في أي مكان آخر في الدنيا، سواء في ذلك الأقمشة الحريرية والقطنية والكتانية والذهب والفضة والنحاس من جميع الأصناف، والزجاج من جميع الأنواع. فقد حذق الصناع ذلك كله، وكان منهم مهرة الصناعة في كل فن. وعندهم إلى ذلك غالب أصناف الفواكه التي تحفظ من سنة إلى سنة.

رابعاً: وجود تنظيم خاص للحرفيين حيث نظموا أنفسهم في نقابات خاصة تضمن لهم حقوقهم وعدم دخول أي غريب على حرفتهم وحارتهم

وتعزيز مبدأ وراثة المهن التي انحصرت في العائلات.

خامساً: توزيع الأسواق حسب المهن والصنوف فكل صنف أو حرفة له سوقه الخاص وهذا التنظيم أوجد نوع من التعاون بين أبناء الحرفة الواحدة واوجد المنافسة لإتقان الصنعة ومنع الاحتكار.

سادساً: ازدهار الحركة العلمية في دمشق وتمثل ذلك برعاية طلبة العلم وكفلوا لهم النفقة والكسوة والطعام والإقامة، انطلاقاً من أن التفرغ للعلم والدرس وملازمة الشيوخ، لا يحصل إلا بتكفية طالبيه أمر السعي في أسباب العيش، ولعل هذه الرعاية والعناية التي حظي بها طلاب العلم كانت سبباً في شيوع العلم بين عدد كبير من أفراد المجتمع وعلى الأخص الفقراء والأيتام، فكثيرا ما تهيأت أمامهم السبل لتحصيل العلم والاشتغال به دون عائق، وقد دفع هذا الوضع الكثير من طلاب العلم في مختلف أنحاء العالم الإسلامي آنذاك إلى أن يجعلوا من دمشق، في كثير من الأحيان مقصد استقرارهم واشتغالهم بالعلم، لما زخرت به من مراكز تعليمية، تحفل أغلبها بكافة سبل الرعاية والتشجيع التي كانت تقدم للنازلين فيها فحث الرحالة طالبي العلم للتوجه لدمشق لأنهم سيجدوا كل وسائل الراحة التي تعينهم على التفرغ لتحصيلهم العلمي.

سابعاً: بروز دور الوقف بشكل ملحوظ في دمشق فقد عرف العالم الإسلامي في الفترة الزمنية التي تتناولها الدراسة أنواعاً متعددة من المؤسسات العلمية والدينية شملت في معظمها المدارس والمساجد والزوايا والربط والبيمارستانات، وغيرهما من المراكز والمرافق الأخرى لم تكن تلك المؤسسات بصورة عامة مؤسسات رسمية تابعة للدولة، بل أنها كانت

تنشأ باسم أشخاص معينين سواء من أمراء أو وجهاء، فلم يكن من واجب الدولة الإنفاق عليها، بل كانت تنشأ بموجب وقفيات شخصية تتضمن شروط الواقف لإنشاء تلك المؤسسات ونظامها، وتبين أهدافها وطرق إدارتها وبعضها يحدد المستفيدين من الوقف إن كان نساء أو رجال أو عابري سبيل، وهذه الأوقاف إما أن تكون عقارات في المدن كدور للسكن، والحوانيت والطواحين أو أية عقارات أخرى تدر دخلاً حيث عملت على ما يبينه الضمان الاجتماعي أو التأمين للأفراد في تلك الفترة وقد كان نصيب التعليم من الوقف النصيب الأكبر.

ثامناً: انتشار المؤسسات الاجتماعية التي توفر الرحالة للمقيمين والقادمين لدمشق من خانات وسبل وخانقاوات حيث كان يقصد الفقراء وأبناء السبيل والأرامل.

تاسعاً: اهتم أهالي دمشق برفاهيتهم فجعلوا يوم السبت من كل أسبوع يوم للتنزه والانسجام ولا يلجأ الإنسان للراحة والانسجام إلا إذا كانت أموره المادية والنفسية مستقرة.

هذه المشاهدات التي قدمها لنا الرحالة توضح لنا أن المجتمع الدمشقي كان يعيش نوعاً من الرخاء والرفاه الاجتماعي والاستقرار الأمني إلا أننا لا نعلم إلى أي مدى تعكس روايات الرحالة الواقع الصحيح للمجتمع الدمشقي فالرحالة لا يمكثوا مدة طويلة في المدينة حيث أننا شاهدنا أحد الرحالة وقد استعرض دمشق قد قدم صورة مغايرة جداً لأوضاع دمشق أظهرت مدى انتشار الفساد في دمشق وانصراف القضاة والعلماء لجمع الأموال متناسين حقوق الله وحقوق العباد فقد تهدمت المساجد ولم تجد من يقوم عليها ومع ذلك لا نستطيع إلا أن نقر بان ما أورده الرحالة عن دمشق

يعكس واقع مجتمع دمشق فلا يمكن أن تكون المساجد والمدارس قد شيدت ليراها الرحالة فقط وأن الطلاب قد ذهبوا لتلقي العلم أمام الرحالة أو أن الصناعات قد صنعت بأيام معدودة ليتم تزيين شوارع دمشق أمام الرحالة.

وعليه فإن شهادة الرحالة شهادة تاريخية تثبت أن المجتمع الدمشقي كان يعيش حالة استقرار وتقدم وأن أوضاعة الاقتصادية والاجتماعية كانت متقدمة جداً على غيره من المدن ليس في المنطقة فقط وإنما في العالم أجمع.

هذا جهدي فاإن أحسنت فلله الشكر وإن أخطآت فلي أجر المجتهد.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية:

1. القرآن الكريم
2. ابن الأثير (ت 630هـ/1232م) **الكامل في التاريخ**، تحقيق: خليل مأمون شحادة، ط1، دار المعرفة، لبنان، 1422هـ/2002م.
3. ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد (ت 729هـ/1329م): **معالم القربة في أحكام الحسبة**، تصحيح: لوى، كمبردج، دار الفنون، 1937.
4. ابن الجوزي، شهاب الدين أبي المظفر يوسف بن قزاوغلي، (ت 654هـ/1256م): **مرآة الزمان وعبرة اليقظان**، طبعة أولى، دار الشروق، بيروت، 1405هـ/1985م.
5. ابن الخطيب، لسان الدين (ت 776هـ/1374م): **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق: محمد عبدالله عنان، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي القاهرة، 1393هـ/1973م.
6. ابن الطوير، أبو محمد المرتقي عبدالسلام بن الحسن (ت 617هـ/1220م): **نزهة المقلتين في أخبار الدولتين**، تحقيق: أيمن فؤاد السيد، ط1، فرانتس شتانير، بيروت، 1412هـ/1992م.
7. ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبدالرحمن، (ت 807هـ/1404م): **تاريخ ابن الفرات**، تحقيق قسطنطين زريق، نجلاء عز الدين، ط1، بيروت، منشورات كلية الأداب والعلوم، 1936- 1944م.
8. ابن الفقيه، أبي بكر احمد بن محمد الهمذاني، (ت 290هـ/902م): **مختصر كتاب البلدان**، دار إحياء التراث ط1، (1407هـ/1988م).
9. ابن الفوطي (ت 723هـ/1324م): **الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة**، طبعة بلا، دار الفكر، بيروت، 1407هـ/1987م.
10. ابن القلانسي، حمزة بن أحمد بن علي بن محمد التميمي (ت 555هـ/1160م): **تاريخ دمشق**، تحقيق سهيل زكار، ط1، دار صادر للطباعة والنشر، دمشق، 1435هـ/1983م.
11. ابن الوردي، زين الدين أبو حفص عمر بن المظفر، (ت 749هـ/1348م): **خريدة**

العجائب وفريدة الغرائب، دار الشرق العربي، حلب، 1991.

12. ابن ايبك، أبي بكر بن عبدالله (ت 736هـ/1335م)، **كنز الدرر وجامع الغرر**، تحقيق: اولرخ هارمان، ط1، قسم الدراسات الإسلامية المعهد الألماني للآثار بالقاهرة، 1390هـ/1971م.

13. ابن بشكوال، خلف بن عبدالملك بن مسعود بن موسى (ت 578هـ/1183م): **الصلة**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، الطبعة الأولى، دار الكتاب المصري، 1410هـ/1990م.

14. ابن بطوطة، أبوعبدالله محمد بن عبدالله (ت 779هـ/1377م): **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، شرحه وكتب هوامشه: طلال حرب، الطبعة 3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1423هـ/2002م.

15. ابن تيمية، احمد بن عبدالحليم (ت 728هـ/1328م): **الرسالة القبرصية**، تحقيق: علاء الدين دمج، ط2، دار ابن حزم، بيروت، 1410هـ/1990م.

16. ابن جير، أبو الحسن محمد بن أحمد بن جير (ت 614هـ/1217م): **رحلة ابن جير**، د.ط، دار صادر، 1384هـ/1964م.

17. ابن حوقل، أبي القاسم بن حوقل النصبي (ت 67هـ/979م): **صورة الأرض**، ط1، مكتبة الحياة، بيروت، 1979.

18. ابن خلكان، أبي العباس شمس الدين احمد بن عمر بن أبي بكر (ت 681هـ/1282م)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** تحقيق: إحسان عباس، (د. ط)، دار صادر، د. ت. ن.

19. ابن رشيد، محمد بن عمر بن رشيد الفهري (ت 721هـ/1321م): **ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة**، تحقيق : محمد الحبيب ابن الخوجة، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، 1408هـ/1988م.

20. ابن سعيد، علي بن موسى بن محمد بن عبدالملك (ت 685هـ/1286م): **المغرب في حلى المغرب**، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1417هـ/1997م.

21. ابن شداد، عزالدين أبي عبدالله محمد بن علي بن إبراهيم (ت 684هـ/1285م):

الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق :سامي دهمان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية دمشق، 1375هـ/1956م.

22. ابن شداد، بهاء الدين (ت 632هـ/1239م): **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، تحقيق: جمال الدين الشيال، الطبعة الأولى، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1415هـ/1994م.
23. ابن طولون، محمد (ت 953هـ/1546م): **إعلام الورى بمن ولي نائب من الأتراك بدمشق**، تحقيق: محمد دهمان، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، 1404هـ/1984م.
24. ابن طولون، محمد (ت 953هـ/1546م): **القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية**، القسم الاول، تحقيق: محمد دهمان، ط1، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1401هـ/1980م،
25. ابن عبدالهادي، جمال الدين يوسف بن حسن، (ت 909هـ/1504م): **رسائل دمشقية، نزهة الرفاق في شرح حالة الأسواق**، تحقيق :الشافعي، محمد الخيمي، ط1، دار ابن كثير، دمشق، 1408هـ/1988م.
26. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي، (ت 571هـ/1176م):
27. **تاريخ مدينة دمشق**، تحقيق: محب الدين أبي سعيد، د.ط، ج1، دار الفكر، بيروت، 1415هـ/1995م.
28. ابن كثير، ابي الفداء عماد الدين (ت 774هـ/1372م): **البداية والنهاية**، تحقيق: مصطفى بن العدوي، ط1، دار ابن رجب، مصر، 1425هـ/2005م.
29. ابن كنان، محمد بن عيسى (ت 1153هـ/1740م): "**نيابتا دمشق وحلب**" من كتاب المواكب الإسلامية، تحقيق: بندر محمد الهمذاني، الطبعة الأولى، جامعة أم القرى، 1423هـ/2002م.
30. ابن مماتي، أسعد بن المهذب (ت 606هـ/1209م): **قوانين الدواوين**، تحقيق :عزيز سوريال، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1421هـ/1991م.

31. أبـو شـامة، شـهاب الـدين أبـي محمـد (ت 665هـ/1267م): **تـراجم القـرنين السـادس والسابع**، مراجعة: السيد يزن العفار، دار الجليل، بيروت ط2، 1974.

32. أبو يوسف:يعقوب بن إبراهيم (ت 182هـ/798م): **الخراج**، د.ط، د.ت.

33. أبـي الهيجـاء، عـز الـدين محمـد بـن أبـي الهيجـاء، (ت 700هـ/1301م): **تـاريخ أبـي الهيجاء**، تحقيق: صبحي عبدالمنعم محمد، ط1، رياض الصـالحين للنشـر والتوزيـع، 1413هـ/1993م.

34. أبـي شـامة، عبـدالرحمن بـن إسماعيـل بـن إبـراهيم المقدسـي (ت 665هـ/1267م): **مختصر كتاب الروضتين في أخبار الدولتين**، اختصار وتعليق: محمد بـن حسـن بـن عقيل، الطبعة الأولى، دار الأندلس، جدة، 1418هـ/1997م.

35. الإدريسـي، أبـي عبـدالله محمـد بـن عبـدالله بـن إدريـس، (ت 560هـ/1164م): **نزهـة المشتاق في اختراق الآفاق**، ط1، عـالم الكتـاب، بيروت، 1409هـ/1989م.

36. الاربلـي، الحسـن بـن احمـد بـن زفـر (ت 726هـ/1326م) **مـدارس دمشـق وربطهـا وجوامعها وحماماتها**، تحقيق :محمد احمد دهمان، ط1، دمشق، 1366هـ/1947م

37. الاصطخري، أبي زيد احمد بن سهل البلخي، (ت 300هـ/912م): **مسـالك الممالـك**، طبعة ليدن، 1927.

38. الأصفهاني، عماد الدين أبو عبدالله محمد بن صفي الدين (ت 597هـ/1220م): **سنا البرق الشامي**، تحقيق: رمضان ششن، ط1، ج1، دار الكتاب الجديد، 1971.

39. البـدري، أبـي البقـاء عبـدالله (ت 894هـ/1489م): **نزهـة الأنـام في محاسـن الشـام**، ط1، دار الرائد العربي، بيروت، 1400هـ/1980م.

40. البكـري، أبـي عبـدالله البكـري، (ت 487هـ/1094م): **المسـالك والممالـك**، تحقيـق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، ط1، الدار العربية للكتاب، بيروت، 1992.

41. البلاذري، أبو الحسن احمد بن يحيى بن جابر، (ت 892م): **فتوح البلـدان**، مراجعـة وتعليق رضوان محمد رضوان، ط بلا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1398هـ/1978م.

42. التطيلـي، بنيـامين بـن بونـه، **رحلـة بنـايمن التطيلـي**، ترجمـة:عـزرا حـداد، بغـداد، ط1، 1364هـ/1945م.

43. التيجي، القاسم بن يوسف، (ت 873هـ/1329م): **مستفاد الرحلة والاغتراب**، تحقيق عبدالحافظ منصور، ط1، الدار العربية للكتاب، تونس، 1975م.
44. الحموي، شهاب الدين (ت 626هـ/1228م): **معجم البلدان**، ط2، دار صادر، بيروت.
45. الحميدي، أبي عبدالله محمد بن نصر (ت 488هـ/1095م): **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، الدار المصرية، 1966.
46. الحميري محمد بن عبدالمنعم (ت 900هـ/1494م): **الروض المعطار في خبر الأقطار**، ط2، مكتبة لبنان، 1984.
47. الحنبلي، أبي الخرج عبدالرحمن بن احمد بن رجب (ت 795هـ/1393م): **الاستخراج لأحكام الخراج**، تحقيق، السيد عبدالله الصديق، ط.د، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
48. الحنبلي، الأحمد بن إبراهيم (ت 876هـ/1471م): **شفاء القلوب في مناقب بني أيوب**، تحقيق: مديحة الشرقاوي، ط1، مكتبة الثقافة، القاهرة، 1996م/1415هـ.
49. النعيمي، عبدالقادر بن محمد (ت 927هـ/1521م): **الدارس في تاريخ المدارس**، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1410هـ/1990م.
50. الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان (ت 748هـ/1348م): **تاريخ الإسلام**، تحقيق عمر عبدالسلام التدمري، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1418هـ/1997م.
51. السبكي، تاج الدين عبدالوهاب (ت 771هـ/1369م): **معيد النعم ومبيد النقم**، تحقيق: محمد علي النجار وآخرون، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1413هـ/1993م.
52. السخاوي، الحافظ شمس الدين محمد بن عبدالرحمن، (ت 902هـ/1497م): **التبر المسبوك في ذيل السلوك**، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهره، ط1، د.ن.
53. السيوطي، جلال الدين (ت 911هـ/1505م): **تاريخ الخلفاء**، مراجعة جمال محمود مصطفى، ط2، دار الفجر، القاهرة، 1425هـ/2004م.
54. شيخ الربوة، شمس الدين محمد بن أبي طالب (ت 727هـ/1325م): نخبة الدهر **في عجائب البر والبحر**، د.ط، د.ت.

55. الشيزري، عبدالرحمن بن نصر (ت 589هـ/1193م) : **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**، تحقيق، الباز العريني، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ط1، 1365هـ/1946م.

56. الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك (ت 764هـ/1362م): **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرناؤط وآخرون، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث، 1420هـ/2000م.

57. الضبي، احمد بن يحيى بن احمد بن عميرة (ت 599هـ/1203م): العربي، **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس**، دار الكتاب العربي، 1967م.

58. الطبري، أبي جعفر محمد بن جبير (ت 310هـ/922م): **تاريخ الأمم والملوك**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1424هـ/2003م، المجلد الثاني.

59. الظاهري، غرس الدين خليل (ت 873هـ/1467م): **زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك**، تحقيق: يولس راويس، ط1، باريس، 1892.

60. العطار، محمد (ت 1177هـ/1827م): **علم المياه الجارية في مدينة دمشق**، تحقيق: أحمد غسان سبانو، ط1، دار قتيبة، دمشق، 1404هـ/1984م

61. العيني، بدر الدين محمود (ت 855هـ/1451م): **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**، تحيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية، ط بلا، 1407هـ/1987م.

62. الفهري، محمد **بن** عمر **بن** محمد (ت 721هـ/1321م): **ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة، تحقيق،** محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1408هـ/1988م.

63. القرشي، يحيى بن ادم (ت 202هـ/817م): **الخراج**، تصحيح: أحمد محمد شاكر، ط2، دار التراث، القاهرة.

64. القلقشندي، أحمد بن علي (ت 821هـ/1418م): **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، دار الكتب الخديوية، القاهرة، 1332هـ/1914م.

65. الكتبي، ابن شاكر (ت 764هـ/1362م): **عيون التواريخ**، تحقيق نبيلة عبدالمنعم، مطبعةأ، د.ط. بغداد، 1991م.

66. الماوردي، أبى الحسن علي بن محمد (ت 450هـ/1058م): **الأحكام السلطانية**، تحقيق: أحمد مبارك البغدادي، ط9، دار ابن قتيبة، الكويت، 1141هـ/1989م.

67. المراكشي، أبو عبدالله محمدوالصلة، الملك الأنصاري الأوسي، (ت 703هـ/1303م): **الذيل والتكملة لكتاب الموصل والصلة**، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة الأولى، دار الثقافة، بيروت، 1965م.

68. المسعودي، أبي الحسن علي بن الحسين بن علي (ت 346هـ/957م): **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، مكتبة المدرسة، ط1، 1402هـ/1982م.

69. المقدسي، محمد بن احمد (ت 390هـ/1000م): **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، الطبعة الأولى دار السويدي للنشر والتوزيع أبو ظبي.

70. المقريزي، تقي الدين احمد بن علي (ت 845هـ/1442م): **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق: محمد مصطفي زيادة، مصر الجديدة، طبعة أولى، 1376هـ/1957م.

71. المقري، احمد محمد. (ت 1041هـ/1631م): **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، شرحه وضبط حواشيه مريم طويل وآخرون، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1415هـ/1995م.

72. النباهي، ابن الحسين (ت 793هـ/1390م): **تاريخ قضاة الأندلس** ضبط وشرح مريم قاسم طويل، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ/1995م.

73. النويري، شهاب الدين احمد، تحقيق الوهاب (ت 732هـ/1331م): **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق: مفيد قمحية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1323هـ/2004م.

74. الهروي، أبي الحسن الزيارات، بكر (ت 611هـ/1214م): **الإشارات إلى معرفة الزيارات**، تحقيق: علي عمر، طبعة، بلا، مكتبة الثقافة الدينية.

75. الوهراني، ركن الدين محمد بن محمد بن محرز (ت 575هـ/1175م): **منامات الوهراني ومقاماته ورسائله**، تحقيق: إبراهيم شعلان ومحمد نغش، ط1، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، 1988م.

76. اليافعي، ابي محمد عبدالله بن اسعد بن علي (ت 768هـ/1365م) مراة الجنان وعبرة اليقظان، وضع حواشية: خليل المنصور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1419هـ/1991م.

ثانياً: المصادر الأجنبية:

1. Nicola of Poggibonsi A ، A voyage beyond the seas, Jerusalem, 1945.
2. Frescobal Gucci and Sigole, Visit to the Holly places of Egypt senal Palestine and Syria in 1384.

ثالثا: المراجع العربية الحديثة:

1. أبو زهره، محمد، **محاضرات في الوقف**، معهد الدراسات العربية، ط1، مطبعة احمد مخمير، 1959م.
2. أحمد الغفري، **دمشق أقدم مدينة في التاريخ**، تحرير، نجاة قصاب، ط1، مكتبة الأسد، دمشق، سورية، 1991م.
3. ارسلان، شكيب: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، د. ط، الحياة، بيروت د. ت.
4. أعرب، سعيد، **مع القاضي أبي بكر بن العربي**، طبعة 1، دار الغرب الإسلامي.
5. الألفي، أبو صالح، **الفن الإسلامي**، أصوله وفلسفته، ط1، دار المعارف، بيروت.
6. الأنصاري، عبدالقدوس، **مع ابن جبير في رحلته**، الطبعة الأولى، المطبعة العربية الحديثة /جدة، 1306هـ/1976م.
7. الاوتاني، أحمد محمد، **دمشق في العصر الأيوبي**، ط1، التلوين للتأليف والنشر، دمشق، 2007.
8. الايبش، احمد، والشهابي، قتيبة، **دمشق في نصوص الرحالين العرب والمسلمين**، طبعة 1، منشورات، وزارة الثقافة، دمشق، 1998.
9. الباشا، حسن، **الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق**، ط2، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، 1409هـ/1989م.
10. السامرائي، فراس سليم، **التقاليد والعادات الدمشقية**، ط1، دمشق، 1425هـ/2004م.
11. الشربيني، البيومي إسماعيل، **مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية**، عصر سلاطين المماليك، الهيئة العامة للكتاب، تاريخ المصريين، 1997م.
12. الشامي، أحمد، **تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى**، ط1، دار النهضة العربية، القاهرة، 1405هـ/1985م.

13. الطنطاوي، علي، **الجامع الأموي في دمشق**، ط1، دار المنارة، جدة، 1410هـ/1990م.
14. العبادي، احمد، **قيام دولة المماليك الأول**، د.ط، مؤسسة الشباب، الإسكندرية، 1982م.
15. المنجد، صلاح الدين، **ولاة دمشق في العهد السلجوقي**، ط3، دار الكتاب، بيروت، 1981م.
16. بهنسي، عفيف، **جمالية الفن العربي**، عالم المعرفة، الكويت، فبراير، 1979م.
17. حسن، زكي، **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، (د.ط)، دار الرائد العربي، بيروت، 1401هـ/1981م.
18. حسن، محمد عبدالغني، الشريف الإدريسي أشهر جغرافي العرب والإسلام، الهيئة المصرية لل، طبعة 1، والنشر، طبعة، بلا، 1971م.
19. خير، صفوح، **مدينة دمشق دراسة في جغرافية المدن**، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، طبعة1، د.ت.
20. دهمان، محمد أحمد، **ألفاظ التاريخية في العصر المملوكي**، طبعة أولى، دار الفكر، دمشق، 1410هـ/1990م.
21. دهمان، محمد أحمد، **ولاة دمشق في عهد المماليك**، الطبعة الثانية، دار الفكر، دمشق، 1404هـ/1984م.
22. دهمان، محمد احمد، **في رحاب دمشق**، ط1، دار الفكر، دمشق، 1982م.
23. دمشق في التاريخ، ندوة، وزارة التعليم العالي، دمشق، ط1، ذي القعدة 1427هـ/تشرين ثاني 2006م.
24. رمضان، أحمد، **الرحلة والرحالة المسلمون**، (د، ط)، دار البيان العربي، جدة.
25. زكار، سهيل، **مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية**، ط2، دار الفكر، 1975م.
26. زكار، سهيل، **الموسوعة الشامية في الحروب الصليبية**، ط1، دمشق 1420هـ/1999م.
27. زكار، سهيل، "**ملامح الحياة الاجتماعية في دمشق**"، ندوة دمشق أقدم مدينة في التاريخ، تحرير: نجاة قصاب، ط1، دمشق، 1991م.
28. زيادة، نقولا، **الجغرافية والرحلات عند العرب**، الشركة العالمية للكتاب، (د.ط)،

1987م.

29. زيادة، نقولا، **دمشق في عصر المماليك**، ط1، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، بيروت، د ت.

30. زيادة، نقولا، **رواد الشرق العربي في العصور الوسطى**، القدس، 1943.

31. زيان، حامد زيان، **الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية**، ط1، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1403هـ/1983م.

32. سالم، السيد عبدالعزيز، **تاريخ الأيوبيين والمماليك**، د.ط، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997م.

33. سخنيني، عصام، **طغتكين اتابك** دمشق، ط1، دمشق، 488هـ- 522هـ/1095م-1128م، منشورات جامعة البتراء الخاصة، 2003م.

34. شلبي، محمد مصطفى، **احكام الوصايا والأوقاف**: الطبعة الرابعة، الدار الجامعية، بيروت، 1402هـ/1982م.

35. ضيف، شوقي، **الرحلات**، د ط، دار المعارف، القاهرة د. ت.ن.

36. طرخان، إبراهيم علي، **النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط**، ط1، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1338هـ/1968م.

37. طقوس، محمد سهيل، **تاريخ المماليك في مصر والشام**، الطبعة الثانية، دار النفائس، بيروت، 1420هـ/1999م.

38. عاشور، سعيد عبالفتاح، **المجتمع المصري في عهد سلاطين المماليك**، دار النهضة العربية، طبعة جديدة، 1992م.

39. عاشور، سعيد عبالفتاح، **الأيوبيون والمماليك في مصر والشام**، طبعة منقحة، دار النهضة العربية، القاهرة، 1996م.

40. عاشور، سعيد عبالفتاح، **نظام الحكم والإدارة في عصر الايوبين والمماليك**، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1995م.

41. عاشور، فايد حماد، **العلاقة بين البندقية والشرق الأدنى الإسلامي في العصر**

الأيوبي، دار المعارف، ط1، 1980م.

42. عباس، إحسان، **دراسة في الرحلة ابن جير الأندلسي البلنسي الكناني**، طبعة 1، دار الغرب الإسلامي، 2001م.

43. عثمان، حسن، المدينة الإسلامية، **سلسلة عالم المعرفة**، الكويت، ع 228، ا ب 1988م.

44. عطا، زبيدة، **الترك في العصور الوسطى**، ط بلا، دار الفكر العربي، تاريخ نشر، بلا.

45. عطوي، فوزي، **الاقتصاد والمال في التشريع الإسلامي**، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1408هـ/1988م.

46. علي، السيد علي، **العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين**، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ط1، 1417هـ/1996م.

47. غوانمه، يوسف درويش، **التاريخ السياسي لشرقي الأردن**، الطبعة الثانية، دار الفكر، عمان، 1982م.

48. قاسم، قاسم عبده، **الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري**، ط1، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، د. ت.ن.

49. كاتبي، غيداء خزنة، **الخراج**، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، د.ت.

50. كرد، محمد كرد علي، خطط الشام، مطبعة الترقي، دمشق، 1345هـ/1926م.

51. كرد، محمد كرد علي، دمشق مدينة السحر والشعر، دار الفكر، دمشق، ط2، 1984م.

52. محمد، حسن زكي، **فنون الإسلام**، القاهرة، 1948م.

53. مصطفى السباعي: **روائع من حضارتنا**، دار السلام، القاهرة، ط1، 1418هـ/1998م.

54. مصطفى، شاكر، **صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفترى عليه**، الطبعة الأولى، دار القلم، 1419هـ/1998م.

55. المعلوف، عيسى اسكندر، **صناعات دمشق القديمة**، ط1، محاضرات المجمع العلمي العربي، المطبعة الحديثة، دمشق، 1343هـ/1925م.

56. نصر، على منصور، **العلاقات التجارية بين الخليج العربي والشام في العصر السلجوقي**، المؤتمر الدولي السادس لتاريخ بلاد الشام، دمشق، 12/10 تشرين الثاني /نوفمبر 2001م.

رابعا: المراجع الأجنبية المترجمة:

1. أ، أشتور، **التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الوسط في العصور الوسطى،** ترجمة: عبدالهادي عبلة، ط1، دار قتيبة، دمشق، 1985م.
2. البير شاندور: **صلاح الدين الأيوبي البطل الأنقى في الإسلام،** ترجمة: سعيد أبو الحسن، تحقيق: نديم مرعشلي، دار طلاس، الطبعة الثانية، 1993م.
3. بوول، ستانلي: **صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس،** ترجمة فاروق أبو جابر، الأهرام للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1416هـ/1995م.
4. ديل، شارل: **البندقية جمهورية ارستقراطية**، ترجمة، احمد عزت عبدالكريم وآخرون، ط1، دار المعارف القاهرة، د.ت.
5. ريمون، اندريه: **المدن العربية الكبرى،** ترجمة لطيف فراح، دار الفكر، ط1، 1991م.
6. سوريال، عزيز: **العلاقات بين الشرق والغرب تجارية – ثقافية- صليبية**، ترجمة، فليب صابر سيف، مراجعة احمد خاكي، ط1، دار الثقافة المسيحية، القاهرة، 1972م.
7. سوفاجيه، جان: **دمشق الشام لمحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى عهد الإنتداب،** تعريب فؤاد افرام البستاني تحقيق: أكرم حسن العلبي، الحمراء دمشق، 1989م.
8. سيف، نيكيتا: **الشرق الإسلامي في العصور الوسطى،** ترجمة منصور أبو الحسن، د.ط، دار الكتاب الحديث، بيروت، 1406هـ/1986م.
9. شليشر، ليندا: **دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، ترجمة عمرو الملاح ودينا الملاح، مراجعة عطاف مارديني، ط1، دار الجمهورية، دمشق، 1419هـ/1998م.
10. كراتشكوفسكي، اغناطيوس: **تاريخ الأدب الجغرافي العربي،** ترجمة صلاح

عثمان، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987م.

11. لابيدوس، ايرا: **مدن الشام في العصر المملوكي**، ترجمة سهيل زكار، ط1، دار إحسان للطباعة والنشر، دمشق، 1405هـ/1985م.

12. لويس، برنارد: **لغة السياسة في الإسلام**، ترجمة، إبراهيم شتا، ط1، دار قرطبة للنشر والتوثيق، 1993م.

13. م.ف.مينورسكي، **الجغرافيون والرحالة المسلمون**، ترجمة: عبدالرحمن حميده، العدد 73، الجمعية الجغرافية الكويتية، ربيع ثاني 1405هـ/يناير 1985.

14. هايد، ف، **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى** في العصور الوسطى، ترجمة: احمد رضا محمد، ط1، الهيئة المثرية للكتاب، القاهرة، 1985م.

خامسا: الرسائل الجامعية

1. الخصاونة، تحسين احمد، **طبقات المجتمع في بلاد الشام في العصر المملوكي**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، 1992م.
2. المقابلة، معن، **المؤسسات الاجتماعية والثقافية في بلاد الشام في العصر المملوكي**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، 1992م.
3. عبدالله، محمد فيصل، **الاسواق الشامية في العصر المملوكي**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، 1992م.

سادسا: الدوريات والصحف:

1. أبيض، ملكة، تنظيم التعليم بالمسجد الجامع بدمشق قبل نشوء المدارس، **مجلة التراث العربي**، العدد22، السنة السادسة، كانون الثاني 1986/جماد الاول 1406
2. البيطار، محمد بهجت، المدرسون تحت قبة النسر، **مجلة المجمع العلمي العربي**، دمشق، العدد 24، ج1، 1956م.
3. عبدالهادي التازي، لقاء الفقيه والرحالة هل التقى ابن تيمية ابن بطوطة، العربي، ع553، 2004/12/1، الكويت
4. التكريتي، حمود، البعد الاجتماعي الحضاري لسياسة صلاح الدين، **مجلة المؤرخ العربي**، بغداد، العدد (49)، 1415هـ/1995م.

5. التويجري، عبدالعزيز بن عثمان، "صور من الإسهام العلمي للمرأة في التاريخ الإسلامي "**صحيفة الشرق الأوسط**، عدد9262، لندن، تاريخ 17 صفر 1425

6. الخير، هاني، البيت الدمشقي، **صحيفة الثورة**، دمشق، العدد 13504، التاريخ، 2008/1/6.

7. بركات محمد مراد، **جماليات الفن الإسلامي تظهر في الخزف والزجاج والقاشاني**، مجلة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف، الكويت، العدد 476، 2005/5/15.

8. خضر، سمير، في أسواق دمشق القديمة، **مجلة الأهرام العربي**، العدد572، 2008/3/8م.

9. دوغان، دمير، المدينة الإسلامية مرآة للحضارة الإنسانية، **مجلة حراء**، تركيا، السنة الرابعة، العدد 14، مارس 2009م، ترجمة: نور الدين صواش.

10. الدويري، هناء، البيمارستان النوري أول كليات الطب في الشرق، **صحيفة الثورة دمشق**، العدد13504، 2008/1/6.

11. الزيات، حبيب، حارات دمشق القديمة، **مجلة المشرق**، مجلد35، ج1، 1937

12. زيادة، نقولا، الحياة العلمية في بلاد الشام في ايام المماليك، **مجلة التراث العربي**، دمشق، العددان55- 56 نيسان وتموز 1994

13. زيتون، عادل، الحضارة العربية قراءة في قصة التدهور، **مجلة العربي**، الكويت، العدد 605، 1/ابريل/2009م 1430/4/6هـ.

14. سعد، لينا، نماذج لفنون العمارة، **صحيفة الحياة، لندن**، العدد15353، تاريخ 2005/4/14، 5/ربيع الأول/1426.

15. عاشور، سعد عبدالفتاح، الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية، **عالم الفكر**، الكويت، المجلد الأول، العدد الأول، ابريل، مايو، يونيو، 1980.

16. العشي، أبو الفرج، تطور صناعة الزجاج السوري، **مجلة الحوليات الأثرية السورية**، ج16، 1966م..

17. عوض، محمد مؤنس، الأسواق التجارية في عهد الدولة النورية، **مجلة الدارة**، العدد

الثالث، السنة السادسة عشرة، ربيع الآخر، جمادى الأول، جمادى الآخرة، 1421هـ.

18. الفقي، عبدا عبدالقادر، دور الوقف الإسلامي في التنمية وحماية البيئة، **مجلة الوعي الإسلامي**، الكويت، العدد 456، تاريخ 2003/9/1م.

19. كاهن، كلود، الحركات الشعبية والاستقلال الذاتي في المدن الإسلامية خلال القرون الوسطى، **مجلة الاجتهاد**، العدد السادس، السنة الثانية، 1990- 1410.

20. كنوان، عبدالله، الشريف الادريسي اعظم جغرافي اتى بعد بطليموس في القرون الوسطى، مجلة المناهل، وزارة الثقافة المغربية، ع1، السنة الاولى، ذو القعدة 1394هـ/نوفمبر 1974م.

21. لامنس، هنري، دمشق وأسماؤها القديمة، **مجلة المشرق**، مجلد3، عدد 14، 1900م.

22. لامنس، هنري، كيف صارت دمشق عاصمة، **مجلة المشرق**، السنة التاسعة والعشرون، كانون أول 1931م.

23. مصطفى، شاكر، الحركات الشعبية وزعمائها في دمشق في العهد الفاطمي، **مجلة كلية الآداب والتربية**، جامعة الكويت، العدد الثالث والرابع، حزيران 1973م جمادى الأولى 1393هـ، كانون أول: ذو القعدة.

24. المعتوق، عبدالله، نظام الوقف الإسلامي مظهر مشرق للتعاون والتكافل الإنساني، **جريدة القبس**، الكويت، العدد 12169، التاريخ 2007/4/19م.

25. المنجد، صلاح الدين، وصف دمشق في مسالك الأبصار، **مجلة معهد المخطوطات العربية**، المجلد الثالث، ج1، شوال 1367 /مايو 1957م.

26. المنجد، صلاح الدين، خطط دمشق، **مجلة المشرق**، السنة الثالثة والاربعون، كانون الثاني/اذار 1949م.

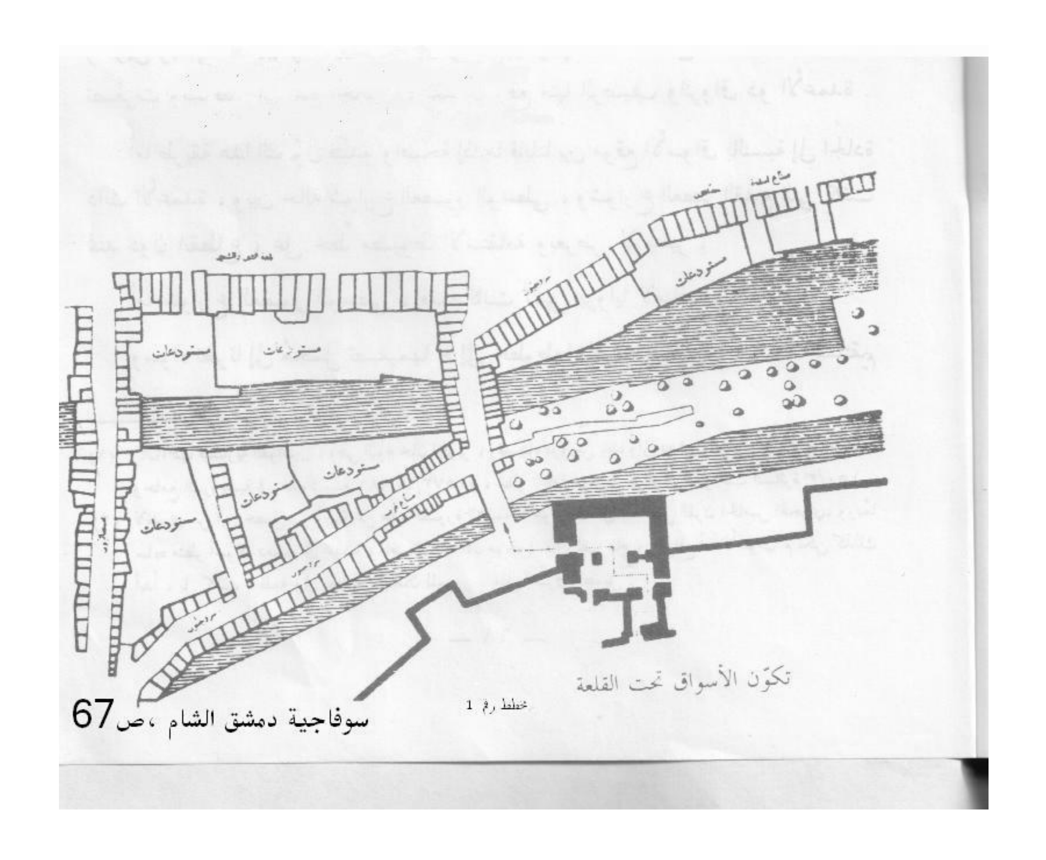
سابعا : المواقع الاكترونية :

www.discover-syria.com

www.landcivi.com

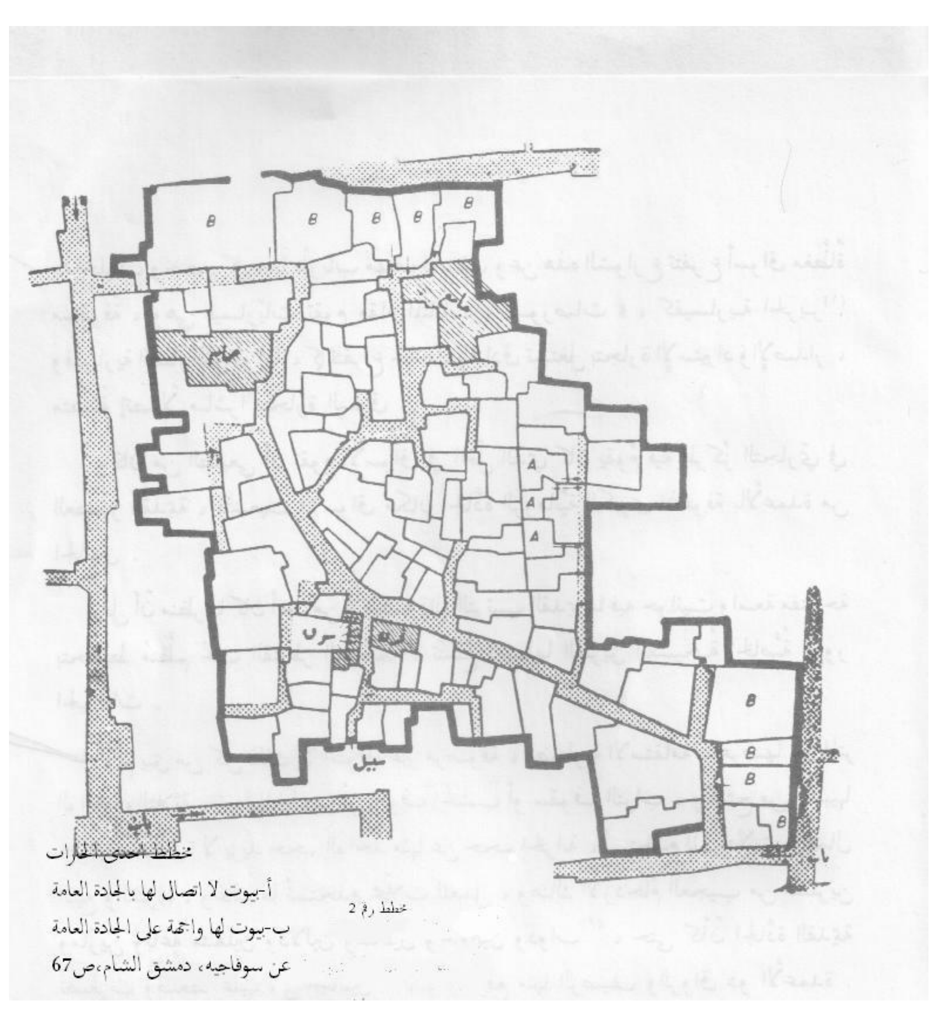
مخططات لدمشق

مأخوذة من كتاب سوفاجيه، دمشق الشام.



مخطط رقم (1)

سوق تحت القلعة وتعود شهرة هذا السوق إلى العهد المملوكي حيث احتوى كل ما يتعلق بأمور المماليك العسكرية



مخطط رقم (2)

يبين تصميم البيوت والحارات بدمشق

A – بيوت لا اتصال لها بالجادة العامة

B – بيوت لها واجهة الجادة العامة

مأخوذة عن سوفاجيه، دمشق الشام، ص67



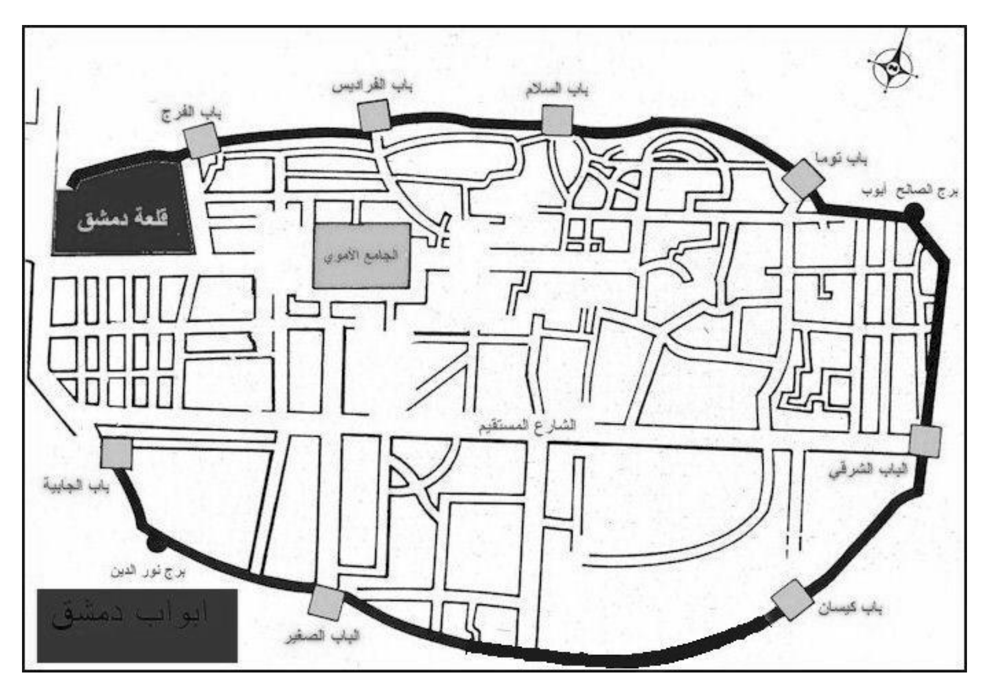
مخطط رقم (3)

يوضح بعض أحياء وحارات ومقابر دمشق

عن سوفاجيه، دمشق الشام، ص89

صور من موقع اكتشف سوريا على الانترنت لبعض المواقع الهامة والتي تطرقت لها الدراسة أثناء وصف دمشق للتوضيح،

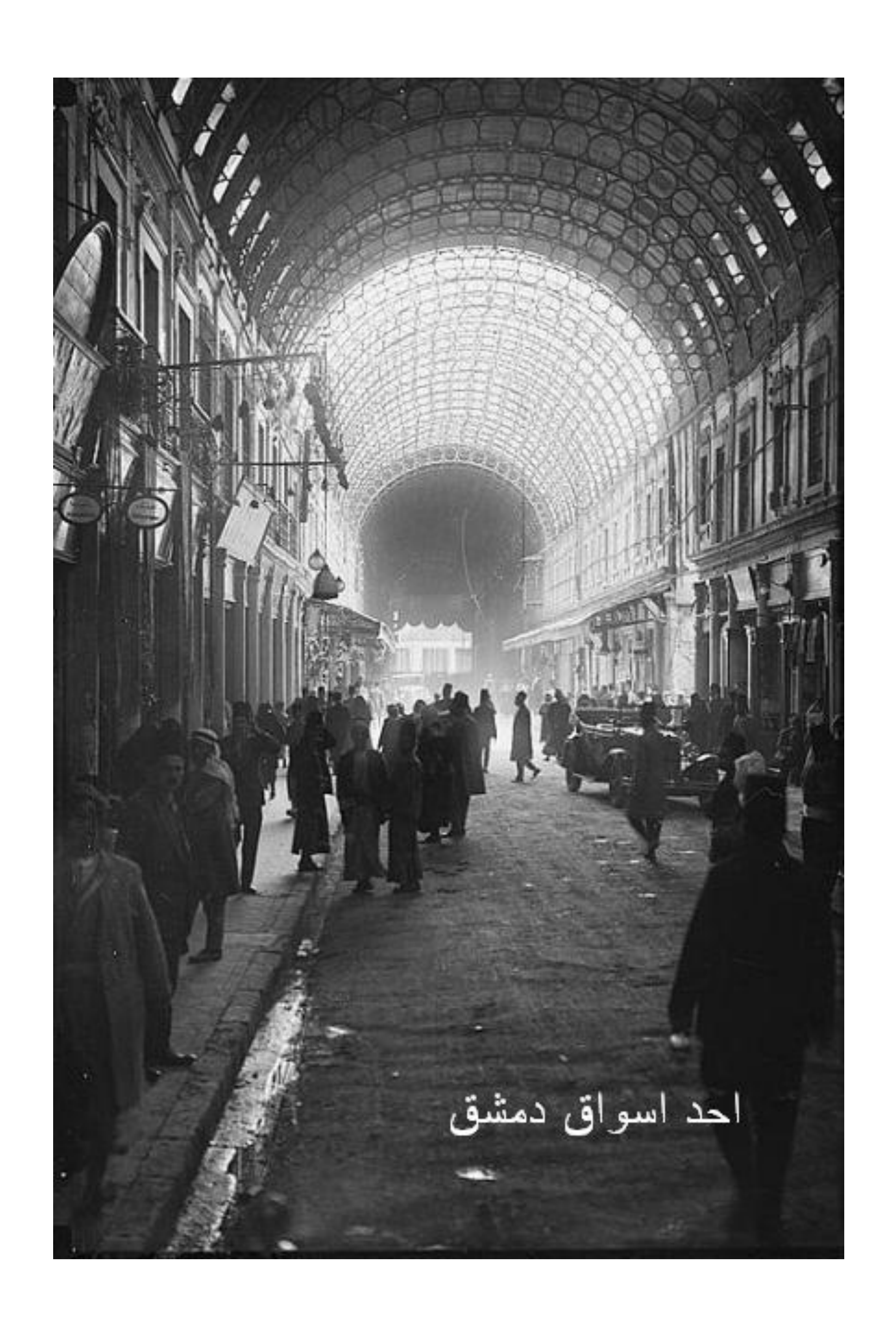
/www.discover-syria.com/



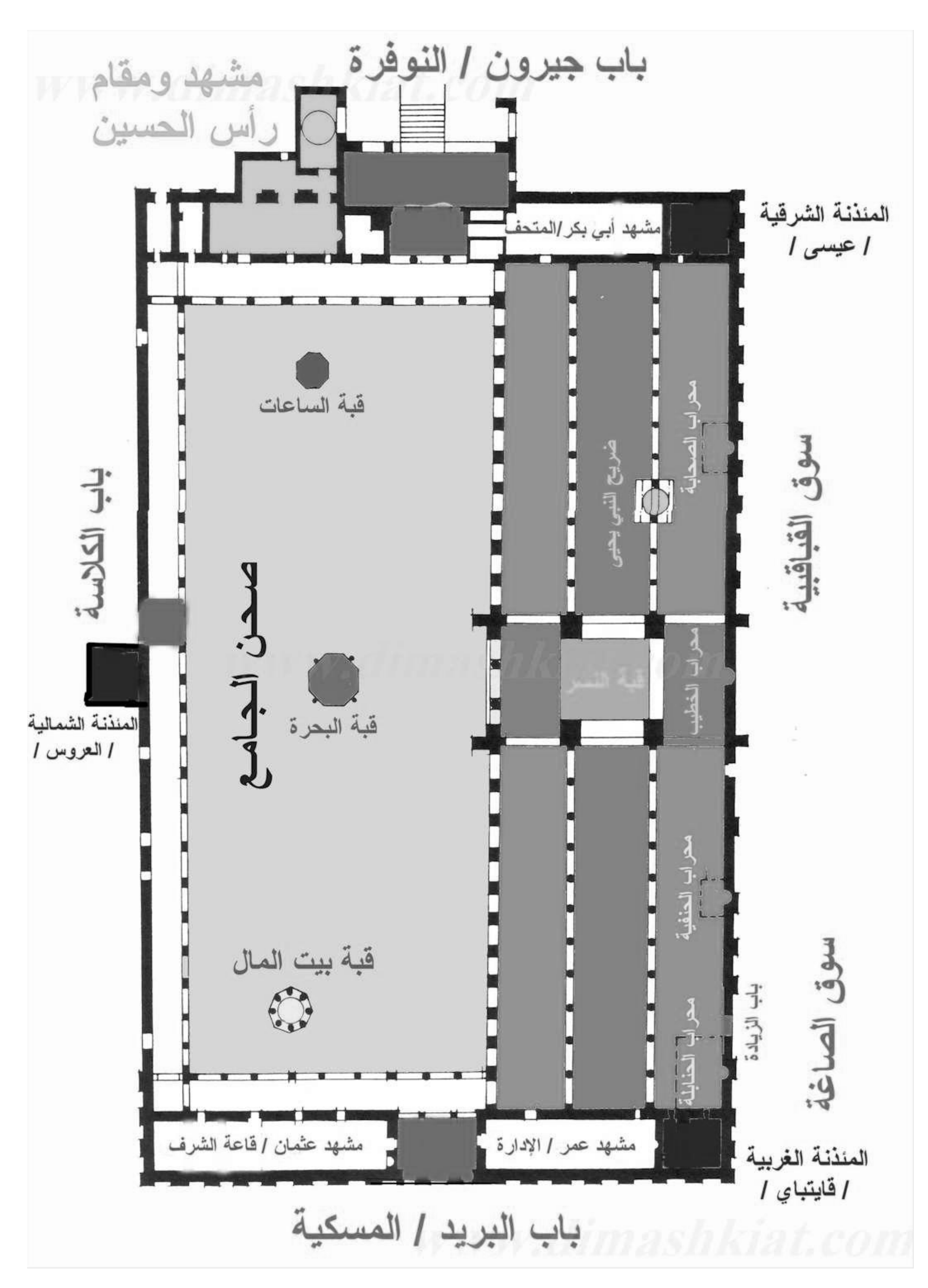
مخطط دمشق القديمة


سور دمشق
15,084. P. Z. - DAMAS. Mur par où St-Paul


المسجد الاموي و القلعة



احد اسواق دمشق

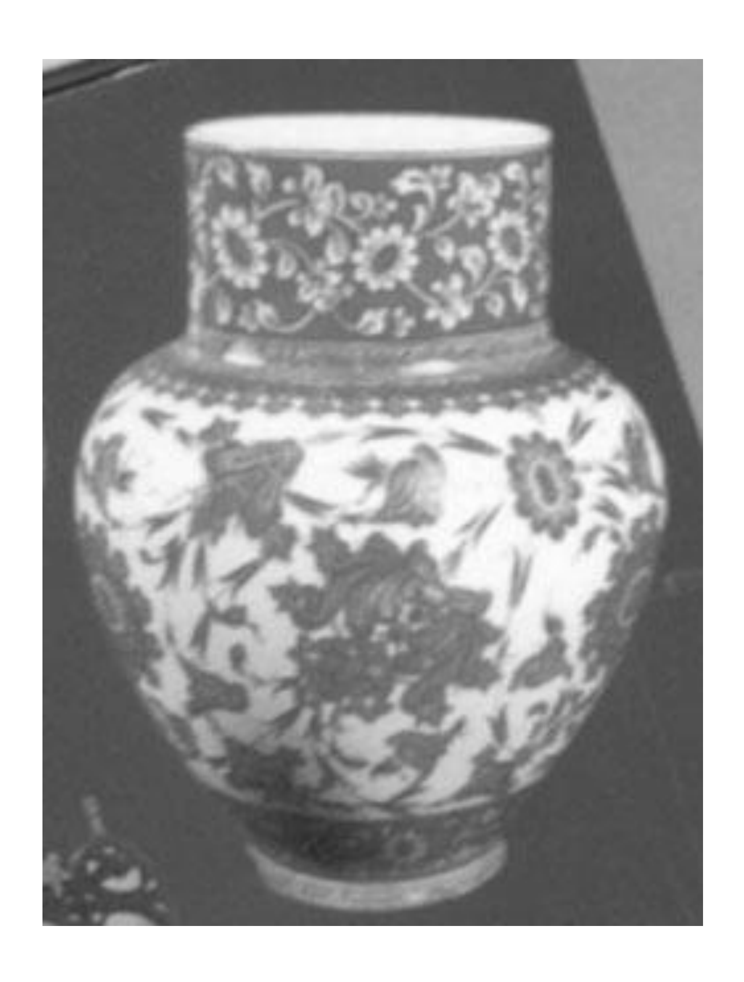


مخطط للمسجد الاموي

نماذج من الزجاج الدمشقي

المصدر صحيفة تشرين السورية

تاريخ 2008/2/16

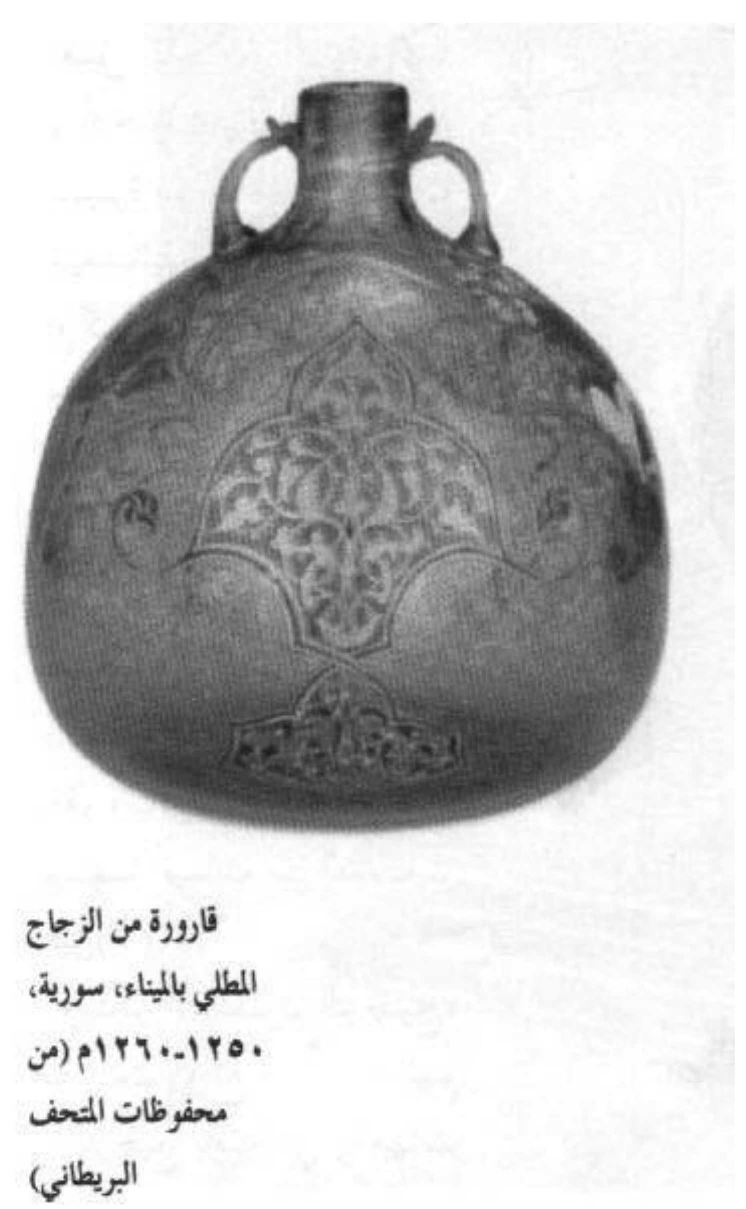


نموذج (1)



نموذج (2)

نماذج الزجاج السوري مأخوذمن موقع ارض الحضارات على شبكة الانترنت
www.landcivi.com



قارورة من الزجاج
المطلي بالميناء، سورية،
١٢٥٠-١٢٦٠م (من
محفوظات المتحف
البريطاني)

نموذج رقم (1)


قنينة من
زجاج بلا لون
مع تصميمات مينائية
وذهبية سورية
الربع الثاني من القرن
السابع الهجري

نموذج رقم (2)